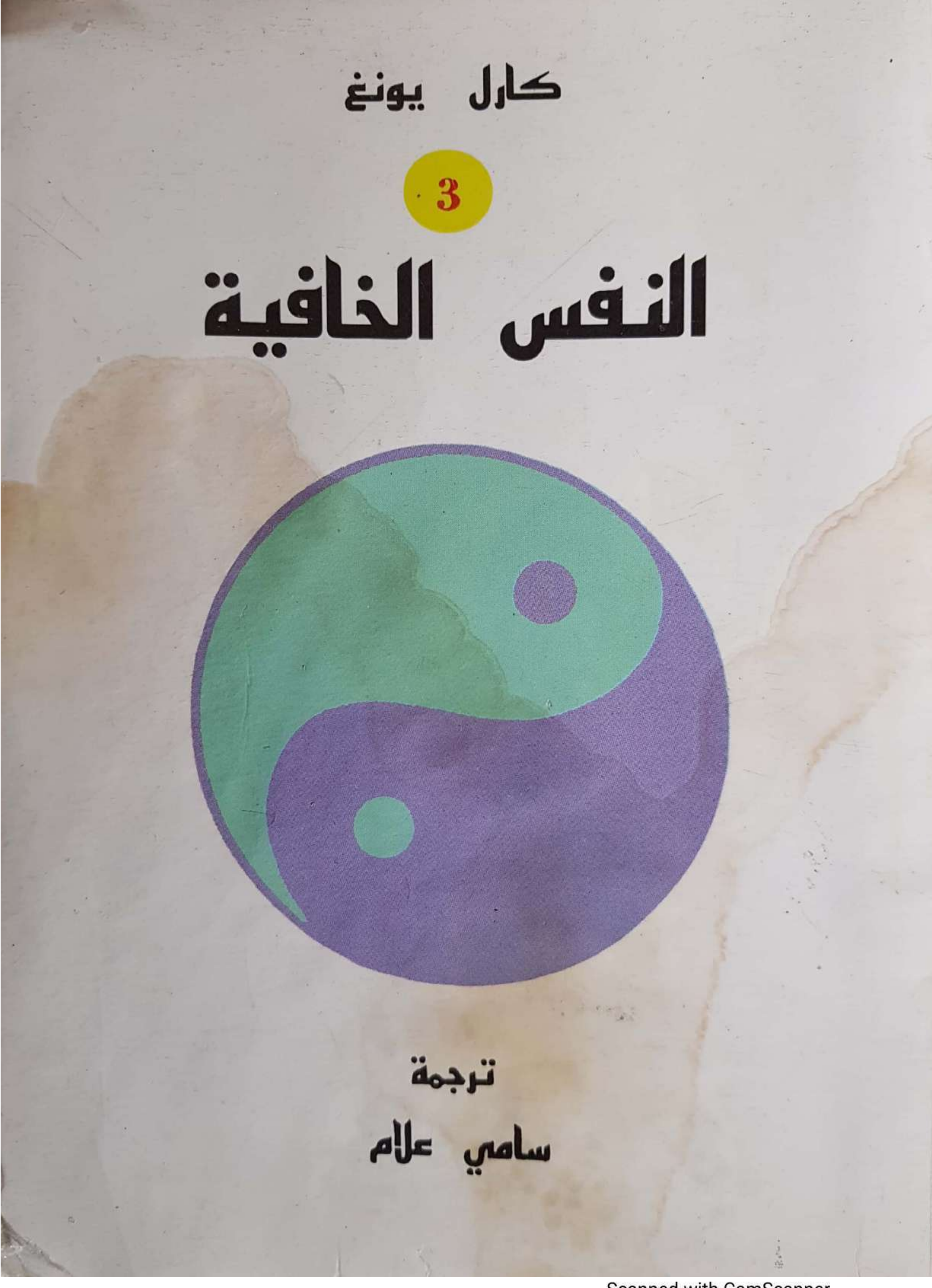
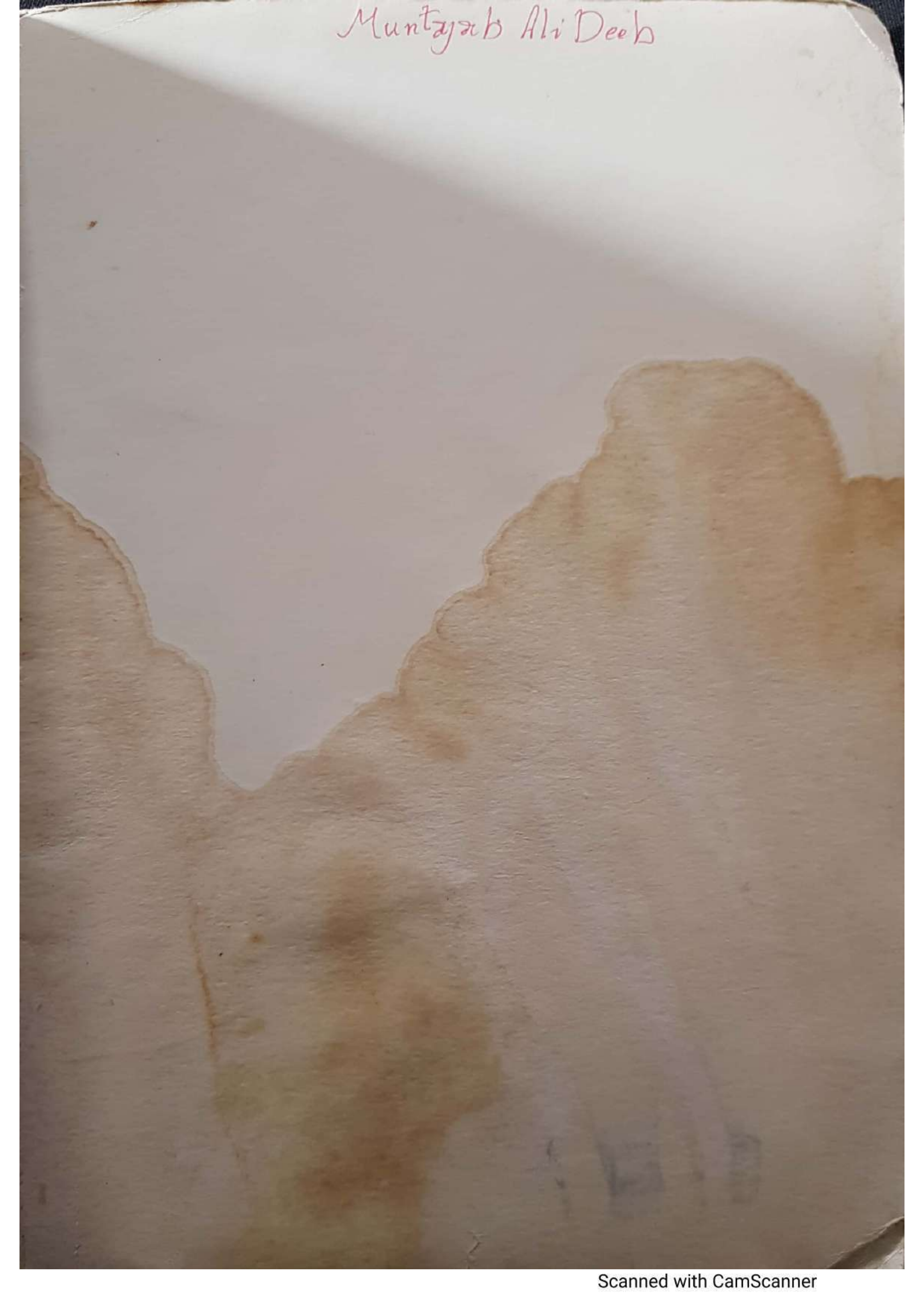
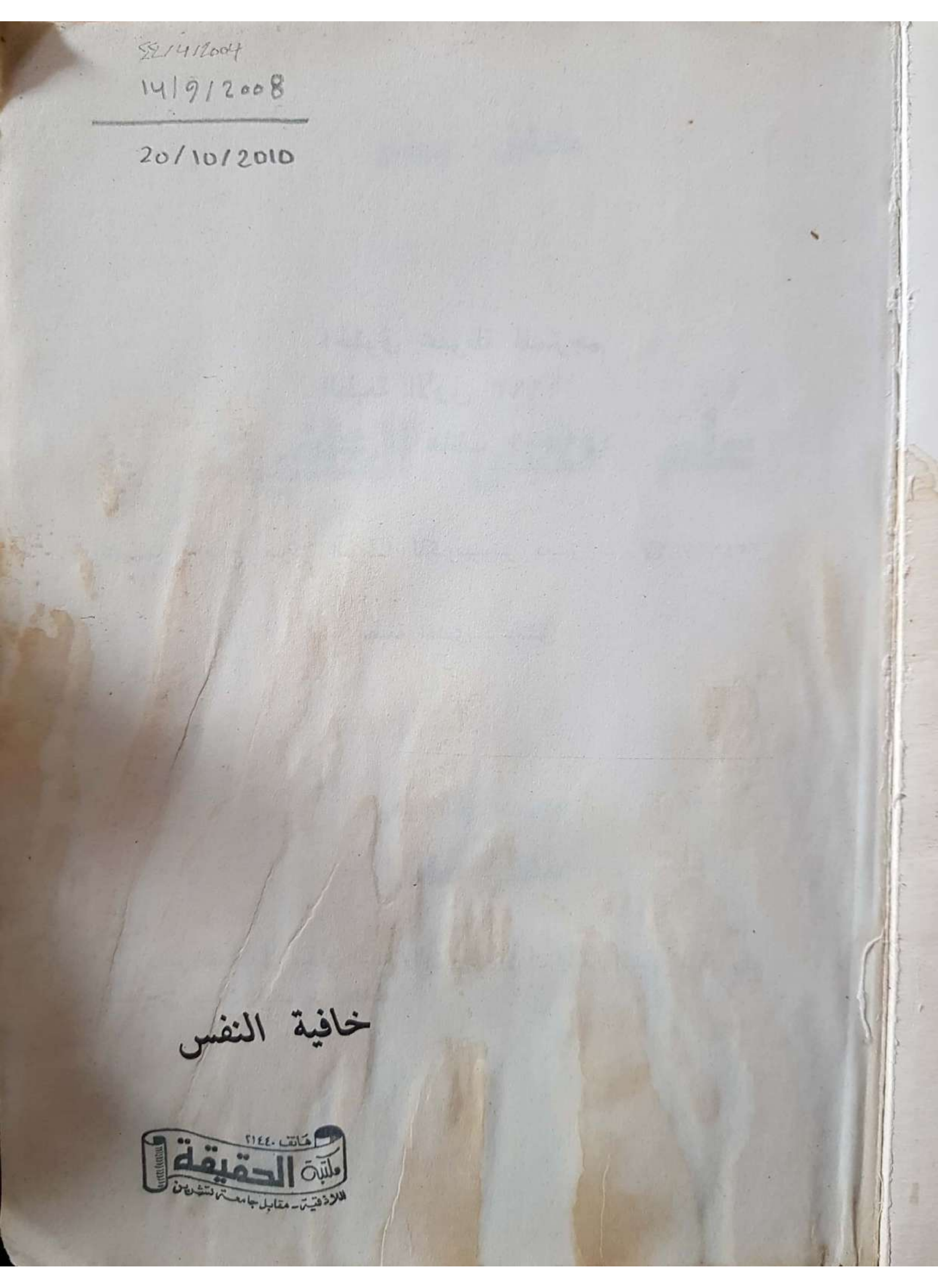

كارل يونغ
3
النفس الخافية
ترجمة
سامي علام


Muntajab Ali Deeb



22/4/2004
14/9/2008

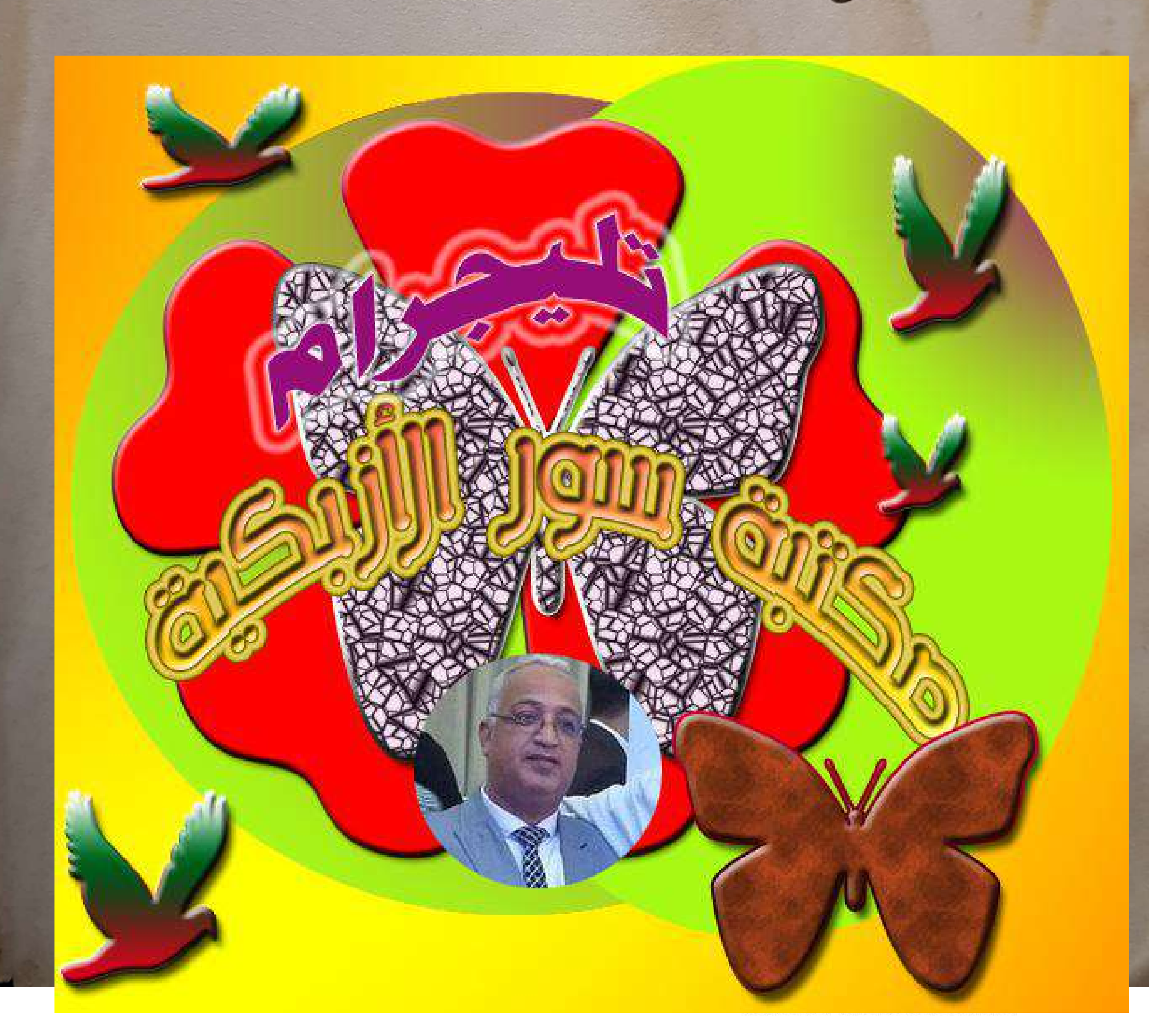
20/10/2010

# خافية النفس

الطبعة الأولى ١٩٩٣

دمشق ـ هاتف ٤٥٩٥٠٩

تنضيد وإخراج مركز الرضا للكومبيوتر دمشق - ☎ ٢٢٤٦١٧



كارل يونغ

# علم نفس الخافية



ترجمة وتقديم

سامي علام

العنوان الأصلي للكتاب :

C.G.JUNG

# PSYCHOLOGIE
# DE
# L'INCONSCIENT



*PREFACE ET TRADUCTION*
*DU*
Dr ROLAND CAHEN

*LIBRAIRIE DE L'UNIVERSITE*
GEORG & Cie, S. A.
GENEVE
1952

الاهداء

الى سامي . . .

عربون حبي الدائم

لا تواحدا ولا دعوة الى التشابه .

علم النفس هو علم الفعل
الانساني ، فردا وجماعة ، لذلك فهو
أشد المواقع حسما في ارتقاء
الحضارات .
لعل هذا العلم يلقى يوما الاهتمام
الذي يستحق في عالمنا العربي .

المترجم

# مقدمة الترجمة العربية

هذا هو الكتاب الثالث في سلسلة أعمال يونغ وقد ترجمناه عن طبعة الجامعة - جنيف لعام ١٩٥٢ .

نحن لانتبع في الترجمة العربية التسلسل التاريخي لمؤلفات العالم يونغ بل خطاً متدرجاً نراعي فيه تيسير عملية استيعاب القارىء لأفكار يونغ وتشعباتها بحيث يتمكن ، بالمتابعة ، من الغوص نحو الأعماق السحيقة للنفس البشرية وقد تسلَّح بمفاهيم ومصطلحات تؤهله لتفسير المظاهر العديدة والبالغة التنوع للسلوكات البشرية ، واكتناه أغوار النفس المنفرجة دائماً عن كنوز ما يزال وصفها معين الشعراء والفنانين والأدباء منذ ما أن وعى الإنسان نفسه ، أي منذ آلاف عديدة من السنين .

إن النفس ما فتئت سراً يحير العلماء كافة ويكاد شرحه وتفسيره يستنفد مداد العالم ولمَّا يُستنفد ، بل تراه يتجلى أبداً في ألف لون ولون على مدار الأجيال.لم يتمكن الإنسان من الإمساك بسر النفس ولعلَّ سرّها هو من كان يمسك بالإنسان ضابطاً إياه أبداً في إنسانيته .

ثمة في داخلنا عالم لا حدود لأطرافه ولا نهاية لأعماقه ولا سقوف لأعاليه يضاهي عالمنا الخارجي روعة وشاعرية وأنساً . يجذبنا إليه عبر رموز تظهر سرَّهُ وتخبئه في الآن عينه . بحورٌ تزخر بصنوف اللؤلؤ والزمرد والياقوت يعجز وصفها ؛ وسماوات عامرة بمجرّات وألوان أين منها جمال الأقواس القزحية ؛ وأجيال متراصة من الخبرات الإنسانية مرصوفة في خلايا غاية في التناهي والاتساع في آن أين منها قدرات الأجهزة الكهاربية التي مهما تطورت تظل عاجزة عن انفعال وجداني وعن ربط الزمان بمكان .

تلكم هي النفس الخافية التي كان يونغ رائدها العظيم والمستطلع لأقاليمها الذي بقي حتى رحيله مفتوناً بدنياها ، غير ممسكٍ بكامل سرّها بل ملتذاً بالاستمتاع بجنانها وخرير ينابيعها .

لا تنغلق خافية النفس إلاّ على الذين يرفضون الاعتراف بوجودها . ولكنها مع ذلك تبقى تحاصرهم دون فكاك معيّنة لهم مصيرهم . إن فيها من الأخطار بقدر ما فيها من الفوائد والخير ، فالبحور قد تهدّد أيضاً بالابتلاع ، والسماء قادرة على قذف الحمم المزلزِلة . وحده يقف على الطريق المؤدي إلى أسرارها ذاك الحكيم الذي لا يقبل الشيء ويرفض ضدّه ، بل يأخذ بالإثنين معاً عالماً أن النور ينبعث من الظلمة وبالعكس ؛ والصيف من الشتاء وبالعكس ؛ والقوة من الضعف وبالعكس ؛ والدواء من الدّاء وبالعكس ؛ والألم من اللذة وبالعكس ؛ والمرأة من الرجل والرجل من المرأة . . .

لقد حاول يونغ أن يكتشف مفاتيح أبواب ذلك الملكوت عبر مناهج واختبارات دؤوبة امتدت مع كل مراحل حياته . وها هو ذا يضع رصيداً ثميناً أمام كل المغرمين بأسرار غاباتهم الإنسانية والساعين إلى توفير بعض السعادة لأنفسهم ولأمثالهم من بني الإنسان .

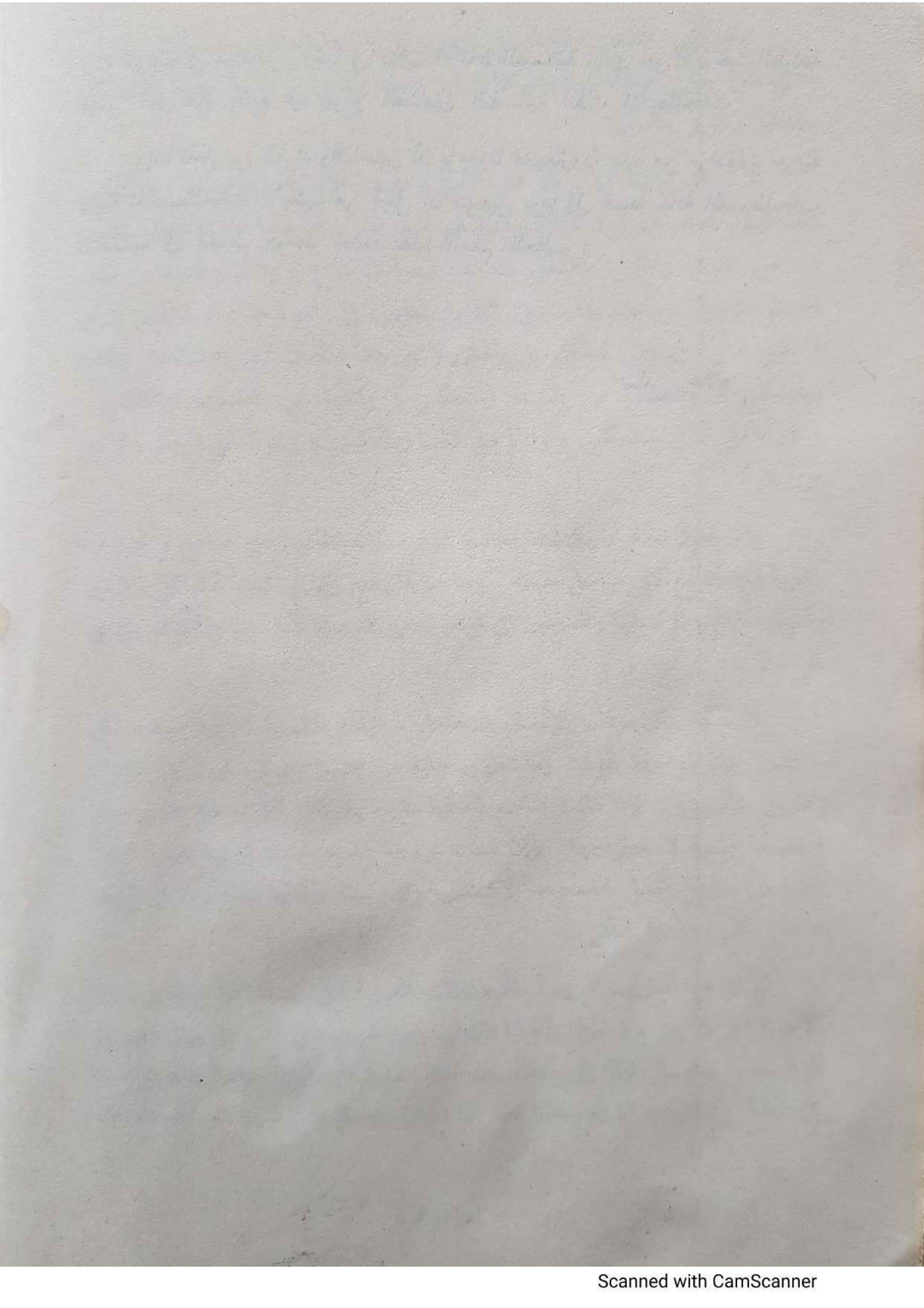
لا نعتقد بأن موقف الإنسان المتجاهل لمنظومته النفسية الخافية موقف ذكي حكيم . فإن مواجهةَ الذات وما تنطوي عليه من خيور وشرور لهو ، في نظرنا ، الطريق الأصوب . فإذا كانت مناجم الخافية مترعة بالمعادن الكريمة فلا بد من سبل صحيحة علمية لاستخراجها . وإن كانت ممزوجة باستعدادات شريرة فليس أفضل أيضاً من معرفة السبل الصحيحة لاكتشافها وتصريف طاقاتها المحصورة في قنوات تقلّص أضرارها ما أمكن .

نرجو من القارىء أن يقرأ المصطلحات العربية التي اعتمدناها ترجمة لمرادفاتها الأجنبية قبل أن يشرع في مطالعة هذا الكتاب وهي موجودة في آخره إلى جانب فهرس المواضيع . ونلفت النظر إلى أننا سوف ننشر مستقبلاً معجماً خاصاً بالمصطلحات التحليلية مع شروح عليها وذلك بعد أن تكون قد اكتملت لدينا كل مصطلحات

يونغ الواردة في مؤلفاته . وثمة في كتاب **الأنماط النفسانية** الذي هو الآن قيد الطباعة فصل كبير هام يقدم فيه يونغ المضامين النفسانية لتلك المصطلحات .

وإننا نأمل من القراء والباحثين أن يزودونا بما يعثرون عليه من مرادفات عربية دقيقة للمصطلحات الأجنبية من أجل أن نتوصل يوماً إلى ضبط كافة المصطلحات النفسانية في معجم موحد خدمة لهذا العلم العظيم .

سامي علام



# توطئة الطبعة الأولى

رأى هذا الكتاب النور عندما باشرت على طلب من الناشر من أجل إصدار آخر مراجعة´المقال الذي ظهر في عام ١٩١٢ في حوليات راشر Rascher : «الطرق الجديدة في علم النفس» . فالعرض الذي بين أيديكم يمثل إذاً مقالي في الماضي في شكل معدَّل مطوَّر حيث كنت قد اكتفيت في مقالي السابق بتقديم جزءٍ أساسي من التصورات النفسانية التي دشّنها فرويد . غير أن التبدلات العديدة والهامة التي جاءت بها السنون الأخيرة في ميدان نفسانية الخافية قد ألزمتني على توسيع إطار عملي الأولي توسيعاً عظيماً . فجرى تقليص بعض التوسعات فيما يتعلق بفرويد وأُخذت بالعكس نفسانية أدلر بعين الاعتبار . وقدمت أيضاً بقدر ما كان يتيح لي إطار المؤلَّف الحاضر نظرة مشهديةً لتصوراتي الخاصة . وعليَّ بادىء ذي بدء أن أنبه القارىء بأن الأمر يتعلق هنا بدراسة تتطلب بسبب تعقّد موضوعها صبراً واهتماماً . وهذا العمل كما هو وارد في تفكيري لا يعني البتة أن يكون نهائياً حتى ولا مقنعاً الإقناع الكافي .

ولعلّه لا بد من أجل استجرار القناعة من دراساتٍ علميةٍ في كل من المسائل المطروحة في هذا الكتاب . إنّي إذاً أحيل إلى الأدب المختص كلَّ أولئك الذين يريدون أن يتعمقوا في دراستهم للمسائل المطروحة هنا.فمقصدي إن هو إلا إتاحة الفرصة للقارىء للتوجه في خضم التصورات الأكثر حداثة المتعلقة بنفسانية الخافية . إنّي أعتبر مسألة الخافية هامةً جداً وموضوع الساعة بحيث يبدو لي إقصاء طرحها إلى مجلّةٍ علميةٍ مختصةٍ وصعبة المنال خسارة كبرى . وذلك أنّ هذه المسألة التي تمسنا جميعاً مساً مباشراً قد تفلِتُ على هذا النحو من اهتمامات المثقفين غير المختصين وقد لا يضحي طرحها عندئذٍ سوى ورقٍ قديمٍ مبعثرٍ على رف المكتبة . إن السيرورات النفسانية التي رافقت الحرب الراهنة وقبل كل شيء النكوص اللا معقول للحكم

الشامل نحو التوحش والشتائم المتبادلة والتأجج الصامت للتدمير والموجة التي لا مثيل لها من الأكاذيب والعجز الذي يجد الناس أنفسهم فيه لإيقاف شيطان المذبحة الدامي[1] - كل ذلك يجب أن يشد اهتمام المفكر ويثبته تثبياً لا رحمة فيه على مسألة الخافية ، تلك الخافية الشواشية التي تنام نوماً مضطرباً تحت السطح المنظم للعالم الواعي . فقد بينت هذه الحرب للإنسان المتحضر بأنه ما يزال بربرياً بل أظهرت له في الوقت عينه إظهاراً لا شفقة فيه الأسواط الحديدية التي تنتظره إذا ما خطر له مرة أخرى أيضاً بجعل جيرانه مسؤولين عن أخطائه الخاصة .

إذاً فإنّ نفسانية الأفراد تتقابل مع نفسانية الأمم . فكلّ ما تفعله الأمم يفعله الفرد أيضاً وما دام الفرد يفعل شيئاً فإنّ الأمة تفعله هي الأخرى[2] . وحدها التعديلات في الموقف العميق للأفراد يمكن أن تكون أساساً للتبدلات في نفسانية الأمة . إن مشاكل الإنسانية الكبرى لم يجر البتة إلى الآن حلّها بشرائع مقررة وإن جرى ذلك فقد كان بالعكس على أثر تعديلاتٍ جديدةٍ حققها الفرد في وضعه الداخلي . فإذا كان ثمّة زمن تشكّل فيه المصداقية الداخلية والسيطرة على الذات الناجمة عنها ضرورة مطلقة والبحث عنها مبادرة عظمى فهذا الزمن هو عصرنا المفجع ، بيد أنّ أياً كان يقوم بانعاطفةٍ على نفسه سوف يصطدم بحواجز الخافية التي تنطوي بكل دقة على كل ما قد يهم المرء معرفته قبل كل شيء .

## توطئة الطبعة الثانية

إني لسعيد بأن أرى هذا الكتاب الصغير يطلب للنشر مرةً ثانية خلال فترةٍ وجيزةٍ على الرغم من أنّ محتواه كان يبدو صعباً لقراءٍ كثيرين . إنّي لا أدخل أي تعديلٍ جوهري في هذه الطبعة الجديدة مكتفياً بإبدالاتٍ وتحسيناتٍ تفصيلية ، ومع ذلك فأنا أدرك جيداً بأنّ الصعوبة غير المألوفة وجدّة المادة المعالجة في الفصول الأخيرة

١ - أليس ما يجري الآن في أوروبا الشرقية (يوغوسلافيا خاصة) هو نفسه ما جرى بالأمس بل ربما بصورة أبشع وأكثر تنظيماً ؟ (م)

٢ - أنظر بيير داكو : «علم النفس الجديد وطرقه المدهشة» : ظل الشعوب . ص ٢٠٥ . دار الغربال . دمشق ١٩٩٠ (م) .

قد تستدعي توسيعاً عظيماً تصبح بموجبه أسهل وأعمّ تناولاً . بيد أنّ زيادة نسيج التخطيطة التي رسمتها فيها يتجاوز بكثير إطار منشور مبسط إلى حدٍّ ما . وأعتقد بأنّ من الأفضل معالجة هذه المسائل في كتاب آخر قيد الإعداد فيكون بوسعي على هذا النحو التعمق فيها كما تستحق ودراستها واحدة فواحدة دراسةً تفصيلية[1] .

لقد بينت لي المراسلات العديدة التي تلقيتها بعد الطبعة الأولى أن مسائل النفس الإنسانية توقظ في جمهور واسع اهتماماً أشد مما كنت أتوقع . وفي نظري أن هذا الاهتمام قد يكون صادراً في جزئه الكبير عن الاهتزاز العميق الذي تعرّض له وعينا بفعل الحرب العالمية .

إن كارثةً كهذه تبلل الإنسان بشعورٍ بعجزه التام وتجعله ينطوي على نفسه وتلزمه على استقصاء أعماقه والبحث فيها ، بما أنّ كلّ الأشياءِ تتأرجح حوله ، عن شيءٍ ما يكون سنداً له . ثمة مع ذلك أعدادٌ هائلةٌ من الناس يبحثون خارج أنفسهم. البعض منهم يؤمن بخدعة الانتصار وبالقوة المنتصرة،والبعض الاخر بالمعاهدات والقوانين،وغيرهم أيضاً بقلب النظام القائم . وثمّة عدد ضئيل جداً يبحثون في أنفسهم وفي كيانهم النفساني . وثمّة أيضاً قلّة قليلة جدّاً تتساءل عما إذا كانت في النهاية أفضل طريقةٍ لخدمة المجتمع والناس هي أن يبدأ كل فردٍ بنفسه وأن يجرب أولاً على شخصه بالذات وضمن تدبيره الداخلي الذاتي الإصلاحات المنادى بها عند كل المنعطفات . إن انقلاباً ما في النظام القائم وتزعزعاً داخلياً وتفكك ما هو موجود وتجديداً داخلياً هي كلُّها ضرورية لكل فرد . بيد أنّ الأمر لا يتعلق بفرضها على الآخرين تحت ستار نفاق المحبة المسيحية للقريب والشعور بالمسؤولية الاجتماعية أو بأي حجةٍ أخرى لست أدريها متسترة على حاجاتٍ خافيةٍ إلى السيطرة . كيف السبيل إلى شفاء هذا العمل الجماعي المتفشي في الساعة الراهنة ؟ لا يمكن للمرء أن يواجه شفاءه إلا إذا قام كل واحدٍ بعودةٍ تأمليةٍ صادقةٍ مخلصة وعميقة إلى نفسه ، عودة تقوده إلى العمق الإنساني الأولي ، إلى الجوهري من ذات طبيعته وتتيح له انتزاع دعوته الحقيقية الفردية والاجتماعية من شوائبها . إنّ الاهتمام الذي توحيه مسألة النفس الإنسانية هو عرض من أعراض هذه العودة الغريزية البالغة الضرورة إلى الذات .

١ ـ هو كتاب «الأنماط النفسانية» الشهير وهو حالياً قيد الترجمة إلى العربية (م) .

وإني إنّما أعدت إصدار هذا المؤلف إرضاءً لذلك الفضول المشروع .

كوسنخت (زوريخ) تشرين أول ١٩١٨ .

المؤلف

## توطئة الطبعة الثالثة

تم إنجاز هذا الكتاب خلال الحرب العالمية وكان قد رأى النور بسبب الترجيع النفساني لهذا الحدث الرهيب . أما الآن وقد انتهت الحرب وبدأت الأمواج تهدأ ببطءٍ فقد استمرت المسائل النفسانية العظيمة التي ولّدتها شاغلة عقل وقلب كلّ الذين يفكرون ويبحثون.ولهذا السبب عينه بلا شك يدين هذا المؤلَّف الصغير باستمراره عبر الحرب لكي يظهر في طبعة ثالثة . وحيث إن سبع سنوات قد مضت منذ الطبعة الثانية فقد رأيت من باب الضرورة إجراء تعديلات وتصحيحاتٍ هامة فيها خاصة في فصل الأنماط النفسانية وفي فصل الخافية . لقد حذفت فصل «تطور الأنماط خلال السيرورة التحليلية» لأن هذا الموضوع قد جرتِ دراسته دراسة عميقة في كتابي : **الأنماط النفسانية** الذي أحيل القارىء إليه .

إنّ من سبق له أن حاول في شكل يقبله الجميع تقديم موضوع غاية في التعقيد وما يزال علمياً في طريق التشكل سيوافق معي بأن ذلك الأمر ليس سهلاً .

ومما زاد أيضاً في الصعوبة هو أنّ عدداً عظيماً من التجليات والمسائل النفسية التي يجب علينا دراستها هنا قلّما يتم تناولها على صعيد الخبرة الشائعة بل يمكن أيضاً أن يكون كثيرون من الناس على جهلٍ تامٍ بها .

ربما تصدم بعض النقاط مزاعم أو تبدو اعتباطيةً . ولكن فليتفضل المرء ويمعن النظر بأنّ أقصى ما يمكن لمؤلَّفٍ كهذا أن يقدمه هو مفهوم تقريبي للموضوع المعالج وحثٌ للعقول . فلا يدخل إطلاقاً في إطاره التوسيع التفصيلي لكل أطوار البحث العقلي وتنسيق البراهين . سأكون قد بلغت الهدف إذا ما فتح كتابي الصغير هذا نافذةً على الخافية وحثٌ على أبحاثٍ أخرى .

كوسنخت (زوريخ) نيسان ١٩٢٥ ،

المؤلف

## توطئة الطبعة الرابعة

فيما عدا بعض التحسينات التفصيلية فإن الطبعة الرابعة تظهر دون تعديل . لقد بينت لي رُجُعُ قرائي بأنّ فكرة الخافية الجماعية التي كرست لها فصلاً في هذا الكتاب قد أثارت اهتماماً خاصاً جدّاً . لذلك لا أتوانى عن شدّ انتباه الجمهور على نشر كتاب إيرانوس[1] الذي يحوي من وجهة النظر هذه أعمالاً هامةً لمؤلفين عديدين . لا يزعم المؤلّف الحاليُّ تقديم وصفٍ مستنفدٍ لكل ميدان علم النفس التحليلي . ثمة أشياء اكتفيت فيه بذكرها وأشياء أخرى تمّ السكوت عنها سكوتاً كاملاً ولكني أتمنى بأن لا يقلل ذلك من تأدية هدفه المتواضع .

كوسنخت (زوريخ) نيسان ١٩٣٥

المؤلف

## توطئة الطبعة الخامسة

انصرمت ست سنوات منذ الطبعة الأخيرة التي ظهرت دون تعديل لذلك بدا لي من المهم في هذه الطبعة الجديدة إخضاع هذا المؤلف الصغير في الخافية لمراجعة معمّقةٍ . ففي هذه المناسبة تمكّنت من إضافة تحسينات عديدة وخاصة بتخفيف النص من كلّ ما هو نافل . إنّ موضوعاً صعباً ومعقداً كنفسانية الخافية يولّد لا معارف جديدة عديدة وحسب ولكن يفسح المجال أيضاً إلى الضلالات . إننا نلج في محاولاتنا الاستطلاعية إقليماً بكراً نجهل معالمه وليس في مقدورنا اكتشاف الطريق الأكثر استقامةً إلاّ عبر المواربات . وعلى الرغم من أني اجتهدت بإضافة أكثر ما يمكن من العبارات الجديدة إلى النص فلا يأملنّ القارىء بأنّه واجد في هذا المؤلّف وصفاً شبه مستنفدٍ للمفاهيم الرئيسية التي حققتها المعرفة النفسانية المعاصرة . ولا أستطيع في هذا المؤلف المدخلي سوى تقديم وصفٍ للتصورات الجوهرية لعلم النفس الطبي ولأبحاثي الخاصة . لا يمكن اكتساب علمٍ صلب إلاّ بدراسةٍ عميقةٍ للأدب التقني وبخبرةٍ عمليةٍ واسعة.وأنا أوصي على نحوٍ خاص قرائي الذين يرغبون في تحصيل

1 – Eranos jahrbuch, Rheinverlag, Zurich .

معارف مؤاتية في هذا المجال أن لا يكتفوا بدراسة المؤلفات الأساسية لعلم النفس بل فلينكبوا أيضاً على دراسة أبحاث علم النفس الطبي وعلم الأمراض النفسية فيكتسبون على هذا النحو مباشرةً المفاهيم الضرورية المتعلقة بوضع علم النفس الطبي وما يرمي إليه .

وخلال هذه الدراسات المقارنة يقدّر قرائي كم هي مبرَّرة تذمرات فرويد من «لاشعبية» تحليله النفسي وشعوري بأنني خفير منعزل خارج الدروب المطروقة . وأعتقد بأنني لا أبالغ البتة بأن تصورات علم النفس الطبي الحديث قلّما وجدت إلى الآن قبولاً في العلم الذي تلقنه الجامعات على الرغم من أنه يجب في هذه السنوات الأخيرة ذكر استثناءاتٍ جديرة بالمديح وتتعارض مع البند السابق . ثمّة أفكار جديدة ليست مجرد ثملٍ ونشوى تحتاج عموماً إلى جيلٍ على الأقل لكي تكتسب حق المواطنة . ومن أجل تصوراتٍ نفسانيةٍ جديدةٍ سيستمر هذا الحجر الصحي بلا شك زمناً أطول أيضاً لأن كل واحدٍ لديه انطباع بأنّه يملك في هذا المجال جدارة مرجعية .

كوسنخت (زوريخ) نيسان ١٩٤٢

المؤلف

ملاحظة : نورد هنا هوامش مع أرقامها سُهي عن وضعها في أسفل الصفحة المقابلة :

1- grundzuge der physiologischen Psychologie, 1873.

2 – l'automatisme psychologique, 1889; Névroses e idées fixes 1898 .

3 – De la suggestion et de ses applications à la thérapeutique, Doin, Paris, 1888 .

4 – Du sommeil et des états analogues, 1866 .

# ١

# التحليل النفسي

تنتاب الطبيب وعلى نحو خاص المختص بالأمراض العصبية الذي يسمى اليوم الطبيب النفسي العصبي حاجة ملحة إلى المعارف النفسانية إذا ما أراد أن يكون مفيداً لمرضاه لأنّ كلّ ما يطلق عليه في الاضطرابات العصبية مصطلحات «العصبية والهيستريا» الخ .،هو من أصل نفسي ويستدعي منطقياً علاجاً نفسياً . فالعلاج بالماء والضوء والكهرباء الخ يؤثر تأثيراً عابراً بل أحياناً لا يؤثر البتة . فما يشكو منه المريض هو نفسه في وظائفها الأرفع والأميز والأدق التي يكاد يجرؤ المرء اليوم على ربطها بميدان الطبابة . فعلى الطبيب أيضاً إزاء هذه الاضطرابات أن يكون نفسانياً أي عارفاً بالنفس الإنسانية .

كانت التنشئة النفسانية للطبيب في الأيام السالفة أي منذ خمسين سنة ذات شوائب كثيرة حيث كان مبحثها في الطب النفسي يقتصر على وصفٍ سريريٍّ ونسقيٍّ للأمراض العقلية . وعلم النفس الذي كانت الجامعات تلقّنه كان إمّا فلسفة أو فقط ذلك الفرع من علم النفس المسمى التجريبي الذي دشنه ڤيلهلم وونت Wilhelm Wundt[1] . ففي هذا العصر أعطى شركو charcot ومدرسته السالبتريير Salpêtrire في باريس الانطلاقات الأولى نحو علاج نفسي للأعصبة : ففي حينها نشر بيير جانيه[2] أعماله ذات المرمى التاريخي في نفسانية الحالات العصابية وأعاد بيرنهايم Bernheim[3] في نانسي Nancy بنجاح كبير مبادرة ليبولت Liébault[4] التي طواها النسيان إلى معالجة الأعصبة بواسطة الإيحاء . وترجم سيغموند فرويد كتاب بيرنهايم آخذاً منه توجهه الحاسم . لم يكن ثمّة أيُّ علم نفسٍ للأعصبة والأذهنة ويعود إلى فرويد فضل إرساء

قواعد لعلم نفس الأعصبة . لقد وجد مذهبه ولادته انطلاقاً من التجارب التي أجراها خلال المعالجات التطبيقية للأعصبة أي انطلاقاً من تطبيق منهج سماه التحليل النفسي .

لا بد لنا قبل المباشرة بدراسة موضوعنا من تحديد موقعه في العلم السائد إلى ذلك الحين - إنّا بإزاء مشهدٍ غريب يسوّغ مرة أخرى تفكير أناتول فرانس الذي يقول : «العلماء ليسوا فضوليين» . فالعمل الأول الذي له بعض الأهمية في هذا الميدان قد أيقظ بالكاد صدىً ضعيفاً على الرغم من أنّه أتى بتصورٍ للأعصبة جديد كلّ الجدة . ثمة بعض المؤلفين الذين ذكروه على وجهٍ امتداحي غير أنّهم لم ينوا يتابعون منذ الصفحة التالية حالاتهم الهيستيرية تبعاً للتصورات القديمة . لقد تصرفوا إذاً أشبه ما يكون بشخصياتٍ أخرى في امتداحها له بفكرة أو بواقع أنّ القمر فلك إلاّ أنّها ما فتئت فيما بعد تتابع على أفضل ما يكون الحال تصورها له في شكل أسطوانة . فقد مرّت المنشورات اللاحقة لفرويد على نحوٍ غير ملحوظٍ البتة على الرغم من أنّها جلبت في ميدان الطب النفسي تحديداً ملاحظاتٍ ذات أهمية لا تقدّر . فعندما كتب فرويد في عام ١٩٠٠ أول نفسانية للحلم جديرة بهذا الاسم (وكانت قبل ذلك تسود في هذا الميدان عتمة هي النعت الطبيعي له) أثار ذلك الضحك . وعندما باشر نحو ١٩٠٥ - بشجاعة رائعة - توضيح نفسانية الجنسية أثار عمله احتجاجات شتائمية ومع ذلك فإن العاصفة من النقمة المتحذلقة التي أحاطت في جزءٍ كبير منها نفسانية فرويد بدعايةٍ خارقةٍ جداً ومنحته الشهرة تفوق بكثير حدود المنفعة العلمية .

لا بد لنا إذاً من التوسع في معرفة هذا العلم النفساني الجديد . لقد كان معروفاً منذ زمن شاركو بأنّ العَرَض العصابي «نفسي المنشأ» أي أن النفسية psychisme هي التي تولدّه . وكذلك كان معروفاً أيضاً بفضل أعمال مدرسة نانسي بأنّ أيَّ عَرَض هستيري يمكن إثارته بالإيحاء . وعلى النحو عينه كانت لدينا معارف دقيقة إلى حدٍ ما ، بفضل أبحاث جانيه Janet ، في التطويعات النفسية الآلية للتجليات الهيستيرية الناقصة كحالات التبنيج والخزل parésie والشلل والنساوى amnésies . بيد أنّ الناس كانوا يجهلون تسلسل وأنماط علاقة السبب بالنتيجة التي كانت تربط نفسَ مريضٍ بعَرَضِها الهستيري . لقد كانت الطرق السببية النفسية موضع جهلٍ مطبق . في ذلك

5 – Breuer et freud, Etudes sur l'hystérie, 1895 .

الحين،حوالي السنة ١٨٨٠،حقّق طبيب مسنٌ في ڤيينا هو الدكتور بروير Breuer اكتشافا شكلّ في الأساس انطلاق علم النفس الجديد .

كانت تتردّد إليه مريضة شابة شديدة الذكاء مصابة بالهستيريا تظهر لديها بين أخرى غيرها العوارض التالية : لقد كان لديها شلل تشنجي paralysie spastique في الذراع اليمنى وينتابها من حين إلى آخر فقدان وعي أو حالات إظلامية . وكانت أيضاً قد فقدت القدرة على الكلام بمعنى أنه لم يعد لديها معرفة باللغة الأم ولم تعد تستطيع التعبير عن نفسها إلاّ باللغة الإنكليزية . (هذه الحالة تشكل ما يسمى بالحُبسة النسقية) . كان ذلك في العصر الذي كان الناس يحاولون فيه تفسير هذه الاضطرابات بنظريات تشريحية على الرغم من أن المراكز المخية التي تحكم وظيفة الذرات سليمة من وجهة نظرٍ نسيجية في حالةٍ كهذه من كلٍ اضطراب كما لدى أيٍّ فردٍ سوي .

إن أعراضيات الهيستريا مليئة بالمستحيلات التشريحية وهاكم المثل التالي : كانت مريضة قد فقدت تماماً سمعها إثر إصابة هستيرية وكانت لديها عادة الغناء غالباً . وذات يوم عندما كانت شارعةً تغني جلس طبيبها إلى البيانو دون أن تراه ورافقها خلسة ؛ وعند انتقاله من مقطع لآخر غيَّر نبرته فجأةً بيد أنّ المريضة استمرت دون شك في الأمر تغني متوافقة مع النبرة الجديدة . إذاً فقد كانت تسمع ولم تكن تسمع في الوقت عينه . إنّ أشكال العمى النسقي تقدم لنا ظواهر مضاهئة : الرجل المصاب مثلاً بعمى هستيريٍ شامل يسترجع قدرته البصرية خلال العلاج ولكن أولاً ولزمن طويل لا يسترجعها إلا استرجاعاً جزئياً : إنّه يرى بالفعل كلَّ شيء باستثناء رأس الناس وبالتالي فهو يرى كل الأشخاص في محيطه دون رأس إذاً فهو يَرى ولا يَرى . لقد تم التوصل انطلاقاً من هذا العدد الكبير من الملاحظات من هذا النوع إلى نتيجةٍ مفادها أنّ واعية المريض وحدها لا ترى في حين أن الوظيفة الحواسية تؤدي عملها أداءً سوياً . إن حالة الأشياء هذه تعارض معارضة مباشرة الطبيعة عينها لاضطرابٍ عضويٍّ يشوّش دائماً على نحوٍ ابتدائيٍّ الوظيفة وأداءها .

فلنعد بعد هذا الاستطراد إلى حالة بروير . لم يكن بالإمكان إزاء هذه اللوحة التوقف عند أي سبب عضوي تفسيري فقد كان من الواجب اعتبارها حالة هستيرية

بمعنى أنّ أعراضها كانت نفسية المنشأ . ولأن بروير قد لاحظ بأن حالة المريضة كانت تتحسن لبضع ساعات كلَّ مرةٍ كان يتركها تروي وهي غارقة في حالة غسقية عفوية أو مصطنعة كل التذكرات أو الأطياف[1] التي كانت تغزو عقلها . استخدم الدكتور بروير هذه الملاحظة استخداماً منتظماً فيما تبع من علاجه للمريضة . وسمّت هذه الأخيرة هذا العلاج باسم «العلاج بالكلام» أو على سبيل النكتة بـ «تنظيف المدخنة»[2] .

لقد أصاب المرض المريضة خلال عنايتها بأبيها المصاب بخمج.ويفهم المرء بأن تخيلاتها كانت خاصة متمحورةُ على ذلك العصر الخصيب بالانفعالات والحصور . وخلال حالاتها الغسقية كانت تذكرات تلك الحقبة تعود إلى الانبعاث بدقّة تكاد تكون تصويرية وتظهر شديدة الدقّة حتى في التفاصيل الضئيلة بحيث أنّنا كنّا مجبرين على افتراض أن الذاكرة المتيقظة لن يكون في مستطاعها أبداً استعادة تلك الذكريات على هذا النحو المرن والدقيق . (تسمى هذه في قدرة التذكر التي ليست نادرة في حالات الوعي الضيق حالة إفراط تذكري) .

وعلى هذا ا لنحو رأت النور خلال هذه الجلسات العلاجية أشياء غاية في الغرابة . وإحدى القصص العديدة التي روتها المريضة كانت تقريباً متصوَّرة بالكلمات التالية :

«كانت ذات ليلة تسهر وهي عرضة لحصر مضاعف لأنّ حرارتها كانت مرتفعة جداً من ناحية ولأنّ الناس كانوا ينتظرون جرّاحاً من ڤيينا لإجراء العملية من جهة أخرى . في ذلك الحين كانت والدتها بعيدة لبعض الوقت وكانت حنّة (المريضة) جالسة عند وسادة أبيها ومادةً يدها اليمنى على متكأ الصفّة فانزلقت إلى حالة من حلم

١ ـ أنظر فيما يتعلّق بالمعنى النفساني للأطياف كتاب ك.غ . يونغ : «الأنماط النفسانية» وهو قيد الترجمة إلى العربية (م) .

(٢) «بعد فارق ستين سنة من حالة مريضة بروير الشهيرة كانت واحدة من مريضاتنا ، تجهل كل أدب نفساني أو طبيب نفساني ، مصابة باضطراباتٍ هستيرية أكدت على مثال مريضة بروير عدم استطاعتها تسمية علاجها باسم التحليل النفسي وكانت تسميه بانتظام ، بفعل زلقةٍ لسانية ، تحليلاً بالكلام» (ر.ك) .

يقظة ورأت حينئذ حيةً سوداء تبرز من الحائط وتقترب من المريض لتعضّه . (من المرجح جداً أن يكون فيما مضى في الحديقة خلف المنزل وعلى نحوٍ حقيقي بعض الأفاعي التي أثارت رعب الفتاة في حينه . هذه التذكرات كانت الآن تغذي مادة الهلوس .) كانت تريد أن تبعد الحيوان لكنها تجد نفسها مشلولة والذراع اليمنى المتدلية على المتكأ كانت «مستنيمة» وأصبحت خذلة ودون إحساس . وبينما كانت تنظر إلى ذراعها التي لم تكن تنصاع لإرادتها بدأت أصابعها تتبدّل إلى أفاعٍ صغيرة لها رأس ميت . . فعلى الأرجح أنها حاولت طرد الأفعى بيدها اليمنى وعلى هذا النحو ظهر التبنيج والشلل في هذه اليد بالترابط مع الهلس . وعندما انجلى هذا الأخير سعت الفتاة المحصورة إلى الصلاة بيد أنّ كلّ لغةٍ لم تكن تستجيب لها ، وبقيت على هذه الحالة عاجزةً عن التعبير عن نفسها بأيّة لغةٍ كانت إلى أن وجدت أخيراً ضمّة صغيرة من الأشعار الطفولية باللغة الانكليزية الأمر الذي أتاح لها متابعة التفكير والصلاة بهذه اللغة» .

تلك هي اللوحة التي تم خلالها ظهور الشلل والاضطراب في الكلام . إنّ رواية هذا المشهد الذي قامت به المريضة قد ألغى ذينك الاضطرابين ويبدو أن شفاء هذه الحالة قد تم على هذا النحو .

ليس بإمكاننا هنا ذكر أمثلة أخرى.ويستطيع المرء أن يجد في الكتاب المذكور أعلاه لبروير وفرويد عدداً كبيراً من الحالات المماثلة . ويتصور المرء بسهولة كيف أنّ أحداثاً من هذا النوع تترك انطباعاً عميقاً وتمارس تأثيراً ظاهراً لذلك نجدنا مدفوعين إلى منحها دوراً سببياً في نشوء الأعراض . إنّ التصور السائد في حينه في النظريات عن الهيستريا كان تصور «الصدمة العصبية» الذي نشأ في انكلترا والذي كان شاركو يدعمه بقوة وكان هذا التصور يستجيب تماماً إلى تفسير اكتشاف بروير . من هنا نشأ المذهب المسمى «الرَّضي» الذي يرى بأن العَرَضَ الهستيري ـ بمقدار ما يشكل مجموع الأعراض مرضاً ـ والهستيريا نفسها يصدران عن جروحاتٍ نفسانيةٍ (رضّات) يدوم الانطباع بها في الحالة الخافية على مدى سنوات طويلة[1] . ولقد استطاع فرويد الذي كان في البداية مساعداً لبروير تأكيد هذا الاكتشاف تأكيداً واسعاً . لقد ظهر أنّ أياً

١ ـ حدّد دوسوسير De Saussure في مداخلةٍ شيقةٍ جداً في المؤتمر العالمي للطب النفسي (المجلد ٥ ←

من الأعراض الهستيرية التي لا حصر لها لا يتطور بالصدفة بل أنه ينجم[1] دائماً عن أحداث نفسية . ومن وجهة النظر هذه كان التصور الجديد حقلاً رحباً جداً للدراسات التطبيقية . بيد أنَّ روح البحث الذي كان يحرك فرويد لم يكن يستطيع التوقف طويلاً عند هذه المعطيات السطحية نسبياً لأنَّ ثمّة مسائل أكثر عمقاً وأشدّ حدةً بدأت من الآن تنبجس . وصحيح جداً بالتأكيد أنَّ لحظات حصرٍ وتوتر كتلك التي عاشتها مريضة بروير تستطيع أن تترك في المرء انطباعاً راسخاً ولكن كيف جرى أنها توصلت من ذلك إلى أن تعيش مثل هذه المواقف التي تحمل من الان ختماً مرضياً واضحاً جداً ؟ أيكون الإرهاق كحارس مرضيٍ هو المنشأ ؟ ولكن ثمة في مثل هذه الحال وقائع مضاهئة يجب أن تكون أكثر تواتراً بكثير لأنه يوجد لسوء الحظ كثير من الحراسات التي يضني تأمينها والصحة العصبية لعدد كبير من الممرضات ليست بالتأكيد دائماً ما يرجى أن يكون . لقد جلبت الطبابة لهذه المسألة جواباً جسوراً على نحو رائع حيث قالت : «إن س ، المجهول في المعادلة هو الاستعداد المسبق .» هناك مريض كان بالتحديد «مُهيّأً» لمثل هذه التجليّات أمّا المسألة التي كانت تواجه فرويد منذ ذلك الحين فهي التالية : علامَ يقوم هذا الاستعداد المسبق ؟ وقد دفعت هذه الطريقة في مواجهة المسألة دفعاً منطقياً إلى البحث عن الحالة التي كانت فيها المريضة قبل الرضّة.فقد كان لدى المرء غالباً خلال مشاهد الوجود المأساوية فرصة ملاحظة مبلغ اختلاف ترجيع المعنيين إزاء السبب عينه ، فنحن نعلم بأنَّ ثمة أشياء حيادية أو مستعذبة بالنسبة إلى البعض يمكنها في الوقت عينه أن تثير لدى الآخرين أعمق الرعب : فلنفكر مثلاً بالضفادع والأفاعي والفئران والهررة الخ . . . ثمة نساء يشهدن عملياتٍ دامية دون أن يرف لهنّ جفن وإلى جانب هذا في الوقت عينه تتلبس الرجفة كلَّ أعضائهن عند التماس بهرة مثلاً ويسيطر عليهن الرعب .

إني أعرف حالة امرأةٍ شابة ظهرت لديها هيستريا خطرة إثر ذعر مفاجىء .

هرمان ، باريس ، ١٩٥٠) الرضة على النحو التالي الذي وإن لم يكن مستنفداً إلّا أنه يبدو جديراً بالحفظ : الرضة أو الصدمة العاطفية ، فائض في الإثارات بالنسبة إلى إمكانات التفريغ يعطل المراكز العليا . إن تمثل المعيوش يجري ، لا على طريقة الراشد الذي يموقع الحدث في الإطار السوي من التصنيفات ، بل على طريقة الاستسقاط introjection النكوصية» (ر.ك) .

١ - ومعين في نوعيته (ر.ك) .

كانت قد أمضت السهرة عند أصدقاء لها ثم وجدت نفسها نحو منتصف الليل بين عدد من الأشخاص كانوا يرافقونها إلى منزلها حين وصلت فجأة من الخلف عربة جياد تخبُّ خبباً عظيماً بينما كانوا يعبرون الطريق المعبد . ابتعد الأشخاص الآخرون أما هي التي سيطر الذعر عليها فقد بقيت في وسط الطريق هاربة أمام الأحصنة . وعبثاً حاول الحوتي الصفق بسوطه والصياح بكل قوته إلاّ أنَّ شيئاً لم يتغير لقد انساقت حتى نهاية الطريق الطويل الذي كان يؤدي إلى الجسر . هناك خانتها قواها ولكي تتجنب الوقوع تحت أرجل الأحصنة كادت في ذروة يأسها أن تقفز في النهر في اللحظة التي استطاع المارون من هناك منعها من ذلك . هذه السيدة نفسها عندما كانت في مدينة بطرسبورغ في الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٩٠٥ الدامي ذكره غامرت دون حذر منها في إحدى الطرق التي كان الجيش «ينظفها» بنار صلية .كان إلى يمينها وإلى يسارها أموات وجرحى ينهارون على الأرض ولكنها في ملء السيطرة على نفسها وبكل حضور بديهتها لاحظت باب العربات حيث استطاعت أن تحتمي وأمكنها منه أن تدلف إلى الطريق المحاذية .لم يكن لهذه اللحظات الرهيبة أقل تأثير على صحتها وعندما زال الخطر أحست بأنها في أحسن حال بل أفضل استعداداً من المعتاد .

نلاحظ غالباً وقائع مضاهئة على نحو افتراضي . ويجد المرء نفسه مدفوعاً إلى الاستنتاج من ذلك بأنَّ شدَّة الرضة بحد ذاتها لا تملك ظاهرياً سوى دور ممرض (أي معين للمرض) ثانوي إلى حدٍّ كاف ويجب تجريمه بالظروف الخاصة التي منحت لموضوع معين معناه كصدمة انفعالية ذات حدث رضي . وبكلام آخر ليست الصدمة بذاتها هي المحرضة على نحو ثابت.فلكي تكون كذلك يجب أن نصادف استعداداً نفسياً خاصاً وهذا الاستعداد بين استعدادات أخرى يمكن أن يكون في واقع أن المريض ينسب إلى الصدمة على نحوٍ خافٍ دلالة نوعية[1].ذلك يشكل مفتاحاً يتيح لنا النفاذ إلى سر الاستعداد المسبق .فعلينا أن نستطرح السؤال إذاً : ما هي الظروف الخاصة فيما يتعلق بمريضتنا التي أحاطت بمشهد العربة ؟ لقد بدأ الحصر يستحوذ عليها عندما سمعت الفتاة وقع حوافر الأحصنة التي كانت تقترب . وفي مدى لمح البصر اعتراها الانطباع بأن ثمة علامة لكارثة مرعبة كما لو كان ذلك إنباءً بموتها أو بأيّ

١ ـ يكون المرض بمثابة «الصدى النغمي» له (ر.ك) .

حدثٍ مشؤومٍ آخر ؛ وبعد ذلك فقدت كل مراقبة لذاتها .

يبدو جيداً أن العنصر الناجع والحاسم قد انبعث من الأحصنة . إن الاستعداد عند المريضة للترجيع على نحو أحمق إلى هذا الحد إزاء ذلك الحادث التافه كان يجب إذاً أن يصدر عن واقع أن الأحصنة تتمتع لديها بدلالة خاصة . وفي وسعنا الافتراض مثلاً بأنها كانت معرَّضة إلى خطرٍ فعلي من الأحصنة . لقد كان لهذه الفرضية ما يؤكدها : ذات يوم بينما كانت تقوم بنزهة في العربة مع الحوذي وكان عمرها سبع سنوات جفلت الأحصنة واندفعت مسرعة نحو الضفاف المنشقّة انشقاقاً عمودياً لنهرٍ متوضعٍ توضعاً عميقاً . وعندها قفز الحوذي من العربة وصرخ داعياً إياها أن تفعل مثله وهي كأنما شلَّها ذعر قاتل لم تكن تتوصل إلى القفز . وانتهى الأمر بأنها قفزت في اللحظة المناسبة بينما تابعت الأحصنة والعربة طريقها متحطمةً في الهاوية.ومن البديهي أن يترك حدث كهذا انطباعاً عميقاً في نفسها غير أنّ هذا لا يفسر لماذا كان يجب فيما بعد لإلماعةٍ تافهة إلى هذا الموقف أن تجرّ رجعاً غير متناسب وغير متوقع إلى هذا الحد . إلى الآن نحن لا نعلم سوى شيء واحد هو أن العَرَض اللاحق كان له تمهيد في طفولة المريضة أما الأسباب نفسها لهذا السلوك المرضي فتبقى مع ذلك مظلمة . فمن أجل النفاذ إلى هذا السر لا بد لنا من إضاءات أخرى . لقد كانت خبرة طويلة بينت لنا بالفعل بأنه كان يوجد في كل الحالات المحلَّلة إلى الآن إلى جانب أحداث الحياة الرضية اضطرابات من طبيعة خاصة من طبيعة عشقية . وكما نعرف فإن كلمة «حب» تغطي على نحو متمدد عالماً برمته يمتد من السماء إلى الجحيم ويعانق في ذاته الخير والشر والرفيع والدنيء ، هذا الواقع عندما أدركه فرويد ثوَّر تصوراته . فهو إذ كان إلى الآن تحت سيطرة المذهب الرضي لبروير قد بحث عن سبب الأعصبة في الرضات النفسية الجارية في الحياة إذا به الآن يرى انزياح مركز الثقل للمشكلة بحيث أوجب عليه ذلك أن يوجه أبحاثه انطلاقاً من هناك .

فلنأخذ مثلاً على ذلك الحالة التي سردناها أعلاه . إننا نفهم تماماً بعد حادث طفولتها بأن تكون الأحصنة قد استطاعت أن تلعب دوراً خاصاً في الحياة النفسية لمريضتنا بيد أننا لا نفهم الرجع اللاحق والمتأخر ، الشديد المبالغة وغير المتكيف . والشيء الغريب والمرضي في هذه الحالة هو أن نرى مريضتنا غارقة في ذعر مهول تسببت به أحصنة غير مؤذية البتة أما إذا أخذنا بعين الاعتبار الاكتشاف الميداني

المذكور أعلاه وقبلنا بأنّه يوجد أيضاً في الغالب إلى جانب الأسباب التي هي الرضّات النفسية اضطراب في المجال الغرامي فسنجد أنفسنا مدفوعين إلى البحث عما إذا كان لدى مريضتنا بعض اضطرابات في هذا الجانب .

لقد عرفت هذه الفتاة رجلاً شاباً توقعت الزواج منه فهي تحبه وتتمنى أن تكون سعيدة معه وهذا هو لأول وهلة كلُّ ما يكتشفه المرء . بيد أنّه لا يجوز للاستقصاء أن ييأس إزاء النتيجة السلبية لاستجواب سطحي فإذا كان الدرب المباشر يؤدي إلى ردبٍ[1] فبإمكان المرء أن يسلك طريقاً غير مباشر . عدنا إذاً في حديثنا مع المريضة إلى ذلك الموقف المضحك حيث هربت الفتاة أمام الأحصنة وسألناها عن السهرة التي أمضتها وعن بواعث هذه السهرة وعن الأشخاص الذين كانوا يرافقونها . لقد كان العيد الذي شاركت فيه مأدبة وداع لأعز صديقة لها التي كانت بسبب من عصبيتها ستسافر لفترة طويلة إلى مدينة في مياه غريبة . هذه الصديقة متزوجة وكما قيل لنا سعيدة وأم لطفل . ونحن على حق لدى اصغائنا إلى هذه القصة أن نرفض قبول تلك الدلالة بأنّها سعيدة إلا بكثير من الحيطة لأنّه إذا كانت سعيدة حقاً فقد لا يكون لديها بلا شك بواعث على أن تكون عصبية وتحتاج إلى علاج . وإذ عاودت استجوابي لها من جانب آخر علمت بأنّ المريضة عندما لحق بها أصدقاؤها قد أعيدت إلى بيت مضيفتها في السهرة لأنه كان البيت الأقرب الذي أمكنها اللجوء إليه في تلك الساعة المتأخرة . استقبلت فيه وهي في حالتها المنهكة بأكثر ما يكون من الترحيب . هنا قطعت المريضة روايتها وارتبكت واضطربت وحاولت تغيير الحديث[1] . كان الأمر يتعلق في الظاهر بذكرى مزعجة قد انبجست في عقلها . فبعد أن تجاوزت مقاومة كأداء من جانب المريضة تبينً بأن شيئاً ما فريداً جداً قد حدث أيضاً خلال تلك الليلة

١ - ردب = طريق مسدود

١ - نلاحظ في هذه الرواية كم كانت الأعمال التي أجراها المؤلف في التداعيات وكم كانت له التجربة العملية التي استقاها منها ذات فائدة في الممارسة الطبية النفسية والعلاجية النفسية الشائعة . وعسانا لا نبالغ في توصيتنا الأطباء النفسيين المستقبليين بالانكباب على دراسة نفسانية المركبات التي سيستقون منها من وجهة نظر نظرية وتطبيقية تعاليم أساسية لا غنى عنها (ر.ك) .
- أنظر في هذا الخصوص : دراسة في التداعيات في كتابنا المترجم ليونغ : الإنسان يبحث عن نفسه دار الغربال . دمشق ١٩٩٢ (م) .

المشهودة : لقد كان المضيف اللطيف قد صرح لها بحب لاهب الأمر الذي خلق بالنظر إلى غياب سيدة المنزل موقفاً دقيقاً ومتوتراً بعض الشيء. وتبعاً لأقوال المريضة فإن ذلك التصريح قد فاجأها كمثل ضربة صاعقة تسقط من سماء صافية. بيد أن المفاجأة من هذا النوع تنطوي دائماً على تمهيد لها . فكان عمل الأسابيع اللاحقة هو استخلاص تاريخ طويل من الحب قطعةً قطعة يمكن أن نرسمه في مجمله على الوجه التالي :

لقد كانت المريضة في طفولتها صبيانية جداً فلم تكن تحب سوى ألعاب ا لصبيان وتسخر من أشخاص الجنس المؤنث وتتجنب كلَّ مظهرٍ وكلَّ اهتمامٍ أنثويين. وبعد البلوغ عندما بدأت المسألة العشقية توقظ اهتمامها صارت تهرب من كل مجتمع وتكره وتحتقر كلَّ ما كان يذكرها ولو من بعيد بالمآل الأحيائي للكائن الإنساني . وعليه فقد عاشت في عالم وهمي لم يكن فيه شيء مشترك مع الواقع القاسي وعلى هذا النحو تجنبت حتى سن الرابعة والعشرين كل المغامرات الصغيرة والآمال والانتظارات التي تحرك عموماً النفس الأنثوية في تلك المرحلة من العمر . في هذه اللحظة من حياتها تعرفت إلى رجلين كانا كمثل أدوات بيد القدر على أهبة إزاحة سياج الأشواك التي أحاطت نفسها به فالسيد (أ) كان زوج صديقتها المفضلة في ذلك الحين أما السيد (ب) فكان الصديق الأعزب لهذا الأخير وقد راقا لها كلاهما ثم بدا لها فيما بعد أن السيد (أ) كان أكثر جاذبية في نظرها بما لا يقاس . بعد ذلك ما لبث شيء من الصميمية أن نما بينهما ثم شاع الخبر سريعاً عن خطبة ممكنة ولكن من خلال علاقاتها مع السيد (ب) وعلاقاتها أيضاً بصديقتها كانت لها مناسبات متواترة للقاء السيد (أ) الذي كان حضوره في الغالب وعلى نحو لا يفسر يثير فيها عصبية شديدة . في ذلك الزمن كانت مريضتنا تحضر اجتماعاً دنيوياً كبيراً . كان أصدقاؤها أيضاً هناك حاضرين وفي لحظة ما كانت غارقةً في أفكارها وراحت تعبث كالحالمة بخاتمها الذي أفلت منها فجأةً وتدحرج تحت الطاولة فراح السيدان المذكوران يبحثان عنه ونجح السيد (ب) في العثور عليه أولاً ووضعه في إصبعها مع ابتسامة دالة وقال : «أنت تعلمين ماذا يعني هذا !» فاستولى عليها عندئذٍ إحساس غريب وعاطفة لا تقاوم فانتزعت الخاتم من إصبعها وألقت به من النافذة المفتوحة . وبالطبع فإن هذه ا لحركة قد أثارت انزعاجاً عاماً وبعد ذلك بقليل إذا بالرجل الشاب يترك المجتمع فريسة

لتناقض عميق . وبعد زمن قليل شاعت الصدفة المزعومة أن تمضي الفتاة عطلتها الصيفية في مدينة مائية حيث كان السيد والسيدة (أ) يقيمان أيضاً . في ذلك الحين بدأت السيدة (أ) تصبح عصبية على نحو ظاهر وصارت انزعاجاتها تجعلها غالباً تلازم المنزل . إذاً فقد كانت لمريضتنا الفرصة المتواترة لكي تتنزه وحدها مع السيد (أ) . ذات يوم قاما بنزهة في المركب . كانت عند ذاك مسرورة وفي غمرة نشوتها قامت بحركة خاطئة ووقعت من فوق الضفة عند ذاك تكبّد السيد (أ) كل عناء العالم لكي ينقذها إذ لم تكن تعرف السباحة ولكي يرفعها وهي شبه مغمي عليها إلى المركب الصغير. في ذلك الحين عانقها وكان هذا الحادث الروائي أن قوّى الروابط القائمة بينهما ، بيد أن المريضة لم ترد الإقرار على نحوٍ واضح واعٍ بعمق هواها وذلك بلا شك لأنها اعتادت دائماً أن تعالج بالاحتقار مثل هذه الانطباعات أو بقول أفضل أن تهرب منها . فلكي تخدع نفسها اتجهت بمقدار أشدّ زخماً إلى الزواج بالسيد (ب) مقنعة نفسها هكذا كل يوم بازدياد بأنها كانت تحب هذا الأخير وبالطبع بأن هذا اللعب الغريب لم يكن ليفوت بصيرة الغيرة الأنثوية . لقد نفذت السيدة (أ) صديقتها نفاذاً حدسياً إلى هذا السر وتألمت بسببه فكانت عصبيتها تجد فيه عداءاً متنامياً وهكذا أصبح العلاج في الخارج شيئاً فشيئاً أمراً لا بدّ منه . وعند الاجتماع الوداعي اقترب الروح الشرير من مريضتنا ووشوش لها : «إنّه سيكون وحده هذه الليلة ولا بد من شيء يجري لك لكيما تعودي إلى منزله .» وهكذا كان : فهي بسلوكها المضحك قد أوجبت إعادتها إلى منزل السيد (أ) وتوصلت هكذا إلى ما كانت تبحث عنه بحثاً خافياً .

إذاً سيكون كلُّ واحد إزاء معطياتٍ كهذه مجرباً بالتفكير بأن حذاقةً شيطانيةً كانت وحدها قادرة على تخيل مثل هذا التسلسل في الظروف وزجها في العمل . فأما ما يتعلق باللطف المفرط فليس ثمة مجال الشك فيه . بيد أن تقييمه الأخلاقي يطرح مع ذلك مشكلة أكثر دقة فأنا لا أني أنوه بأنّ المريضة لم تكن واعية بأي حال لدوافع هذا العمل الطائش المأساوي . فبالنسبة إليها كان ذلك حادثاً جرى في الظاهر من تلقاء نفسه دون أن تدرك في أيِّ حالٍ من الأحوال قواه المحركة . بيد أن معرفة ما كان قد جرى سابقاً تدفعنا إلى الإقرار بأنَّ كلَّ شيءٍ قد جرى توجيهه على نحوٍ خافٍ صوب هذا الهدف بينما كانت الشخصية الواعية تجتهد في إتمام الخطوبة مع السيد

(ب) . لقد كان الإلزام الخافي inconscient الذي كان يشدها إلى الطريق الأخرى هو الأقوى .

فلنرجع الآن إلى مشكلتنا الأولية إلى التساؤل الذي انطلقنا منه ولنسأل أنفسنا عما يصدر ما هو مرضيٌّ (أي ما هو مبالغ فيه ومضحك) في رجع مريضتنا إزاء الرضة النفسية . لقد خمّنا بفضل فرضية قائمة على تجارب عديدة بأنه كان يجب أن يكون في حالتنا الحاضرة إضافة إلى الرضة اضطراب في المجال العشقي . لكن هذا الادعاء وجد نفسه مؤكداً تأكيداً تاماً وقد علمنا هذا بأن الرضة التي يُنسب إليها العمل الممرض ليست في الواقع شيئاً آخر سوى ظرف خاص يتجلى في مناسبته عنصر نفساني لم تكن المريضة على وعي به إلى ذلك الحين وأعني به صراعاً عشقياً هاماً . فانطلاقاً من هذا الواقع تفقد الرضة دلالتها المانعة ذلك أنها قد استبدلت بتصور أكثر عمقاً بكثير وأكثر رحابة بكثير بموقع العامل الممرض في الحياة العشقية وصراعاتها .

يجيبنا الناس غالباً : ولكن لماذا يجب إذاً أن يكون دائماً صراع عشقي بالتحديد هو الذي يعيّن العصاب وليس ربما صراع من طبيعة أخرى . وعلينا أن نرد على ذلك بقولنا : إن أحداً لا يزعم بأنه يجب أن يجري الأمر على هذا النحو إنّها التجربة وحدها التي تبين بأن الأشياء تجري ذلك المجرى . ولا ينجم عن ذلك على نحو أقل بالرغم من كلّ التأكيدات المعاكسة مهما كان استياؤها بأن الحب[1] بمشاكله وصراعاته يلعب دوراً جوهرياً في الحياة الإنسانية وعليه فإن تقصياً معمقاً ومتأنياً يكشف دائماً بأن هذا الدور ذو أهمية بالنسبة إلى الشخص المعني أعظم بكثير مما يظن .

لقد جرى إذاً إهمال «النظرية الرضية» منذ أن تمّ تجاوزها . فمنذ أن عرف الناس بأنّ العصاب يمدّ جذوره في صراع عشقي خافيّ أقل منه في رضة ما توقفوا عن رد الجدارة الممرضة[2] إلى الرضة وحدها .

١ - نستخدم هنا كلمة حب بالمعنى الواسع للمصطلح الذي بطبيعته يعود إليه ويتجاوز من بعيد جداً الجنسية وحدها . فلا يعثنّ هذا المقطع على سوء الفهم فنحن لم نشأ أن نقول بأن الحياة العشقية واضطراباتها هي المصدر الوحيد للأعصبة . إن اضطرابات الحياة الغرامية يمكن أن تظهر في مستوى ثانوي وأن تكون مطوّعة بأسباب أكثر عمقاً فثمّة كيفيات أخرى يمكن للمرء ان يصبح معصوباً بموجبها .

(٢) ثمة استثناء تشكله الأعصبة الرضية الحقيقية الناجمة مثلاً عن انفجار قنبلة أو «شوكة سكة الحديد»

٢

# نظرية غريزة الحب

بعد أن أدّت الأبحاث التي قامت بخصوص الرضة النفسانية إلى تصور غير متوقع يتجاوزها وجدت نفسها إذ ذاك بمواجهة مشكلة الصراع العشقي . ويبين مثلنا بأن هذا الصراع يحوي عناصر لا سوية وافرة ولا يبدو بالتالي أنه يتحمل لأول وهلة المقارنة بصراع عشقي تافه . فمن المفاجىء قبل كلّ شيء وغير القابل التصديق تقريباً أنّ الظاهر الخادع هو وحده الذي يجب أن يكون واعياً في حين أنّ الهوى الحقيقي يبقى مستتراً ويفلت من ذاك الذي يستشعره . فمما لا شك فيه مع ذلك بالنسبة إلى الحالة التي تشغلنا أنّ الوضع العلائقي الحقيقي قد استمر غائصاً في العتمة بينما كانت العلاقات الظاهرة الخادعة تحتكر وحدها الحقل الإبصاري للوعي . فإذا ما اجتهدنا في صياغة هذا الواقع صياغة نظرية نتوصل إلى الطرح التالي : **ثمّة في العصاب نزعتان متعارضتان تعارضاً جذرياً إحداهما خافية** . إني عن عمد أصوغ هذا الطرح بمصطلحات عامة جداً . فأنا أريد التنويه من خلال ذالك بأنّ الصراع المُمرض مع كونه تصفيداً enchaînement شخصياً هو في الوقت عينه صراع مشترك لدى كل البشرية ينكشف في داخل الفرد . ذلك أن إحدى العلامات المميزة للإنسان المتحضر هي بشكل عام الانقسام القائم في داخل نفسه والعصاب إن هو إلا حالة خاصة للإنسان المتحضر المختلف مع نفسه وسبب الخلاف هذا هو وحده واقع أن عليه أن يصالح في ذاته الطبيعة والثقافة .

تقوم سيرورة الحضارة نفسها كما نعلم على ترويض تدريجيٍّ لكلِّ ما هو حيوانيٌّ في الإنسان . فالأمر يتعلق على أية حال بتدجينٍ لا يملك أن يمرَّ دون تمردٍ من جانب الطبيعة الحيوانية المتعطشة إلى الحرية . فمن وقتٍ إلى آخر ثمة نشوة تستولي على

الإنسانية الآخذة بلجم نفسها أكثر فأكثر بضغوط الحضارة . يشهد على ذلك العصور القديمة عندما اندفعت عليها أمواج العربدات الديونيسية الآتية من الشرق . فقد أصبحت هذه العربدات جزءاً لا يتجزأ أساسياً ومميزاً للثقافة القديمة ؛ ولم تكن قليلة مساهمة الروح الذي كان يستبعثها ، في العديد من الشيع والمدارس الفلسفية في القرن الأخير قبل الميلاد ، في إنماء الهدف الرواقي نحو التقشف . فعلى هذا النحو انبجست من الشواش المتعدد الآلهة في ذلك العصر ديانات ميترا والمسيح التقشفية ثم استولت على العالم موجة أخرى من السكر والحرية في عصر النهضة . وإذا كان من الصعب على المرء أن يحكم على عصره إلا أننا نلاحظ في لائحة المسائل الثورية التي طرحت في النصف الأول من القرن العشرين تقدم «المسألة الجنسية التي ولّدت أدباً كاملاً من جنس خاص . فالتحليل النفسي إنما يضرب جذوره عند بداياته في هذه «الحركة» التي أثرت تأثيراً أساسياً وأحادي الجانب في تشكيل تصوراته النظرية ذلك أنَّ أحداً لا يتوصل البتة إلى الإفلات من التيارات المعاصرة التي يعيش فيها . منذ ذلك الحين تمَّ إبعاد «المسألة الجنسية» إلى المستوى الخلفي بنسبة كبيرة بفعل مشاكل في تصور العالم . غير أنَّ هذا لم يغير في شيء الواقع الأساسي بأنَّ الطبيعة الإنسانية الغريزية تصطدم دائماً من جديد بالتحديدات التي ترسمها الحضارة : وقد تغير هذه التحديدات أسماءها أحياناً لكنَّ الوضع العام يبقى هو عينه في الأساس .

ونعلم اليوم أيضاً بأنَّ الطبيعة الغريزية الحيوانية ليست البتة دائماً هي التي تصطدم بضغوط الحضارة مولِّدةً على هذا النحو الانقسام في الذات الذي يبصره الفرد في قلب وجوده . فالأمر إنما يتعلق غالباً بأفكار جديدة تنبجس انبجاساً عاتياً من الخافية وتناقض بمقدار ما تفعل الغرائز عينها معايير الثقافة السائدة مولدةً هكذا الانقسام الباطني . في وسعنا اليوم مثلاً أن نقيم على نحو سهل نظرية سياسية في العصاب فمن الصحيح جداً أن الإنسان المعاصر مُستكّد في أعماقه ومُحرك بأهواء سياسية يبدو أن «المسألة الجنسية» لم تكن إزاءها سوى استهلال غير ذي معنى . وقد يبدو لاحقاً بأن الاهتمامات بالنظام السياسي لم تكن هي الأخرى سوى تمهيد لزعزعة أكثر عمقاً ذات طبيعة دينية ، العصابيُّ يشترك دون وعي منه بالتيارات المعاصرة السائدة التي يقدم نسخةً عنها وتعبيراً لها في صراعاته الخاصة .

العصاب في كلّ الأزمنة مرتبط ارتباطاً صميماً بمشاكل العصر . إنّه يمثل على العموم محاولة الفرد المكدّرة لكي يحل في داخله المسألة العامة . العصاب هو الانقسام الوجودي في ذات المرء . الباعث على الانقسام عند معظم الناس هو أن الواعية ترغب أن تبقى أمينة لهدفها الأخلاقي في حين أن الخافية تنزع نحو هدفها اللا أخلاقي («لا أخلاقي» تبعاً للتصور العصري السائد) الذي تجتهد الواعية في نفيه . الأفراد الذين يتألمون من عصاب من هذا النوع هم أفراد يتمنون أن يكونوا أكثر انضباطاً وأكثر تكيفاً مما هم في الحقيقة . ولكن الصراع يمكن أن يعوض أيضاً في الاتجاه المعاكس فثمة أشخاص قلما يبدون في الظاهر متلائمين ومع ذلك لا يفتعلون أدنى عنف . بيد أن موقفاً كهذا ليس في الحقيقة أيضاً سوى موقف خاطىء مسكين ذلك أنّ الجانب الأخلاقي فيهم يقبع في المستويات الخلفية ويسقط في الخافية تماماً كما كانت قبل قليل الطبيعة العاهرة مكبوتة عند الإنسان الفضيل . (إذاً علينا بقدر الإمكان تجنب الأطراف القصوى التي تبعث الريب دائماً بمناقضاتها).

كان هذا الإيضاح ضرورياً من أجل إدراك مفهوم «الصراع العشقي» إدراكاً أسهل فنحن بفضله ستتمكن من مواجهة مسألة التقنية التحليلية من جهة ومسألة العلاج من جهة أخرى .

المسألة التي تتقدم مسائل التقنية التحليلية هي بكل بداهة التالية : بأيّة وسيلة أتوصل بأسرع وأفضل ما يمكن إلى معرفة الأحداث الخافية عند المريض . لقد كان المنهج البدئي منهجاً تنويمياً فكان إمّا أن يُستجوب المريض وهو في حالة التركيز النوامي وإما أن يطلق هذا الأخير عفوياً العنان لتخيلاته . (في حالة النوام أيضاً) . ويحدث اليوم أيضاً أن يستخدم هذا المنهج لكنه يبدو مع التقنية الراهنة بدائياً جداً وغير كافٍ في الغالب . وثمة منهج آخر تم إبداعه في العيادة الطبية النفسية في زوريخ : هو المنهج المسمّى منهج التداعيات[1] . هذا المنهج يبين تبياناً دقيقاً واختبارياً وجود صراعات مشتملة ضمن ما سمّيته «المركبات» وهي عبارة عن قضات conglomérats في التمثيلات الوجدانية الفكرية التي تعلن عن وجودها باضطرابات نمطية خلال

١ ـ أنظر كتاب «الإنسان يبحث عن نفسه» المذكور أعلاه (م) .

التجربة[2] . غير أن المنهج الأهم الذي في متناولنا من أجل دراسة الصراعات الممرضة هو تحليل الأحلام كما بين ذلك فرويد في البداية .

بإمكاننا القول في الحلم بأنّ الحجر الذي رذله البناؤون قد أصبح رأس الزاوية وقاعدة البناء . فمن الصحيح أن الحلم هذا الإنتاج الهَروبَ لنفسنا والتافه في الظاهر لم يتعرض إلى امتهان أحطَّ من الامتهان الذي تعرض له في الأزمنة الحديثة . كان الحُلم في الماضي يُعتبر بشيراً من القدر ونذيراً أو عزاءً لأن الناس كانت ترى فيه رسالة من الآلهة أما اليوم فنستخدم الحُلم بمثابة تعبير عن الخافية . فنحن نفرض عليه أن يكشف لنا الأسرار التي تفوت واعيتنا ومع ذلك فهو ينجز هذه المهمة إنجازاً كاملاً مدهشاً . الحُلم «الظاهر» أي ذاك الحُلم الذي نتذكره هو تبعاً لتصور فرويد تلك الواجهة التي لا تترك مجالاً في البداية لحزر شيء ممّا هو داخل العمارة بل هي بالعكس تخفيه بأشد ما يكون الحرص بفضل رقابة الحلم المزعومة . بيد أننا إذا ما دعونا الحالم متقيدين ببعض القواعد التقنية إلى حرية الكلام وتركنا له مجال مشاركتنا بالأفكار التي تخطر له عفوياً بصدد مختلف عناصر وتفاصيل الحلم فسيبدو حالاً بأنّ تداعياته تنساق نحو بعض الاتجاهات وتتركز حول بعض المواضيع التي لها عنده مغزىً شخصي رفيع. فالحلم يتلقى منها معنىً كنا لأول وهلةٍ بعيدين جداً عن افتراضه مُتضمّناً فيها . إنّ مقارنةً متأنيةً تبين أيضاً بأنه تسود بين هذا المعنى وواجهة الحلم حتى في أدق التفاصيل صلاتٌ غاية في الحذاقة والاستفصال . فالقضّة (الاندماجة) النوعية من الأفكار والعواطف التي تنعقد في داخلها لحل خيوط الحلم تشكل الصراع المبحوث عنه في تلويناته الشخصية وفي الروايات التي تكيفها الظروف الخاصة بحياة الحالم . فالمضني والمتنافر في الصراع يوجد تبعاً لرأي فرويد مستتراً أو مجزءاً إلى حدّ أنّه يمكننا الكلام عن تحقيق رغبة غير أن الأمر لا يتعلق إلا نادراً بتتميم رغبةٍ بديهةٍ كما في الأحلام التي تردّ ، مثلاً على بعض التشنجات المعوية كأن يحقق نائم انتابه إحساس بالجوع رغبته في الطعام بأن يحلم بوليمة وافرة . وكذلك الفكرة العاتية بأن الوقت قد حان جداً للنهوض المناقضة لرغبة متابعة النوم الهانىء تولد في الحلم التصور المريح بأن المرء قد نهض ووصل إلى عمله الخ . ولكن هيهات أن تكون كل الأحلام بمثل هذه الطبيعة البسيطة . وثمة أيضاً تبعاً لفرويد رغبات خافية متنافرة بطبيعتها مع الأفكار ـ القوى

٢ ـ أنظر كتابنا المترجم : «علم النفس المركب» ص ١١٧ . دار الغربال . دمشق ١٩٩٢ .

للواعية النهارية - فهناك رغباتٌ غاية في الإضناء لا يجرؤ المرء حتى على الإقرار بها لنفسه وهذه هي تحديداً الرغبات التي اعتبرها فرويد المولدة الأساسية للأحلام. فهناك مثلاً فتاةٌ تحب أمها حباً حنوناً غير أنها تحلم في ألم عظيم بأن أمها ماتت. فهناك تبعاً لتصور فرويد عند هذه الفتاة وعلى جهلٍ منها رغبة مضنية إلى آخر حد وغير مقبولة في أن ترى أمها التي تستشعر إزاءها مقاومات سرية تختفي من هذا العالم بأسرع ما يمكن. يمكن أن تنبجس مثل هذه الكوارث الانفعالية في قلب أكثر الفتيات كمالاً بيد أننا قد نصطدم بأشد الإنكارات عنفاً فيما لو سعينا إلى الحصول منها على الإقرار بها. فالحلم المعلن لا ينطلق بشيء في الظاهر نحو تحقيق الرغبة فهو يعبر بالحري عن ضبط أو عن اهتمام أي بالتحديد عن عكس الجموح الخافي المفترض. بيد أننا نعرف بأن اهتماماً مفرطاً يجب أن يُشتبه في الغالب عن حق بعكس ما يعبر عنه. (إلا أن القارىء الناقد سيتساءل بحق: هل الاهتمام المعبّر عنه في الحلم هو اهتمام مفرط؟) هذه الأحلام عديدة حيث لا نملك في الظاهر أن نجد أثراً في إتمام الرغبة فالصراع المهيأ في الحلم هو صراع خافيٌ تماماً كما هي محاولة حله المرسومة. لقد كانت الفتاة تنزع في الحقيقة إلى إبعاد أمها واللغة البائدة للخافية تعبّر عن الإبعاد بمعنى: أماتَ. مع ذلك فقد يكون من الضلالة إرهاق الحالمة بتحميلها مسؤولية هذه النزعة لأنّ شخصيتها الواعية ليست على العموم هي التي صاغت الحلم بل هي فعلاً خافيتها. هذه الخافية تقدم للحالمة نفسها النزعة المذهلة إلى إبعاد أمها وواقع أن الفتاة تحلم بذلك يدل على أنها لا تفكر به تفكيراً واعياً فهي في حالة الوعي لا تفهم حتى لماذا يجب إبعاد الأم. بيد أننا نعلم بأن طبقةً ما من الخافية تحتفظ بكل الذكريات التي أفلتت من التذكر وبأن كل ما يجعل منها جمحات طفولية لا يملك من جهة أخرى أن يجد استخداماً له في حياة أكثر رشداً. بل يمكننا القول بأن الجزء الأكبر مما ينبجس من الخافية يحمل في البداية ختم الطفالة: هذا ما حدث في الرغبة التي ولّدت حلم الفتاة والتي يمكن التعبير عنها على نحو بسيط جداً بالتفكير الطفولي التالي: «أليس أنّك أبتي العزيز ستتزوجني عندما تموت أمي؟» يبدو إحياء هذه الرغبة الطفولية في الحلم بعد زيادة الإيضاح كمادةٍ بديلةٍ لرغبة حديثة ساورت الفتاة في الزواج، رغبةٍ كانت مضنيةً بالنسبة إليها وغير مُتحملة لأسباب يجب إيضاحها. لقد كانت هذه الفكرة أو بالأحرى ما ينطوي عليه هذا الأمر من جدي وواقعي مكبوتاً

كما يقال في الخافية حيث يجب أن يعبر عن نفسه بمواد طفلية لأن إمكانات التعبير التي تمتلكها الخافية متشكلة في جزئها الأكبر من ذكريات السنوات الأولى للحياة .

بديهيٌ أنّ الأمر يتعلق بحلم فتاتنا باندفاع غيرة طفلية فالحالمة مشغوفة على نحو ما بأبيها ولهذا فهي تتمنى إبعاد أمها . غير أن صراعها الواقعي هو أيضاً أوسع بكثير فهو يقوم على هذا أنها تتوق من جهة إلى الزواج ولا تتوصل إلى قرار في ذلك من جهةٍ أخرى . إن أسباب التردد متعددة في ظروف كهذه : فالفتاة لا تعلم تماماً وبالتحديد ما سيكون عليه مستقبلها فيما لو حدث أن شريكها كان تماماً على النحو الذي تتمناه الخ . . فهي في تطلعها إلى الخلف ترى أن حياتها في البيت مؤمنة وأن عيشها فيه عيش جميل فترتجف من فكرة أن عليها الانفصال عن أمها الصغيرة وأن عليها أن تصبح بدورها راشدة مستقلة ومسؤولة ، بيد أن الفتاة لم تلاحظ بأن المشكلة الحاسمة في الزواج قد انطرحت أمامها انطراحاً حيوياً جاداً وأنها استولت عليها بحيث لم تعد تجد سبيلاً إلى الاحتماء في الكنف الوالدي دون أن تجلب معها إلى قلب عائلتها التساؤل الذي واجهها القدر به . فهي ليست بعد الطفلة التي كانت ولكنها فعلاً ولا حيلة لها في ذلك الفتاة التي تتمنى الزواج.وهي ليست بعد الطفلة التي تعود إلى الخيمة الأبوية ولكنها الشابة المراهقة التي تحمل في قلبها الرغبة في الرجل . إذاً فالأب هو الرجل في العائلة وعليه إنما تتبلّرُ حتى بجهلٍ من الفتاة الرغبة في الرجل . بيد أن ذلك يشكل حراماً ؛ كذلك فإنَّ حبكةً حرامية ثانيةً تظهر إلى الضوء . يفترض فرويد بأن النزعة الحرامية أولية وأنها تشكل الباعث الأولي الذي لا تتوصل الحالمة بسببه إلى تقرير زواجها أما البواعث الأخرى إلى جانب هذا الأخير التي ألمعنا إليها فهي في نظره قليلة الوزن . **لقد زعمتُ منذ زمن طويل على خلاف تصوّر فرويد بأن اللقاء المناسبيَ الحراميَ لا يدل بأي حالٍ على وجود جنوح حرامي عام تماماً كما لا تثبت ظاهرة القتل الطارئة نزوعاً مُعمّماً إلى الجريمة نزوعاً قد يكون مولداً للصراعات النفسانية . ولستُ أذهب إلى حدّ الادعاء بأن ليس ثمة في كل فردٍ بذوراً بوسعها أن تدفعه إلى ارتكاب أي جريمة بيد أنه توجد خطوة عظيمة بين وجود بذور كهذه من جهة وبين صراع راهن أو تفكك في الشخصية قد ينجم عنه وكما نصادفه في العصاب من جهة أخرى .**

إننا نجد على نحو منتظم في حياة المعصوب عندما نتتبع باهتمام خطوة خطوة تاريخ عصابه لحظةً حرجةً تنبجس خلالها مشكلةٌ لا يتقبلها بل يتجنبها . غير أن هذا التجنب هو رجع طبيعي وشامل ككل الدوافع النفسانية التي تكيفه وأعني بها الكسل وقانون أقل الجهد والجبن والخوف والجهل واللا وعي. فعندما يكون ثمة شيء ما مزعج وصعب وخطر فإن المرء يتردد على العموم ولا يتدخل إن وجد إلى ذلك سبيلاً . إني أعتبر بأن هذه البواعث كافية كل الكفاية لتفسير سلوك ما . ويبدو لي أن الأعراضيات الحرامية التي تشكل معطىً لا شك فيه والتي أزاح فرويد النقاب عنها تماماً ظاهرة ثانوية هي من الآن مرضية .

يهتم الحلم غالباً بتفاصيل مملة جداً في الظاهر ومن هنا فهو يبدو لنا غالباً مثيراً للسخرية . أو قد يبدو لنا أيضاً في ظاهره غير مفهوم إلى حدٍ يثير فيه إعجابنا على الأكثر . يجب علينا دائماً أن نتغلب على النفور الفكري الناجم عن هذا ا لانطباع الأول الذي يسببه لنا كونه مثيراً للسخرية أو غير مفهوم قبل أن نقرر الانكباب بجدٍ وتأنٍ على العمل من أجل فك هذه الربطة من ا لخيوط المشربكة . ولكننا عندما ننفذ في النهاية إلى المعنى الواقعي للحلم ندرك أننابالمقابل نجد أنفسنا في قلب الحالم نفسه وفي قلب أسراره . ونتحقق إذ ذاك على نحو معجب بأن الرؤية الأشد غرابة في الظاهر هي في الواقع رفيعة المعنى وأنه في الحقيقة لا يتكلم إلا في أشياء جادة ولها أعظم الأهمية . هذه الملاحظة تجبرنا على مراعاة لا حدود لها إزاء «الخرافة» المزعومة التي كانت تقول بوجود معنى للأحلام لم تكن المنازع العقلانية للأزمنة المعاصرة تستطيع امتلاكه .

تحليل الأحلام هو كما قال فرويد «الطريق الملكية» إلى الخافية فهي تقود نحو الأسرار الشخصية الأعمق ولذلك فهي وسيلة لا تُثمَّن بين يدي الطبيب ومربي النفس .

**المنهج التحليليُّ عموماً وليس فقط وخاصة التحليل النفسيُّ الفرويديُّ مكوّن من تحاليل عديدة للأحلام . فهذه الأحلام تكشف بالتالي خلال العلاج من خلال إعادتها إلى الواعية عن محتويات الخافية التي تصبح منذئذٍ خاضعةً لفعل الضوء المطهر. وسيجد المتعالج خلال هذه الأفعولة أكثر من عنصر ثمين قد ظنه ضائعاً إلى الأبد .**

وعلينا بالطبع أن نتوقع بسبب من حالة الأشياء هذه أن يَستشعر أفراد عديدون يحتضنون أفكاراً خاطئةً عن أنفسهم أو يتلبسونها العلاج بمثابة عذابٍ حقيقي . سيكون واجباً عليهم فعلاً أن يهجروا تقريباً كلَّ أوهامهم وأعزَّها لكيما ينمو فيهم بفضل المبدأ السرَّاني القديم : «تَجرَّدْ مما لديك وعندئذٍ سوف تنال» شيء ما أرحب وأجمل وأعمق[1]. إنها مبادىء ذات حكمة قديمة جداً تعود اليوم إلى النور خلال العلاج التحليلي. وإنه لمما يثير الفضول بأنْ نتحقق على مستوى الحضارة الراهنة وتحديداً ذلك الضرب من تربية النفس الذي ينكشف ضرورياً كل الضرورة ـ تربية تقارن في أكثر من نقطة بتقنية سقراط على الرغم من أن التحليل ينفذ نفاذاً أعمق بكثير مما يفعله هذا الأخير .

لقد حاولت أعمال فرويد في الاتجاه الذي أخذته أن تبرهن بأن العامل العشقي أو بتحديد أكثر العامل الجنسي يحوز دلالةً راجحةً في نشوء الصراع الممرض. فتبعاً لهذه النظرية يتعلق الأمر في العصاب بتصادم بين نزوع الواعية والرغبة اللا أخلاقية المناقضة الخافية . الرغبة الخافية هي طفولية تشكل أمنيةً صادقة عما قبل تاريخ العمر الأول للفرد وقد استمرت عائشةً بعده وهي لا تؤطر بأي حال من الأحوال مع الحاضر لذلك فإن الفرد يكبتها لأسباب أخلاقية راهنة . فالعصابي يحس في حياته نَفْسَ الطفل الذي لا يطيق التقييدات التي يغيب عن ذهنه معناها والتي يرى فيها لذلك تقييدات اعتباطية . فمن الصحيح أنه يسعى حقاً إلى تبني الأخلاق السائدة غير أن هذا يقوده نحو انقسام وبشكل ما نحو حرب أهلية مع نفسه ذلك أنه يريد في الوقت عينه أن يتحرر من جهة وينضبط من جهة أخرى وهذا هو تحديداً الصراع الباطني الذي نسميه العصاب . فلو كان هذا الصراع واعياً واضحاً وفي كل مكوناته فقد لا ينجم عنه بلا شك أعراض عصابية لأن هذه الأخيرة لا ترى النور إلا عندما لا يتوصل الفرد إلى رؤية الجانب الآخر من كيانه وإلحاح المشاكل التي يستتبعها . ويبدو أن بهذا الشرط فقط يتكون العرض الذي هو بمثابة تعبير عن الجانب المجهول في النفس الإنسانية . والعَرَض بالتالي هو ـ تبعاً لفرويد ـ التحقيق غير المباشر للأماني الخافية التي قد تدخل فيها لو كانت واعيةً في صراع عنيف مع القناعات الأخلاقية للمعصوب . **هذا الجانب المعتم من النفس كما قلت أعلاه هو الذي يفلت من جهود**

١ ـ وحده سر التضحية النفسانية بالذات يؤدي إلى تجديد النفس .

التقصي الواعي الذي يقوم به المعصوب ذلك أن المريض لا يستطيع التفاوض مع ظله المجهول ولا يستطيع تحسينه ولا التكيف معه ولا حتى التنازل عنه لأنه في الواقع لا يملك السيطرة على جمحاته الغريزية الخافية : فحيث أنها قد كُبتت فهي مطرودة من مراتبية النفس الواعية وأصحبت مركباتٍ مستقلة . وحده التحليل يستطيع عبر المقاومات الماكرة التي تتجلى خلاله أن يدفعها إلى التوبة . ثمة مرضى يزعمون متباهين بأن ما نسميه ظلاً غير موجود بالنسبة إليهم . بيد أن هؤلاء الأفراد لا يرون بأنهم بالمقابل وبضرب من التأرجح يصطدمون بمآسٍ تبدو لهم مجهولة المصدر : نوبات مزاجٍ هيسترية ، مشاجراتٌ مع أقربائهم أو مع أنفسهم ، شلولٌ معديةٌ عصبية ، آلامٌ هنا وهناك ، نزقية لا أسس ظاهرة لها وجمٌ متعدد الأشكال من اضطرابات عصبية أخرى ممكنة .

لقد أُعيب على التحليل الفرويدي تحريره للجمحات الحيوانية ـ المكبوتة لحسن الحظ ـ وأنه قابل على هذا النحو لإطلاق تعاساتٍ لا نهاية لها . يبين هذا الضبط بكل بداهة مبلغ ضعف الثقة التي يجعلها الناس عموماً في نجوع المبادىء الأخلاقية الراهنة . من هنا يبدو أن الناس يعترفون بأن الأخلاق الموعوظ بها تستطيع وحدها ضبط البشرية على طريق التجاوزات غير أن الضرورة التي تشكل قانوناً هي منظمٌ أكثر نجوعاً بكثير وأكثر إقناعاً بكثير مع حدود الواقع الذي تفرضه من كل المبادىء الأخلاقية في العالم . صحيح بأن التحليل النفسي يجعل الجمحات الحيوانية واعيةً ليس ـ كما يشير إلى ذلك تفسير بعضهم ـ لكي يترك مباشرةً الحبل على غاربه ولكن بالعكس لكي يرتبها ويدمجها في قلب مجموع معبأ بالمعنى . وعلى كل حال فإنها لفائدة أكيدة أن يمتلك المرء شخصيته امتلاكاً تاماً وإلا فإن العناصر النفسانية المكبوتة تنبجس في نقاطٍ أخرى من الاقتصاد النفسي تحت شكل طفيليات مزعجةٍ تسدُّ الطريق لا في نقاطٍ تافهةٍ بل تحديداً في أشدِّ المواقع حساسية . فإذا ما قمنا بالعكس بتعليم الناس على استبيان ظلهم وخساسات طبيعتهم فثمة مجالٌ للأمل بأنهم سيكتسبون تدريجياً فهماً للآخرين ويحبونهم لأجل ذلك محبةً أكثر . فلا يمكن لنقصان الخبث وتنامي معرفة الذات إلا أن يؤديا إلى نتائج أفضل على صعيد التسامح إزاء الآخرين ذلك أن المرء مستعدٌ استعداداً مفرطاً لكي يلقي على الآخرين الإساءة والعنف اللذين يوجههما نحو طبيعته ذاتها .

غير أن المذهب الفرويدي في الكبت يتصرف كما لو أنه لا يوجد سوى أفرادٍ مفرطين جداً في أخلاقيتهم يكبحون طبيعتهم الغريزية اللا أخلاقية . فلو كانت وجهة النظر هذه صحيحةً فقد يتوجب على الكائن الفاجر الذي يعيش جمحاته الغريزية بلا كابح ولا انضباط أن يكون إزاء عصابه في حالة من المناعة التامة . ولكن بالطبع كما تثبت التجربة ذلك فإنه لا يوجد شيء من هذا وأن فرداً كهذا يستطيع تماماً جداً كغيره أن يكون عُرضةً للعصاب . فإذا ما قمنا بتحليله سنكتشف بكل بساطة أن الأخلاق عنده هي التي تم كبتُها .[1] وإذا ما توصَّل الفرد الفاجر بفعل كبت مكوناته الأدبية إلى أن يجعل منها عُصاباً فسيقدِّم تبعاً لعبارة نيتشه المدهشة صورة «المجرم الشاحب» الذي ليس في مستوى إساءته .

في وسعنا التفكير إزاء حالة كهذه بأن الآثار الأخلاقية المكبوتة لم تعد تشكل سوى مخلَّفات وأعرافٍ تقليدية وطفولية كانت تضع كوابح نافلة للطبيعة الجامحة ولا يبقى لنا انطلاقاً من هذا سوى العمل على اجتثاثها . ومبدأ : «اسمقوا السافل» قد يبلغ هنا ذروته في تصور للحياة يصبح المُرْوِقُ فيه قانوناً . إن موقفاً غريباً كهذا قد يدفع بالطبع الغباوة إلى ذروتها ذلك أن علينا أن لا ننسى أبداً ـ ومن المهم تذكير مدرسة فرويد بإلحاح بذلك ـ بأن الأخلاق لم يتم جلبها من جبل سيناء تحت شكل ألواح للشريعة وفرضها بالقوة على الشعوب بل إنها تشكل وظيفة للنفس الإنسانية قديمة قدمَ الإنسانية نفسها[1] . الأخلاق لا تأتي من الخارج ، ولم يتم فرضها بالقوة . إن كل واحد في نهاية التحليل يحملها بدرياً في ذاته ليس تحت شكل قانون ولكن تحت شكل ألياف ذات طبيعة أخلاقية قد تصبح الحياة المجتمعية للجماعة البشرية مستحيلة بدونها . من هنا سبب وجود العوامل الأخلاقية في كل طبقات المجتمع . ذلك أن الأخلاق تشكل تنظيماً غريزياً للنشاط الذي ينظم من الآن الوجود المشترك للجموع . بيد أن القوانين الأخلاقية لا تملك صحتها إلا في داخل جماعة بشرية محددة لأن

١ ـ كثيراً ما يعمد المتثبتون على أفكار فرويد الجنسية إلى كبت أخلاقيتهم وجعل الإباحية مبدأ ينادون به وقد لمسنا ذلك في كلام الكثيرين من المتشيعين لفرويد (م) .

١ ـ وقد أثبتت كل الدراسات والتنقيبات الآثارية بأن تاريخ الشعوب حافل بالمبادىء الأخلاقية وما شريعة سيناء سوى نسخة متأخرة لمبادىء حمورابي الشهيرة (م) .

صحتها تتوقف عند حدودها . وإذا ما حدث أن توقفت الأخلاق فَستُبدَلُ عندئذٍ بتلك الحقيقة القديمة : «الإنسان ذئب لأخيه الإنسان» . ويمكننا أن نتوصل مع ثقافة نامية إلى انضواء جماهير بشرية متعاظمة أكثر فأكثر في الأخلاق عينها دون أن نتمكن مع ذلك إلى الآن من تثبيت سيادة القانون الأخلاقي فيما وراء حدود مجتمع معين أي أن نجعله يتجاوز الحدود التي تفصل المجتمعات المستقلة بعضها عن بعض في شكلها . إن القاعدة هي إذاً كما في أعماق الأزمنة العيش بلا إيمان ولا شريعة وفي أشد الفجور إعتاماً غير أن العدو الساعة وحده هو من يجرؤ على إعلان ذلك .

لقد تشربت المدرسة الفرويدية ذات التقيد الصارم إلى حدٍّ بعيدٍ بالأهمية الأساسية بل حتى المانعة للجنسية في العُصاب بحيث استخلصت منها النتائج التي كانت تفرض نفسها وانطلقت بشجاعة إلى مهاجمة الأخلاق الجنسية المعاصرة . لقد كان هذا الهجوم مفيداً وضرورياً بلا شك لأنه كانت تسود في هذا المجال وما زالت تسود أيضاً تصورات مفرطة جداً في عدم تمايزها إزاء أوضاع واقعية معقدة إلى أقصى الحدود . فكما كانت كل تجارة مالية في بداية العصور الوسطى معتبرة محط احتقار لأنه لم يكن بعد ثمة أخلاق مميزة تبعاً للحالات فيما يتعلق بشؤون المال ولكن كان هناك على نحو إجمالي أخلاق شاملة كذلك نحن لا نعرف اليوم سوى أخلاق جنسية هي الأخرى أشبه بكتلة لم تُشذَّبْ بعد . إن فتاةً تملك طفلاً غير شرعي تجد نفسها مدانةً بأحكام أخلاقيةٍ مسبقةٍ ولا يتساءل أحد فيما لو خطرت له تعقيدات وضعها الفردي عن لائقية هذا الكائن . إن شكلاً من الحب غير معترف به في الشريعة يُسْتَشْعَرُ وكأنه فجورٌ وأنه يجمع كائنات مصطفاة أو لصوصاً : فما يزال الناس يسلكون وكأنهم مُنوَّمون بالشيء . فـ «لماذا» تجعلهم ينسون الكيف والفعل يَسدل القناع على الخليقة الفاعلة . فالأمر في أيامنا أشبه ما يكون بموقف العصر الوسيط من شؤون المال التي لم تكن سوى تلاعباتٍ بالذهب المتوهج المشتهى بحرارةٍ والذي لم يكن يمكن بالتالي أن يكون إلا شيطانياً .

ومع ذلك فإن الأمر ليس في الواقع بمثل هذه البساطة فالحياة العشقية تسوِّرُ مشاكلَ ستظلُّ منطويةً عليها إلى نهاية الأزمنة أياً تكن الاستعدادات التي يمكن أن تُدْفَعَ التشريعات الأولية إلى مواجهتها . فإشكاليتها تنطلق من جهةٍ من واقع أن

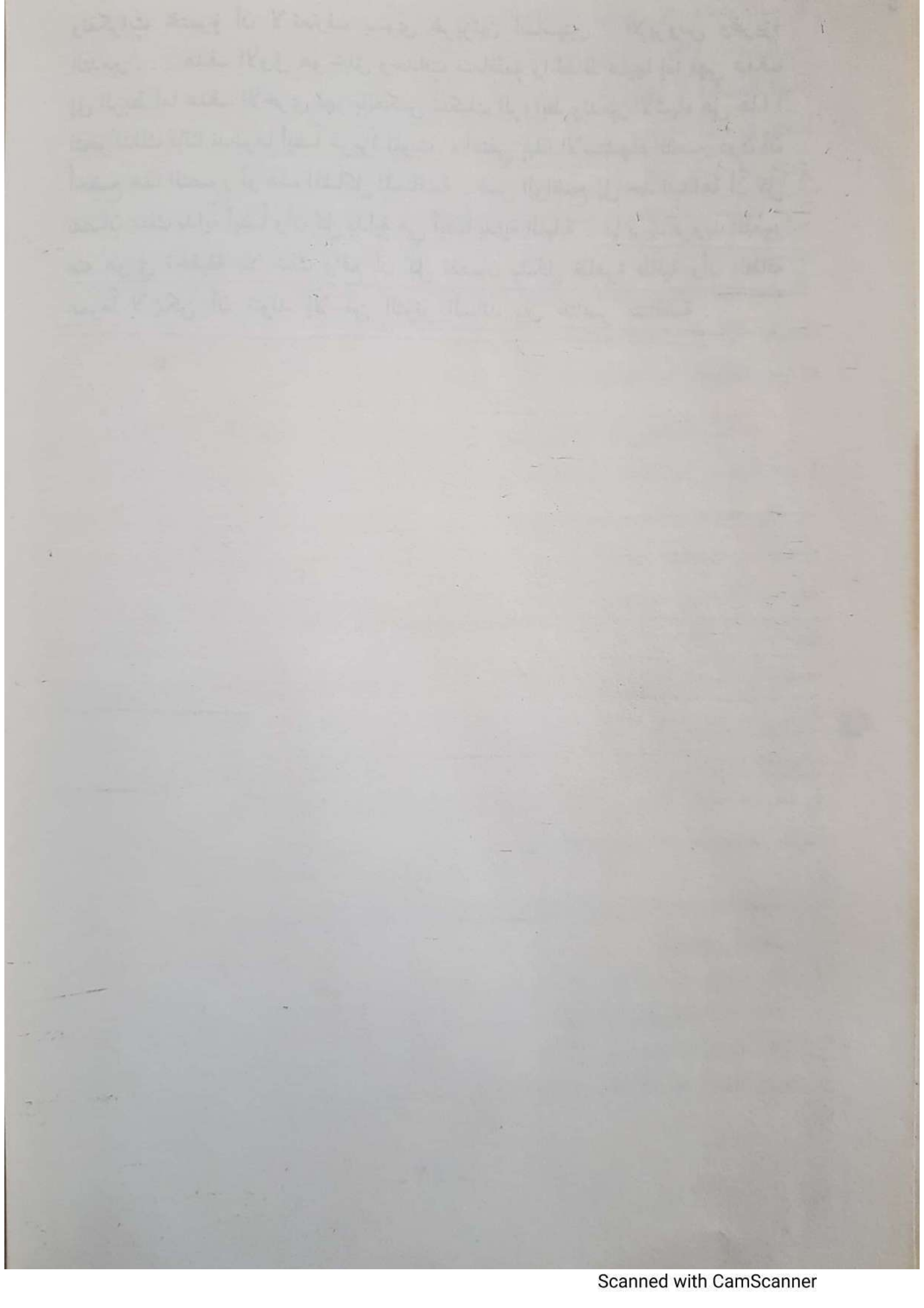
الإنسان يتمتع على صعيد الأصل بطبيعة حيوانية ستدوم ما سيدوم للإنسان جسم حيواني ومن واقع أنها مزاوجةٌ لأرفع أشكال الفكر من جهة أخرى . وبالتالي فإن **الحياة العشقية لا تتفتحُ إلا عندما يكون الروح والغريزة في توافق سعيد** ولكن ليظْهَر افتقار في هذا الجانب أو ذاك فإن ضرراً أو على الأقل اتجاهاً مشوهاً وحيد الجانب يؤدي على نحو سهل إلى الحالة المرضية سيجد طريقه إلى النور . **الحيوانية المفرطة تشوهُ الإنسان المتحضر والثقافة المفرطة تخلق حيوانات مرضى** . هذا القياس الأقرن يبينُ كل التقلب الذي تنطوي عليه الحياة العشقية للإنسان . الحب العشقي هو في الأساس قدرة جبارة ينقاد للطبيعة للاستخدام والسيطرة كما لو كان عاجزاً . ولكن انتصار الإنسان على الطبيعة يجعله يدفع الثمن غالياً . ليست تفسيرات المبادىء ما تهم الطبيعة فما تتطلبه إنما هو التسامح والتصرف الحكيم .

«الحبُ العشقي كما كانت الحكيمة ديوتيما تقوله لسقراط شيطانٌ كبيرٌ» فالإنسان لم ينته البتة من مشاكلته انتهاء تاماً وإذا كان قد انتهى تماماً من مشاكلته فإنما ذلك قد تم على حسابه الخاص فهو لا يكون وحده كل الطبيعة فينا ولكنه على الأقل يشكل واحداً من أوجهها الرئيسة . بحيث إن النظرية الجنسية للأعصبة تبعاً لفرويد تستند على مبدأ صحيح موجود غير أن هذه النظرية تقع في ضلال أحادية الجانب والامتناعية وترتكب الحماقة من جهة أخرى بإرادتها ضبط أو تكبيل الحب العشقي الذي لا يمكن حجزه في اصطلاحاتٍ جنسيةٍ سمجة . ذلك ناجمٌ عن واقع أن فرويد هو من وجهة النظر هذه ممثل نمطي للعصر الماداني الذي كان يأمَل التوصل يوماً إلى حل ألغاز العالم والوجود في مخبرة التجربة .[1] وقد أقرَّ فرويد نفسه في عمرٍ متقدم بنقص التوازن هذا في نظريته فقابل الإيروس الذي يسميه الليبيدو **بغريزة التدمير أو الموت**[2] . **ففي أعماله المطبوعة بعد موته يقول في هذا الشأن : «لقد قررنا بعد ترددات طويلةٍ**

١ - Voir jung: «Sigmund Freud als Kulturhistorische Erscheimung Wirklich Keit der Seele, Rascher, Zurich.

٢ - لقد صاغت هذه الفكرة أولاً تلميذتي الدكتورة سبيلرين Spielrein (أنظر : Die Destruction als Ursache des Werdens, jahrle. f. psychoanalyt. U. psychopathol. Farsch.)
وهذا العمل استشهد به فرويد نفسه . وفيما بعد أدخل هذا الأخير مبدأ التدمير في كتابه : ما بعد مبدأ اللذة . الفصل الخامس . نشر پايو ١٩٤٨ . ترجمة الدكتور جانكليفيتش Jankélévitch .

وتفكراتٍ مختمرةٍ أن لا نعترف بسوى غريزتين أساسيتين : الإيروس وغريزة التدمير . . . هدف الأولى هو خلق وحداتٍ متعاظمةٍ والحفاظ عليها إذاً فهي تهدف إلى الربط أما هدف الأخرى فهو بالعكس تفكيك الروابط وتدمير الأشياء على هذا ا لنحو لذلك فإننا ندعوها أيضاً غريزة الموت . » أكتفي بهذا الاستشهاد القصير دون أن أُخضع هذا التصور أو هذه المشاكل للمناقشة . فمن الواضح إلى حدٍّ البداهة أنَّ كلَّ نقصانٍ يملك بدايةً أيضاً وأن كل بدايةٍ هي أيضاً بداية النهاية . فما يريد فرويد التعبير عنه هو في الحقيقة بلا شك واقع أن كل نقصان يشكل ظاهرة طاقية وأن الطاقة عموماً لا يمكن أن تتولد إلا من التوتر السائد بين عناصر متناقضة .



# ٣

# وجهة النظر الأخرى : إرادة القوة [١]

لقد أمعنا إلى الآن النظر أساساً في مشكلة علم النفس الجديد من وجهة نظر فرويد. فمما لا شك فيه أنا قد تبينا على هذا النحو شيئاً ما بل شيئاً ما صحيحاً تفضل كبرياؤنا أو ربما وعينا كإنسانٍ متحضرٍ إنكاره. بيدَ أن جزءاً آخرَ من نفسنا يوافق عليه دون تحفظ . هذا التناقض هو بالنسبة لأشخاصٍ كثيرين استفزازيٌّ للغاية ويدفع إلى المعارضة أو إلى ما هو أسوأ إذ يثير قلقنا ونحن نرفض الإقرار به . الواقع بحد ذاته مرعب حقاً واقعُ أن الإنسان يملك على هذا النحو جانباً ظلياً أو ظلاً نفسانياً لا ينطوي فقط ـ كما يحلو للبعض أن يظن ذلك ـ على نقائص صغيرة وبذور جمال ولكنه يتحكم أيضاً بزخوم dynamismes شيطانية صريحة . نادراً ما يعلم الفرد المنعزل بهذه الوقائع ذلك أنه من غير المعقول تقريباً بالنسبة إليه كمتوحدٍ ضائعٍ في العالم أو أنه من المستبعد أن يتجاوز نفسه في نقطة ما أو بشكل ما . ولكن لنجعل هذا الكائن غير المؤذي يكوِّن مع الآخرين جمهرةً فإنهم من الآن يشكلون باتحادهم وحشاً سيكون عُرضةً سهلةً للانفعال ولا يعود الفرد يشكل في داخله سوى عامل ضئيل ولن يستطيع سواءٌ شاء أم أبى إلا أن يشارك في الجنون الدموي لهذا الوحش أو أنه سيساعده في ذلك بكل قواه . ويجعل الاستشعار الغامض لهذه الإمكانات التي هي العدة المأساوية للظل في الإنسان المرءَ يفضل نبذه (الظل) وإنكار وجوده[٢]، بل يتردد في الإقرار بالصراع الذي يستشعره استشعاراً بالغ الألم . فمن المفهوم بالتالي أن مدرسة نفسانية تلح على الجوانب المظلمة في الإنسان ـ حتى بغض نظرنا عما يمكن أن يكون فيها من جانب أحادي مفرطٍ هنا وهناك ـ ألا تجد قبولاً مرضياً بل أن تدفع إلى الخوف ذلك أنها تلزم المرء على مواجهة مع مهاوي لا قعر لها لهذه المشكلة . ثمة شعورٌ غامض ينبهنا

١ـ ويترجمها بعضهم إرادة الاقتدار (م) .

٢ـ سقطت هنا جملة أثناء التنضيد هي التالية : ومن الناس من يتنفج ضد العقيدة الخلاصية للخطيئة الأصلية ، التي تعبّر مع ذلك عن حقيقة خارقة جداً .

بأننا لسنا مُكَمَّلينَ إذا لم نستدمج هذا الجانب السلبي من طبيعتنا في المجموع وأننا نملك جسماً هو ككل جسم عموماً يُسقط ظله حتماً وأننا لا نعود بعد كائناتٍ ذوي أبعاد ثلاثة بل كائنات مسطحة قد فقدت جوهرها فيما لو أنكرنا بالتحديد هذا الجسم . بيد أن هذا الجسم حيوان وله نَفْس حيوان أي أنه يتمتع بنظام حي يخضع خضوعاً مطلقاً للغريزة . يقوم التحالف مع هذا الظل بقبول الغريزة وقبول زخومها الهائلة أيضاً التي تهددُ من وراء الستار . هذا هو بالتحديد ما تسعى الأخلاق التقشفية المسيحية إلى تحريرنا منه مع خطر أن تُشَوِّش الطبيعة الحيوانية للإنسان في أعمق أعماقه . فهل ندرك تمام الإدراك ماذا يعني أن يستجيب الإنسان لجموحه ؟ لقد أراد نيتشه ذلك وعلَّمه وكان يتكلَّم كلاماً جدياً بل قد ضحى بنفسه بولعٍ نادر وضحى بحياته لفكرة الإنسان المتفوق أي لفكرة الإنسان الذي سيتمكن بانصياعه لجموحه من تجاوز نفسه . كيف أمضى حياته إذاً ؟ كما كان تنبأ بها لنفسه في زرادشت بوصفه وصفاً تنبؤياً تلك السقطة القاتلة للراقص على الحبل ، «للإنسان» الذي لم يكن يريد أن «يقفز أحدٌ» فوقه . قال زرادشت للمحتضر : «ستكون نفسك أيضاً أسرع إلى الموت من بدنك !» وفيما بعد قال القزم لزرادشت : «إيه زرادشت الحجر الفلسفيُّ للحكمة ! لقد قذفت بنفسك قذفاً شديداً في الأعالي بيدَ أنَّ كل حجرٍ مقذوفٍ يجب . . أن يعود فيسقط ! أنت محكوم لنفسك وأن تَرْجُمَ نفسك بذات يديك : إيه زرادشت لقد قذفت الحجر بعيداً جداً ـ لكن الحجر سيعود ويسقط عليك» . وعندما نطق على نفسه كلمة «هو ذا الرجل»[1] كان قد فات الأوان كما حصل في الماضي عندما قيلت هذه الكلمة لأول مرة وبدأ صلب النفس حتى قبل أن يكون بدنها قد فنيَ .

يجب علينا أن نفحص فحصاً ناقداً حياة ذاك الذي كان على هذا النحو نبيَّ التأكيد لكي نلاحظ آثار مذهبٍ كهذا عند ذاك الذي أبدعه نفسه . بيدَّ أننا إذا ما درسنا حياته من وجهة النظر هذه نتوصلُ إلى نتيجة غير متوقعة : إن نيتشه قد عاش فيما وراء الغريزة في هواء القمم التي تندفع إليها البطولات فقد اجتهد أن يحتفظ بذلك المناخ المرتفع بفضل نظام من أشدِّ الأنظمة عنايةً وبفضل مناخٍ مختار وخاصةً بدعمٍ عظيمٍ من المنومات ـ إلى أن حشره التوتر الذي بلغ حداً لا يطاق في انهيار مخي.لقد كان يعظ بقول نعم للجموح وعاش نافياً الحياة . كان الناس يوحون

١ ـ «هوذا الرجل» : كلمة قالها بيلاطس عندما أسلم المسيح ليصلب (م) .

إليه بقرفٍ مفرطٍ وخاصةً الإنسان بما هو حيوان يعيش من غريزته لكي يتمكن أن يصير بها شيئاً آخر . فالضفدع التي حلم بها غالباً مع حصره بأن يُجْبَرَ يوماً على ابتلاعها لم يستطع البتة على نحو نفساني أن يبتلعها . لقد كان زئير الأسد زرادشت يُدخل مجدداً إلى قبو الخافية كل «الناس المتفوقين» الذين كانوا يصرحون بتوقهم إلى الحياة . لذلك فإن حياة نيتشه لا تقنعنا بصحة مذهبه ذلك أن الإنسان المتفوق يريد أيضاً أن يتمكن من النوم دون منومات ويريد أن يتمكن من العيش في نومبورغ Naumbourg وفي بال Bâle على الرغم من «الضباب والظلال» ويريد امرأة وذرية ويطلب الاعتبار والحظوة بين القطيع الاجتماعي ويريد الكثير من رغد العيش وهو بعيد عن التجرد من الأهداف التي يلاحقها الإنسان غير المثقف . إن نيتشه أهمل أن يعيش غريزة هي بالتحديد الغريزة الحيوانية للحياة : لقد كان شخصية مريضة دون أن ينال هذا الاستنتاج في شيء من عظمته ودلالته .

ولكن أين كان إذاً يغرف طاقة الحياة إذا لم يكن زخمه ينبع من الغريزة ؟ هل يستطيع المرء حقاً أن يعيب على نيتشه أنه عملياً أدار ظهره لغريزته ؟ مع ذلك فقد كان من الصعب أن يوافق على هذا الإلماح بل لعله كان سيحاول أن يثبت ـ وذلك دون صعوبة ـ بأنه كان يعيش غريزته في أرفع مستوى . ولكننا نتساءل متعجبين كيف أمكن لجمحاته الغريزية ككائن بشري أن تقوده بالتحديد بعيداً عن الناس في توحدٍ مطلق وفي ما وراءٍ كان قرفه منه يحول بينه وبين القطيع البشري ؟ ذلك لأن المرء يفكر عموماً بأن الغريزة تدفع الإنسان إلى الاتحاد والتزواج والانجاب وتنزع إلى اللذة والرفاهية وإرضاء كل رغبات الحواس . بيد أن ذلك ناجمٌ عن إهمالنا بأن هذا التعداد لا يمثل سوى واحدٍ من السفوح الممكنة للغريزة فثمة أيضاً إلى جانب غريزة الحفاظ على النوع غريزة الحفاظ على الذات .

إذاً فإن نيتشه يتكلم صراحةً عن هذه الأخيرة أي عن إرادة القوة . وانطلاقاً من هذا فإن كل ما يشكل عالم الجموح إنما يشتق في نظره من هذه الإرادة. الأمر الذي هو من وجهة نظر فرويد والنفسانية الجنسية ضلال هائل وجهل جذري بالأحيائيات وإدارة خاطئة لطبيعةٍ منحطةٍ معصوبة . لأنه سيكون من السهل على كل تابعٍ للنفسانية الجنسية أن يُثبت بأن كل ما هو رفيع وبطولي في التصورات التي خلقها

نيتشه لنفسه عن العالم والحياة ليس شيئاً آخر سوى نتيجة لكبت «الغريزة» واستجهالها وأقصد بها تلك الغريزة التي يعتبرها علم النفس ذاك بأنها أساسية .

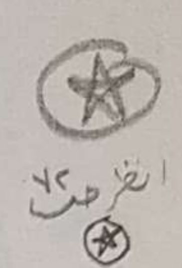
تبين حالة نيتشه من جهة ما هي نتائج أحادية الاتجاه العصابية وما هي الأخطار التي تنطوي عليها كل محاولةٍ للقفز فوق المسيحية من جهةٍ أخرى . لقد استشعر نيتشه بلا شك في أعمق أعماقه الإنكار الذي تفرضه المسيحية للطبيعة الحيوانية في الإنسان وراح يبحث عن كلية إنسانية جديدة قائمةٍ على صعيدٍ أرفع فيما وراء الخير والشر . فإن أياً كان يُخضع الموقف الأساسي للمسيحية إلى نقدٍ جدي يتجرد بالفعل عينه من الحماية الدهرية التي كانت هذه الأخيرة توفرها له . إنه يستسلم لا محالة إلى النفس الحيوانية في الإنسان . إنها حينئذٍ لحظة السكر الديونيسية والكشف المقلق عن «الحيوان الأشقر» الذي يستولي على الساذج الجاهل بالمغامرة التي انخرط فيها والذي يملؤه بدوارٍ غير معروف . فحالة الاستحواذ المرتعشة التي يجد نفسه فيها تجعل منه بطلاً أو نوعاً من نصف إله يحركه شعور بالعظمة الفائقة الإنسانية . إنه يشعر بنفسه على نحو دقيق جداً بأنه «أبعد ما يكون عن الخير والشر» .

هذه الحالة ليست مجهولةً بالنسبة إلى المراقب النفسانيفالأمريتعلق هنا «بالتواحد مع الظل» تواحدٍ يحدث بانتظام كبير في لحظات تصادم الواعية والخافية . والمساعدة الوحيدة الممكنة في حالة كهذه لا يمكن أن تنجم إلا عن نقدٍ ذاتي متبصر : فأولاً وقبل كل شيء يستحيل البرهان استحالةً كليةً بأننا إزاء اكتشاف لحقيقةٍ ثورية ذلك أن حَدَثاً كهذا هو بالغ الندرة في تاريخ البشرية . ويجب ثانياً البحث بعنايةٍ عما إذا كانت وقائع مضاهئة قد سبق لها أن حدثت . فنيتشه مثلاً بما هو فقيهٌ لغويٌ قد كان بإمكانه أن يقيم تقريباتٍ بين ما كان هو مسرحاً له وبين أوصافٍ واضحةٍ جداً لحالات مضاهئة تُنوقلت إلينا منذ العصور القديمة ولعلّ هذا التقريب كان سيريحه حتماً . وعلينا ثالثاً أن نتذكر بأن حدثاً ديونيسياً معيوشاً لا يملك أن يكون شيئاً آخر سوى العودة إلى شكلٍ وثنيٍّ من التدين الأمر الذي لا يشكل في شيء اكتشافاً جديداً بل يعيد التاريخ إلى بدايته . ولا يمكننا رابعاً الامتناع عن التنبؤ بأن حثَّ الخِلْط البشوش في البداية الذي سيتم استثارته تدريجياً حتى يبلغ ارتفاعات يشعر المرء فيها على قَدَمِ المساواة مع البطولي والإلهي سوف يستتبع على نحوٍ أكيد مطلق تدهوراً بالضخامة عينها . فمن

لا يرى في هذه الملاحظات حرفاً ميتاً قد يكون في وضعٍ مفيدٍ يقلّص كل هذا الاحتداد إلى مستوى صعودٍ ألبيٍّ[1] مُتعبٍ بعض الشيء يتبعه لا محالة نزول الهوينى اليومي . فكما أن الجدول يسعى إلى الوادي والنهر الشاسع ينساب نحو أماكن أكثر انبساطاً كذلك الحياة لا تنساب في اليومي وحسب بل تجعل كل شيء يومياً . فإذا كان لا يجوز أن يتحول غير المألوف إلى كارثة فهو لا يستطيع إلا أن ينزلق إلى جانب اليومي وأيضاً بشرط أن لا يكون ذلك متفاقماً في تواتره . فإذا ما أصبحت البطولة مزمنةً فإنها تتحول إلى تيبسٍ وتشنجٍ ثم يقود التيبس[2] إلى الكارثة أو إلى العصاب أو إلى الاثنين معاً . لقد بقي نيتشه مشربكاً في فائق توتره النفساني . فإذا كان هدفه أن يستمر في نشوته فقد كان بإمكانه أيضاً أن يثابر على مسيحيته . من هنا فإنه لم يطور في شيء مسألة النفس الحيوانية في الإنسان : فقد يصبح الحيوان المنتشي وحشاً . إن الحيوان يلبي قانون الحياة لا أكثر ولا أقل بل يمكن أن نقول عنه بأنه طائع وتقي أما المنتشي فهو بالعكس يتجاوز شريعة الحياة ويتصرف من وجهة نظر الطبيعة تصرفاً فوضوياً . الفوضى في السلوك هي امتياز مقتصر على الإنسان الذي يستطيع وعيه وإرادته الحرة أن يتحررا عند الاقتضاء ضد الطبيعة من جذورهما في الطبيعة الحيوانية . هذه الخاصة هي القاعدة الحتمية لكل ثقافة ولكنها في الوقت عينه منذ أن يُبالَغ فيها أساس مرض النفس . إن المرء لا يتحمل دون ضررٍ سوى درجة معينة من الثقافة فالقياس الأقرن (المأزق) الذي لا ينتهي بين الطبيعة والثقافة هو دائماً في الحقيقة مسألة إفراطٍ أو تفريطٍ وليس البتة تناوباً بين هذا أو ذاك .

تجبرنا حالة نيتشه على طرح المسألةالتالية : كيف يجب أن نفهم الشيء الذي انكشف له عندما تجابه مع ظله وأقصد به إرادة الاقتدار ؟ فهل يتعلق الأمر هناك بشيء ما غير ملائم ويجب أن نرى فيه عَرَضاً لكبتٍ ما ؟ هل إرادة القوة عامل اصلي أم أنها عارض طارىء ثانوي ؟ لو كان الصراع مع الظل قد أطلق عند نيتشه موجة من التخلقات الجنسية فقد يجب على حالته أن تكون غير ذلك غير أنها لم تكن من ذلك في شيء . لم يكن الحب العشقي هو القابع وراء الأكمة بل قوة الأنا.ولعله يجب الاستنتاج من ذلك بأن العامل المكبوت لم يكن الحب العشقي بل هو إرادة

١ ـ ألبي : نسبة إلى جبال الألب (م) .
٢ ـ بسبب فقدان مرونة التكيف (رك) .



الاقتدار حقاً . لا شيء في رأيي يسمح لنا بافتراض أن الحب العشقي هو الأصلي وأن إرادة القوة ليست البتة . فمن الأكيد أن إرادة القوة قائمة في قلب الإنسان شيطاناً عظيماً أيضاً كالحب العشقي وقديماً وأصلياً كهذا الأخير[1] .

ليس من اللائق جداً أن نعلن بأن حياة معيوشة كحياة نيتشه حتى نهايتها المأساوية مع تلاحقٍ نادرٍ في الأفكار بما يتطابق مع إرادة القوة التي كانت تحركها ما كانت في الحقيقة لتكون إلا سوء فهم . فإذا بحثنا عن ملجأ في هذا المناص فإننا نرتكب الظلم عينه الذي ارتكبه نيتشه عندما حكم على نقيضه واغنر Wagner بقوله : «ليس فيه ثمة شيء صادق فالشيء الصادق يستره أو يموهه إنه ممثل هزلي في المعنيين الصالح والسيء للكلمة !» فمن أين كان يصدر عند نيتشه مثل هذا الرأي المسبق ؟ ذلك أن واغنر ممثل نمطيٌ للغريزة الأساسية الأخرى تلك التي كان نيتشه يهملها والتي قامت عليها نفسانية فرويد . فإذا ما سعينا إلى معرفة ما إذا كانت الغريزة الأساسية الأخرى إرادة القوة معروفةً من فرويد فإننا نتحقق بأن هذا الأخير قد ضبطها تحت اسم «غريزة الأنا» . بيدَ أن «غرائز الأنا» هذه لا تتمتع في نفسانيته بسوى حياةٍ ضئيلةٍ إلى جانب التفتح العريض للعوامل الجنسية بل التفتح إلى حدِّ البحبوحة . إن الطبيعة الإنسانية في الواقع ضحية صراع قاسٍ وغير متحددٍ تقريباً بين مبدأ الأنا ومبدأ الغريزة ؛ بين الأنا التي هي بنيان وتحديد والغريزة البدائية الشكل وبلا حدود ، ذلك أن هذين الركنين هما من جهةٍ أخرى في مستوى واحدٍ من القوة . ويستطيع الإنسان بمعنىً ما أن يسعد بكونه غير واعٍ إلا لواحدة من هاتين الغريزتين ؛ ولذلك فمن الحكمة الاحتراز من تعلُّم معرفة الأخرى . أما إن صدف أن حصل ذلك فمعروف من الآن ما ستكون النتيجة : سوف يتعرض المرء للصراع الذي تعرض له فاوست Faust .لقد بين لنا غوته Goethe في الجزء الأول من كتابه فاوست ماذا يعني قبول الغريزة وفي الجزء الثاني ماذا يعني قبول الأنا وأركانها المقلقة الخافية . فكل ما هو فينا تافه وصغير وجبان يتراجع ويختلس نفسه لدى أقل حدس لهذا العالم المقلق ولذلك فهو يجد مواربةً رائعةً : يكتشف بأن كل ما يستشعره في نفسه وكأنه غريب عن نفسه هو على أية حال واقع فرد «آخر» غير نفسه ، واقع فردٍ بلحمه وعظمه يفكر بالتحديد

١ ـ ألم يكن عصيان آدم وحواء متمثلاً في رغبتها بأن يصبحا كالآلهة ؟ (م).

ويفعل ويستشعر ويسمي كما يتمنى كل الأشياء التي تبدو له مؤسفةً ومحتقرة . وعلى هذا النحو فقد اكتشف المرء رأساً عنيداً يلذُ له الدخول في صراع معه . على هذه الخلفية النفسانية إنما تتكون وتنمو هذه المزاجيات المزمنة التي حفظ لنا تاريخ الأخلاق أمثلة عنها . ومثل نيتشه ضد واغنر هو كما رأينا مثل شفاف على نحوٍ خاص وكذلك حال نيتشه إزاء القديس بولس الخ . لا يقتصر نجوع هذه الظاهرة على المجال الأدبي فإن الحياة اليومية حافلة بحالاتٍ مضاهئة . فبهذه الوسيلة البارعة يحذر الفرد لنفسه من الكارثة الفاوستية التي تعوزه من أجلها بلا شك الشجاعة والقوة . بيد أن الفرد الذي هو رجل بكل معنى الكلمة سوف يتأكد بأن عدوه اللدود بل وأن تحالفاً من أعدائه لا يمكن مقارنة إساءته بإساءة عدوه الأشد عناداً وأعني به عدوه الداخلي ذاك «الآخر الذي يحمله في قلبه» . لقد كان نيتشه يحمل واغنر «في داخله» لذلك فإنه حسده على بارسيفالParsifal بل ثمة ما هو أسوء فقد كان بما هو شاوول يحمل أيضاً بولس في داخله . لذلك فإن نيتشه أصبح ممهوراً بختم الروح ووجب عليه أن يتقبل التنصرَ تماماً مثل شاوول عندما أوحى له «الآخر» «هو ذا الرجل» فمن هو الذي «انهار أمام الصليب» واغنر أم نيتشه ؟

لقد شاء القدر أن يكون بالتحديد أحد أوائل تلامذة فرويد وهو الفرد أدلر الذي يتبنى تصوراً عن العُصاب قائماً حتماً وجوهرياً على مبدأ القوة . إنها لفائدة عميقة ومعزية أن يلاحظ المرء مبلغ ما تتجلى الوقائع نفسها في نهار آخر مختلف عندما تفحص بفضل إضاءةٍ متعاكسةٍ للمذهبين المتضادين . فلنقل حالاً في إشارةٍ منذ البداية إلى التباين الرئيسي بأن الموقف الأساسي عند فرويد قائم على استنتاجات سببية صارمة[1] انطلاقاً من سوابقها بينما بالعكس ينطلق الموقف في جوهره عند أدلر من تصور ترتيبٍ مرتبطٍ بهدفٍ يجب بلوغه وبنهايةٍ مسبقة التصور على نحوٍ خافي . فلنأخذ على ذلك مثالاً بسيطاً : ثمة امرأة بدأت تتعرض إلى أهوالٍ ليلية فكانت في الليل تستيقظ فجأةً تماماً في منتصف كابوسٍ مطلقةً صرخاتٍ مدوّية ويصبح من أشدّ الصعوبة إعادتها إلى هدوئها فإذا بها تتعلق بزوجها متوسلة إليه بألا يتركها البتة وطالبة إليه بأن يكرر على مسمعها بإلحاحٍ أنه يحبها وأنه يحبها صراحةً . . الخ . وشيئاً فشيئاً

١ ـ أنظر نقداً حديثاً لهذه السببية الصارمة والآلية في مجلة «Psychologie» الفرنسية رقم ١٤٩٠/١٩٨٢ بقلم Fritjof Capra أستاذ الفيزياء في جامعة بركلي ـ كاليفورنيا (م) .

تترافق هذه الحالة بربوٍ عصبيٍّ يمكن لنوباته أن تفاجئها أيضاً في النهار .

ما تفعله الاتباعية الفرويدية ذات الانقياد الصارم في حالةٍ من هذا النوع هو أنها تغرق حالاً في البحث عن السببية الداخلية لهذه الأعراض فتفتش عن محتويات الكوابيس الأولى . كانت المريضة تجد نفسها خلال هذه الكوابيس محاصرةً بثيرانٍ متوحشةٍ وأسودٍ ونمورٍ ورجالٍ ذوي مظهرٍ سيء فيتساءل المحلِّلُ المعالج ما هي التداعيات التي انطلقت في عقل هذه المريضة بفعل هذه الصور وهذه الطوارىء . وتروي المريضة بهذا الصدد قصةً جرت معها عندما كانت بعد عازبةً :

كانت ذات يوم في محطةٍ اصطيافيةٍ في الجبل . كان المصطافون هناك يلعبون بتواترٍ لعبة كرة المضرب وقد أقامت هي المعارف المالوفة وكان بين هؤلاء المعارف شابٌّ إيطاليٌّ كان متميزاً بلعبه وخلال السهرات كان أيضاً ملمّاً بالعزف على الغيتار . تبع ذلك غزل بريء أتاح المجال ذات مساء لنزهةٍ في ضوء القمر . ففي هذه المناسبة انفجر المزاج الإيطاليُّ «بغتةً» على نحوٍ أرْعَبَ الفتاة التي كانت البراءة بعينها. «لقد سدَّدَ إليها نظرة» بحيث لم تستطع البتة نسيانها . هذه النظرة كانت ما تزال تراودها في أحلامها وحتى الحيوانات المتوحشة التي كانت تلاحقها كانت تنظر إليها على النحو عينه . فهل هذه النظرة لم تكن متأتّيةً حقاً إلا من الشاب الإيطالي ؟ يخبرنا تذكُّرٌ آخر للمريضة بهذا الخصوص بأنها كانت قد فقدت أباها إثر حادثٍ يوم كانت في سن الرابعة عشرة تقريباً . كان والدها رجل مجتمعٍ وكثير الأسفار . وقبل زمنٍ قليلٍ من موته كان قد اصطحبها إلى باريس حيث أمضيا بين أشياء أخرى سهرةً في . . . جرى هناك مشهدٌ ترك في نفس الفتاة انطباعاً هائلاً لا يمحى : فلدى خروجهما من المسرح تقدَّمت امرأة مخضَّبة تخضيباً عنيفاً فجاةً من أبيها بأكثر ما تكون الوقاحة . نظرت إليها البنيةُ المذعورة متسائلةً عمّا ستفعل وحينذاك تحديداً فوجئت لأول مرةٍ بهذه النظرة وما فيها من وميض حيوانيٍّ . ومنذ ذلك الحين كانت هذه الشعلة غير المفسرة تلاحقها ليلاً ونهاراً وبدءاً منها أخذت صلاتها بأبيها تتبدَّلُ . فكانت تارةً تغضب وتنتابها نزواتٌ سامة أو كانت تحبُّه إلى حدِّ الجنون تارةً أخرى ؛ ثم كان يتبع ذلك نوباتٌ من الدموع المفاجئة التي لا مسوِّغَ لها وإلى فترةٍ من الزمن كانت تنتابها كل مرةٍ يكون فيها والدها في البيت تشنجات بلعومية تجعلها تزدرد الطعام بالمقلوب مترافقةً في الظاهر مع نوبات

اختناقية . وكانت هذه النوبات تترافق عموماً باختفاء صوتٍ يدوم يوماً أو يومين . عندما فاجأها خبر موت أبيها استولى عليها ألم مرهق نجم عنه نوبات هيستيرية من الضحك الجنوني . بيدّ أنه لم يطل الأمر حتى استعادت هدوءها وتحسنت حالتها تحسناً سريعاً وتلاشت الأعراض العصبية فعلاً . بعد ذلك وقع على الماضي ستار من النسيان إلى أن كانت المغامرة مع الشاب الإيطالي التي أصابت شيئاً ما في نفسها فحرك فيها الخوف . فعندما جرى ذلك الحادث تخلّصت من الشاب بحركةٍ فجائية . ثم تزوجت بعد ذلك بسنوات . أما العصاب الذي جاءت تستشيرنا من أجله فلم يبدأ عندها إلا بعد ولادة طفلها الثاني وبالتحديد في تلك ا للحظة التي اكتشفت فيها بأن زوجها كان يحمل فيَ نفسه اهتماماً حنوناً بامرأةٍ أخرى .

ثمّة أشياء كثيرة في هذه القصة بحاجة إلى التوضيح فما هو دور الأم مثلاً ؟ لقد علمنا فيما يتعلق بأمها بأنها كانت عصبية جداً وأنها جربت كل المصحات وكل العلاجات الممكنة والمتخيلة . لقد كانت هي الأخرى مصابةً بربوٍ عصبي وبحصورٍ مع موكبٍ من الأعراض المرافقة . وبقدر ما كانت تستطيع المريضة أن تتذكر فإن العلاقات بين والديها كانت متباعدة جداً . لم تكن والدتها تفهم فهماً جيداً طبع والدها في حين أن المريضة كانت تشعر دائماً بأنها تفهم أبيها فهماً أفضل بكثير . زد على ذلك أنها كانت محظية أبيها المعلنة وعلى نحوٍ مقابل كانت مشاعرها باردةً إزاء أمّها .

يبدو أن هذه الإشارات كافية من أجل نظرةٍ مجملةٍ على مسار المرض في مراحله المختلفة . ثمة أخيلة تقبع خلف الأعراض الراهنة وتتعلق أولاً بمغامرتها مع الشاب الإيطالي لكنها تعود فيما بعد فتحيل إحالةً واضحةً إلى والد المريضة . لقد كان الزواج التعيس لهذا الأخير قد دفع البنية في وقتٍ مبكر إلى احتلال مكانٍ كان يجب في الواقع أن تملأه أمها . لقد كان ثمة فيما وراء هذا الوضع هذا التخيل بأنها ، أي الفتاة ، كانت ستغدو في الحقيقة المرأة الملائمة لأبيها . والنوبة العصابية الأولى كانت قد اجتاحتها في اللحظة التي تلقى فيها هذا التصور صدمةً قاسيةً مماثلةً بلا شك لتلك الصدمة التي استشعرتها الأم (غير أن الفتاة لم تكن على علمٍ بذلك) . فَتُفْهَمُ الأعراض المبنية حينئذٍ فهماً ميسراً على أنها تعبير عن حبٍّ فاشلٍ ومهان . وتستند

ظاهرة البلع المقلوب على إحساسٍ بانقباض الحَلْقِ يرافق على نحوٍ شائعٍ الوجدانات العنيفة التي لا يستطيع المرء «ابتلاعها» ابتلاعاً كاملاً (تقوم الاستعارات اللغوية غالباً كما نعلم على تجلياتٍ طبائعية من هذا النوع) . عندما توفي والدها استشعر الكيان الواعي للفتاة حزناً شديداً عليه بيد أن ظلها الخافي أخذ يضحك تماماً كضحكة إيلنسبيغل Eulenspiegel الذي كان يكتئب مع انحدار الطريق ثم يروق مزاجه عند الصعود مستبقاً كلَّ مرةٍ ما كان سوف يلي . عندما يكون والدها في البيت تكون حزينة ومريضة وعندما يغيب كانت تشعر دائماً بنفسها شعوراً أفضل . لقد كانت تشبه على هذا النحو العديد من الأزواج والزوجات الذين يخبئون أيضاً على نحوٍ متبادل السرَّ المبطّن بأنَّهم غير لازمين الواحد للآخر لزوماً مطلقاً وفي كلِّ الظروف .

ماذا كانت تعني هذه الضحكة المجنونة في هذه اللحظة المأساوية ؟ لقد بينت الحقبة اللاحقة بأن خافية المريضة كانت بصورة ما على حقٍ في ضحكتها لأنها كانت تتمتع في ذلك الحين بصحةٍ تامة . ثم نجحت في أعماقها بجعل النسيان يغطي الماضي بأكمله ، وحده الحادث الطارىء مع الشاب الإيطالي هدد بإعادة عالم الظلمات إلى النور . بيد أنها بحركةٍ سريعةٍ دفعت الخطر عنها وأغلقت الهويس الذي كان يهدد بالانفتاح وبقيت في صحتها الجيدة إلى أن زحف ثعبان العصاب إليها حين كانت تظن نفسها في مأمنٍ منه تماماً ، في الجانب الآخر من المتراس في ميدان الصحة ، في تلك الحالة تقريباً من الكمال المتمم التي هي بالنسبة إلى المرأة حالة الزوجة والأم .

تزعم النفسانية الجنسية إزاء وقائع كهذه بأن الباعث على العصاب يعود إلى أن المريضة في التحليل الأخير لم تكن بعد تخلصت من الروابط الوجدانية التي كانت تشدها إلى ابيها لذلك فإن الذكرى المقلقة التي احتفظت بها من لقاء الفولي برجير Folies-Bergères عادت فتحركت عندما عاشت مجدداً بجانب الشاب الإيطالي ذلك القلق المنسي الذي سبق أن ترك في نفسها انطباعاً شديداً لصحبة أبيها . لقد جرى دعم هذه الفكرة بالطبع من خلال الفكرة المضاهئة التي عاشتها مع الشاب والتي أصبحت السبب المقلق في العصاب . لذلك بوسعنا القول بأن مضمون عصابها والباعث عليه قد تشكل من خلال الصراع في المريضة بين علاقةٍ وهمية طفولية وعشقية مع الأب من جهة وبين الحب الذي تكنه لزوجها من جهةٍ أخرى .

بيد أننا إذا استعدنا دراسة هذه الحالة من وجهة نظر «الغريزة الأخرى» أي من وجهة نظر إرادة القوة فإننا نبلغ إلى نتائج جدُّ مختلفة : لقد كانت حياة والديها التافهة بالنسبة إلى غريزة السيطرة الطفولية لدى مريضتنا مناسَبةً لنموها لا تضاهى. فالشيء الذي تنزع الغريزة إليه هو أن تصل الأنا دائماً وفي كل مكان في «المقدمة» عبر الطريق المستقيم أو عبر الدروب الوعرة . إن تكامل الشخصية يشكّل المبدأ الأعلى ويجب أن يكون وفي كلّ الأحوال ومهما كان السبب مصاناً بأيّ ثمن. فكلّ محاولةٍ يقوم بها المحيط بل ما هو شبيه بالمحاولة مهما يكن بسيطاً من أجل إخضاع الفرد يؤدي ذلك إلى «احتجاجٍ رجوليٍّ» بحسب تعبير أدلر . لذلك فإن إحباط الأم ونكوصها إلى العصاب قد خلق مناسبةً مرجوةً بحرارة لتوسيع غريزة السيادة والتفوق . الحبُّ والاكتمال في السلوك هو كما نعلم من وجهة نظر غريزة القوة وسائل مفضلة لكي يبلغ المرء إلى أهدافه . الفضيلة تؤدي غالباً جداً إلى قسر موافقة الآخرين . لقد كانت مريضتنا وهي بعد طفلةٌ تعلم من خلال لطفها ومحاباتها كيف تضمن لدى أبيها مزايا أكيدة أتاحت لها في البداية الانتصار على أمها . وليس هذا حباً بالأب ولكن بفضل الحب الذي كان وسيلة جيدة لتأمين السيادة . ولقد أثبت ذلك نوبة الضحك الجنوني عند موت الأب إثباتاً صارخاً . ثمة ما يدفع المرء إلى اعتبار تفسير من هذا النوع بمثابة بخسٍ مشين للحب بل حتى بمثابة تعريضٍ سيء . ولكن فليمنح الإنسان نفسه شيئاً من التفكير ولينظر إلى الحياة كما هي . فماذا نقول عن أولئك الأفراد الذين لا يحصى عددهم الذين يحبون ويؤمنون بحبهم . . . وذلك إلى أن يبلغوا إلى هدفهم والذي ما أن يبلغوا إليه حتى ينقلبوا كما لو كانوا لم يحبوا البتة ؟ ثم أليست الطبيعة نفسها تفعل الفعل عينه ؟ هل من الممكن أن يوجد حبٌ «متجرد» ؟ إذا كان الأمر بالإيجاب فإنما هو من مستوى أرفع الفضائل التي نتفق على الإقرار بأنها نادرة جداً . وربما كان أيضاً لدى المرء على العموم نزوعٌ إلى التفكير بأقل ما يمكن بأهداف الحب . فقد يتعرض المرء إذا ما فكر بالأمر إلى اكتشافاتٍ قد تُظهر قيمة حبنا في ضوء نهارٍ أقل ملاءمةً مما يلذّ لنا اعتقاده .

إذاً ثمة نوبة من الضحك الجنوني انتابت المريضة لدى موت أبيها فإنها قد أصبحت نهائياً سيدة الوضع التي لا تنازع . كان الأمر يتعلق بنوبةٍ من الضحك الجنوني الهيستري أي بعَرَضٍ نفسي المنشأ ، اضطراب خلقته بواعث خافية لا بواعث

الأنا الواعية . ذلك يشكل اختلافاً رئيساً يبين في الوقت عينه أين وكيف تُولَدُ بعض الفضائل الإنسانية . ذلك أن أضدادها لاجئةٌ في الجحيم وبلغة حديثة في الخافية حيث كانت تتكون منذ زمنٍ طويل معادلات فضائلنا الواعية . إذاً فإن البعض انطلاقاً من علياء فضائلهم يرفضون سماع الكلام عن الخافية وإنها لذروة الفضيلة الفريسية أن يزعم المرء عدم وجود الخافية . ولكن يا للأسف ! نحن كلنا منضوون تحت اليافطة عينها تلك التي انضوى تحتها الأخ ميدار Médard في **إكسير الشيطان** Elixir du Diable de E.T.D لهوفمان حيث يوجد لكلٍّ منا في مكانٍ ما شقيق شؤم مرعب هو معادلنا الحقيقي الحيُّ المرتبط بنا بروابط الدم والذي يحوي ويختزن اختزاناً خبيثاً كلَّ ما نرغب إخفاءه بحرصٍ تحت الطاولة[1] .

لقد انفجر العُصاب لأولِّ مرةٍ لدى مريضتنا في اللحظة التي أدركت فيها بأنه كان لدى أبيها شيء ما لم تكن تسود عليه . وبغتةً في إشراقٍ مفاجىء أضاء عقلها فهمت الفائدة الجزيلة التي كان يمكن أن تجنيها من عصاب أمها : فعندما يعترض المرءَ حاجز ما لا يستطيع تجاوزه بأي وسيلةٍ أخرى وعندما تخفق حجج العقل ومفاتن الإغراء يبقى هناك وسيلة أخرى كانت تجهلها حتى ذلك الحين وهي العصاب الذي سبق لأمها أن اكتشفته قبلها . وعلى هذا النحو أدى بها الأمر إلى اقتفاء عُصاب أمِّها .

غير أن القارىء سيتساءل مشكّكاً : ماذا يمكن للمرءِ إذاً أن يجني من العصاب وما هو النجوع المرتجى منه ؟ إن أياً كان لديه في محيطه المباشر حالة مرضية للعصاب ليدرك كلَّ ما يمكن «اكتسابه» بواسطته . ليس ثمة بالتأكيد ما هو أكثر ملائمةً لترويع بيتٍ بكامله من العصاب . فهناك على نحوٍ خاص الانزعاجات القلبية ونوبات الاختناق والتشنجات من كل نوع تؤدي نتائج هائلة لا يمكن تجاوزها إلا بصعوبة . هذه الحالات تطلق أمواجاً من الأشفاق وضبطاً رفيعاً لدى الأهل لا يعادل حَصرَها سوى العاطفة وجمهرة مضطربة من الملاك المنزلي ومكالمات هاتفية وأطباء مستنفرين وتشخيصاتٍ مضنية وأبحاثٍ وفحوصٍ معمّقة وعلاجاتٍ طويلة الأمد ونفقاتٍ هامة

١ ـ أنظر «علم النفس الجديد وطرقه المدهشة» لبير داكو . ترجمتنا في دار الغربال . دمشق ١٩٩٠ ص ٢٨٠-٢٨١ .

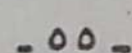
وثمة وسط كل هذه الكركبة مريضٌ بريءٌ يقبع متألماً ألمه المجحف الذي يفيض الكلُّ إزاءه من جهةٍ أخرى بعرفان الجميل حينما يتمكن من تجاوز «تشنجاته» .

اكتشفت مريضتنا الصغيرة هذا «الترتيب» الذي لا يضاهى تبعاً لعبارة أدلر) - على نحوٍ خافي - فكانت تستخدمه استخداماً ماهراً كل مرةٍ يوجد فيها والدها في ا لمنزل . غير أن هذا الأمر أصبح نافلاً منذ اللحظة التي تُوفي فيها الوالد . فقد أصبحت منذ ذلك الحين مستقرة نهائياً في استعلائها وعندما التقت بذلك الشاب الإيطالي صرفت النظر عنه بسرعة عندما جازف بالإشارة إلى أنوثتها على نحوٍ مُبالغٍ فيه وذلك من خلال التذكير المناسب بذكورته هو . وعندما انبثق إمكان زواجها الملائم إذا بها تحبُّ هانئةً في قدرها كإمرأةٍ وأم . فما دامت السيادة التي كانت تثير إعجابها بنفسها مستمرةً فأن كل شيء قد سار على ما يُرام . ولكن عندما شعر زوجها ذات يوم بانجذابٍ طفيفٍ خارج الإطار الزوجي عمدت مجدداً كما في أيام صِباها إلى استخدام «الترتيب» ذي النجوع المحتَّم وأعني به استخدام القوة استخداماً غير مباشر ذلك أنها قد لاحظت مجدداً - وهذه المرَّة في زوجها -ذلك العنصرَ المتمرِّد الذي كان عند أبيها قد أفلت من سيطرتها .

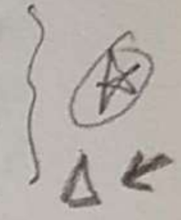
تلكم هي وجهةُ نظرِ نفسانية القوة في الأمور . وإني لأخشى بأن يكون القارىء أشبه بعض الشيء بذاك القاضي الذي بعد أن قدَّم له محامي أحد الطرفين مرافعته بادره القاضي بالقول : «حسناً تكلَّمت وأرى أنَّك على حق» وعندما قدَّم محامي الخصم مرافعته أجابه القاضي أيضاً مُدغدغاً أذنه وقائلاً : «حسناً تكلمت وأرى أنَّك أيضاً على حق» .

ممّا لا شك فيه أن غريزة القوة تلعب دوراً غير عادي البتة وصحيح أيضاً أن الأعراضيات العصابية في تعددية أشكالها المركبة تشكل ترتيباتٍ مرفَّهةٍ تتابع هدفها متابعةً لا هوادة فيها وبتصميم لا يُصدَّق وحيلٍ لا مثيل لها . إن للعصاب وجهته وقصديته . وإن أدلر بما قدمه قد اكتسب تقديراً عظيما .

أيُّ إذاً من وجهتي النظر هاتين هي الصحيحة ؟ إنَّ بوسع هذه المسألة أن تكون منطح رأسٍ ممتع . ذلك أن التفسيرين غير متراتبين بل هما يتناقضان نقطةً فنقطة .



ففي ما يتعلق بوجهة النظر الأولى هناك الحب العشقي وقدره اللذان يشكلان القضاء الأعلى الحاسم أما بالنسبة إلى وجهة النظر الثانية فهناك إرادة القوة لدى الأنا . في الحالة الأولى تضاف الأنا إضافةً بسيطةً كضربٍ من زائدة على الحب العشقي أما في الحالة الثانية فلا يظهر الحب في كل الحالات التي نعتني بقشطها عن كثب إلا كوسيلة للبلوغ إلى السيادة . إن أياً كان يهتم باقتدار الأنا يتمردُ ضد التصور الأول وإن أياً كان يعلق أهميةً على الحب العشقي فلن يستطيع البتة التصالح مع الثاني [1]



(١) ـنشير هنا إلى كلمات ثلاث وردت في هذا الفصل ونذكر القارىء بأنها مترادفات وهي غريزة الحب = الحب العشقي = الإيروس (م) .

أنظر كتابنا المترجم لبيير داكو من السجون إلى الحرية؛ الطريق الى الإيروس ، ص٢١١ وما يتبع ، دار الغربال ـ دمشق ـ ١٩٩٢

# ٤

# مسألة أنماط الموقف

## أ ـ ١

لقد ألزمتنا استحالة التوفيق بين النظريتين المدروسة في الفصول السابقة على القفز فوق المعمعة بحثاً عن وجهة نظرٍ تتيح اشتمالهما في تصوّرٍ موحّد . لا شيء في الواقع يسمح لنا بنبذ إحداهما لصالح الأخرى مهما كانت ميسَّرةً تلك الذريعة . فإذا ما تفحص المرءُ هاتين النظريتين بلا أحكامٍ مسبقة فلا يمكنه أن ينفي بأنهما تنطويان كلتاهما على حقائق هامة لا يجوز مع ذلك أنْ تتنافى أو أن تتعادم على نحوٍ ما مهما بلغ التناقض فيما بينها . إن نظرية فرويد هي من البساطة المفتنة بحيث يكاد يكون مؤلماً رؤية أحدهم يَنْفَذُ إليها من زاوية تأكيدٍ معاكسٍ . وعلينا أيضاً أن نقول القول نفسه في نظرية أدلر فإنها واضحةٌ هي الأخرى وبسيطةٌ إلى حدّ البداهة وتجلب لنا إضاءاتٍ بقدر ما جلبت الأولى . فليس ثمة عجبٌ إذاً من رؤية أتباع المدرستين يتمسكون تمسكاً عنيداً ومتعنتاً أحياناً بنظريتيهم المتبادلتين الدقيقتين ولكن المفرطتين في الإطلاق . وهم لا يريدون لدوافع بشرية جداً يسهل فهمها التخلي عن نظرية جميلةٍ لا عيب فيها ومبادلتها بغرائب أو ما هو أسوأ وأيضاً المجازفة بالضياع في خضم وجهات نظرٍ متناقضة .

إذاً حيث إن هاتين النظريتين دقيقتان إلى حدٍّ بعيدٍ أيْ بمقدار ما تفسران تفسيراً ظاهرياً على نحوٍ ملائم الظواهر التي تنطبقان عليها ينجم عن ذلك أن العصاب في الظاهر يجب أن يتمتع بمظهرين متناقضين يؤطر أحدهما مع نظرية فرويد والآخر مع نظرية أدلر . فكيف جرى أن أحد هذين العالمين لم يبصر من العصاب سوى مظهرٍ

واحدٍ وأن الثاني لم يبصر سوى المظهر الآخر ؟ ولماذا كان كلّ منهما متيقناً بأنه يملك الرأي الوحيد الملائم ؟ ذلك يعود بلا شك إلى أن كلاً من الباحثين قد أبصر إبصاراً أفضل في العصاب تبعاً لانتظامه النفساني الخاص ما كان يتلاءم تلاؤماً متميزاً مع بُناه الشخصية . ليس ثمة مجال للافتراض بأن أدلر قد صادف حالات عصابية مختلفة كل الاختلاف عن تلك التي كان على فرويد أن يعالجها . لقد انطلق كلاهما صراحةً من مواد سريرية مضاهئة ولكن حيث أنهما قد رأيا انطلاقاً من عبقريتهما الخاصة الأشياء من زاويتين مختلفتين فقد طوّرا تصوراتهما ونظرياتهما تطويراً جذرياً متناقضاً : فأدلر يرى ويتصور كيف أن فرداً يشعر بالقصور والصغار سيمّحي ليضمن لنفسه تفوّقاً وهمياً من خلال «احتجاجاتٍ» و«ترتيباتٍ» وحيلٍ أخرى ملائمة يستخدمها بلا تمييز كوسائل إزاء والديه ومربيه ورؤسائه والسلطات التي يستنجد بها عند مواجهته مواقف صعبة أو من أجل «التكيّف» مع مؤسسات وباختصار في مواجهة أيّ حاجزٍ كان . الجنسية هي الأخرى ممثّلة في عداد الحيل المستخدمة . فهذا التصوّر يقوم على إبرازٍ استثنائيٍّ للفردبينما يمحي الطابع الخاص للغرض وأهميته إمّحاءً تاماً . فهذا الأخير لا يدخل البتة في خط الاعتبار إلا بمثابة حاملٍ للنزعات الضاغطة الممكنة الموجهة إلى الفرد . ولا أظنني مخطئاً في افتراض أن ا لحبّ وروابطه وأن الرغبات الأخرى أيضاً المتعلقة بالأغراض تشكل هي الأخرى في نظر أدلر مقاييس جوهرية بيدَ أنّها لا تؤدي في نظريته في الأعصبة الدور الرئيسي الذي منحه إياها فرويد .

أما فرويد فهو بالعكس يرى ويتصور مرضاه في تبعيةٍ ثابتةٍ للأغراض الهامة في الحياة وفي صلاتٍ دائمةٍ بها . الأب والأم يلعبان دوراً عظيماً وكلّ ما يمكن أن يوجد من تطويعاتٍ هامةٍ في حياة المريض وكلّ ما يمكن له أن يمارس تأثيراً هاماً عليه يعود مباشرةً ، في نظر هذا المؤلّف ، بعلاقةٍ مباشرةٍ من سببٍ إلى نتيجة إلى تلك الإمكانيات الأولية . ثمة جانبٌ هامٌ من المقاومة في نظريته هو مفهوم التحويل أي تلك الصلات الخاصة التي تستقر من المريض إلى الطبيب . إنّ الفرد لينشد دائماً غرضاً ما ذا نعوتٍ محددة أو يحترز منه لنفسه وذلك كلّ مرةٍ تبعاً لتخطيط علاقاتٍ إنسانيةٍ تمّ اكتسابها في أيام الطفولة وذلك بموجب النموذج الذي كان يقدمه كلّ من الأب والأم في علاقاتهما المتبادلة وعلاقاتهما معه . فما يتحدر من الفرد هو في جوهره عطشٌ أعمى إلى اللّذة والارتواء أو مبعثر لا يتلون بأيّ صفاتٍ محددةٍ إلا تبعاً

لأغراضٍ نوعية . إنها عند فرويد تلك الأغراض التي تبدو مزودةً بالدلالات العظيمة وتحتكر لنفسها تقريباً القوة الحاسمة في حين يبقى الفرد تافهاً على نحو مثير للفضول ذلك أنه ليس في مجمله سوى منبع لنشدان اللذة ومسرح للقلق . وكما قلنا سابقاً فإن فرويد قد عرف «غرائز الأنا» بيد أن هذا الاصطلاح يشير من الآن بأن هناك عالماً بين التصور الذي يصطنعه عن الفرد وبين تلك القوة الحاسمة التي هي هذا الفرد عينه في نظر أدلر . الثابت في التأكيد هو أنَّ باحثينا يتصوران الفاعل sujet في علاقة مع الغرض غير أنهما ينظران إلى هذه العلاقة من زاويتين مختلفتين فالنبرة عند أدلر تحمل على فاعلٍ يسعى إلى ضمان أمنه وإلى السيطرة على الأغراض والأشياء أياً تكن في حين أن النبرة بالعكس عند فرويد تحمل تماماً على الأغراض التي هي بسبب من خصائصها النوعية والمحددة مشجعةً أو محبطةً للتشوقات اللذائذية عند الفرد .

لا يمكن لنا البتة أن ننسب هذا التباين إلى شيء آخر سوى إلى اختلافٍ في المزاج وإلى تضادٍ بين نمطين من الذهنية البشرية يشتق أحدهما الفاعلية العظمى أساساً من الفاعل بينما يشتق الأخر بالعكس النتائج الحاسمة من الغرض . ولعلَّ رأياً متوسطاً على نحوٍ مجمل هو رأي الحس الشائع يقرُّ بأن النشاط البشريَّ يطوِّعه الفاعل بقدر ما يطوِّعه الغرض . وقد يرد باحثانا بلا شك على هذا الاعتراض بأنَّ نظريتهما لا تهدف إلى تفسير نفسانية الإنسان السوي بل إنَّ الأمر يتعلق بنظريةٍ في الأعصبة . فإذا كانت زاوية رؤيتنا لتناقض هذين العالمين صحيحةً فقد يكون من باب الأمنية أن يكون فرويد قد عالج وفسَّر بعضاً من حالات الأعصبة لديه على طريقة أدلر وأن يكون أدلر قد اقتنع بالأخذ في اعتباره الجاد لبعضٍ من حالاته بتصورات معلمه القديم . غير أنَّ هذا الأمر لم يحصل لا في هذا الجانب ولا في ذاك .

لقد أدّى بي تبينّ هذا القياس الأقرن إلى طرح السؤال التالي : هل ثمّة على الأقل نمطان بشريان مختلفان يتمسك أحدهما بالغرض أكثر مما يتمسك بنفسه وأن الآخر يتمسك بنفسه أكثر مما يتمسك بالغرض ؟ وهل يمكن على هذا النحو تفسير أن إنسان أحد هذين النمطين لا يرى إلا شيئاً في حين أن إنسان النمط المعاكس لا يرى سوى الشيء الآخر وأنَّ الأمر يؤدي بهما بفعل هذا الواقع إلى استنتاجات متضاربة ؟ فكما كنا نقول لم يكن ثمة مجال للافتراض بأن القدر كان يختار ويفرز المرضى على نحوٍ

دقيق للغاية بحيث أن أولئك وحدهم المتعينون ضمن جماعةٍ أنماطيةٍ محددةٍ كانوا يتوجهون كل مرة إلى معالج الجماعة نفسها . أجل ، لطالما دُهِشْتُ منذ زمنٍ طويل من تبين أن ثمة حالاتٍ فيما يخصني كما فيما يخصّ أقراني يجد المرءُ نفسه معها على قدم المساواة دفعةً واحدةً بينما توجد حالات أخرى تترك لديك انطباعاً بأنها أشدُّ غرابةً بكثير . ففي ما يتعلق بالعلاج ثمة أهميةٌ حاسمةٌ في معرفة ما إذا كانت علاقة جيدة بين المريض والطبيب ممكنة أم لا . فإذا لم تَسْتَقِرَّ في فترة من الزمن قصيرةٍ نسبياً رابطةٌ معيَّنةٌ من الثقة التلقائية فقد يكون من الأفضل للمريض اختيار طبيبٍ آخر . فأنا لم أخشَ البتة ولم يعوزني توجيه مريضٍ إلى زميلٍ لي والتوصية به لأني كنت أشعر بضآلة الوشائج معه أو ذاك الذي لم يكسب مودتي وذلك لفائدة المريض أولاً . لأني متيقنٌ بأني قد لا أستطيع في حالةٍ كهذه تأدية عملٍ جيد . لكلٍّ حدوده الشخصية والمعالج النفسي خاصةً يفعل حسناً بعدم جعلها تغرب عن نظره . ثمة تباينات شخصيةٌ بالغةٌ أو بالحري تنافراتٌ تعينُ على نطاقٍ واسعٍ جداً مقاوماتٍ تُعَدُّ نافلة ومع ذلك لا نملك أن نقول بأنها دون أساس . فالمنازعة بين فرويد وأدلر ليست في الحقيقة سوى مثالٍ بسيط وحالةٍ خاصة من النزاعات التي يمكن أن تستثيرها أنماطٌ عديدةٌ من موقفٍ ممكن .

لقد شغلتني هذه المسألة زمناً طويلاً وانتهيت على قاعدةٍ من الملاحظات والتجارب المتعددة إلى فرز موقفين أساسيين أو استعدادين أساسيين هما **الانطواء والانبساط** .

**فالانطواء** يعبِّرُ عن نفسه لدى فردٍ سويٍّ بِفطْرَةٍ متحفِّظةٍ متأمِّلةٍ سريعة التردّد لا تستسلم بسهولةٍ وتتملّص بيسرٍ من (سطوة) الأغراض وتجد نفسها في موقف الدفاع إلى حدٍّ ما مؤثرةً التمترسَ خلف ملاحظةٍ مرتابةٍ لشيءٍ ما .

أمّا **الانبساط** فيعبِّرُ عن نفسه لدى فردٍ سويٍّ أيضاً بفطرةٍ ودودةٍ ومُجامِلَةٍ في الظاهر تتكيّف تكيُّفاً سهلاً مع كلِّ الأوضاع الجديدة وسرعان ما تنشىء لنفسها علاقاتٍ جديدة مندفعة غالباً نحو المجهول بثقةٍ وبلا قلق ، مُنحيَّةً بعزمٍ الاعتراضات التي يمكن أن تساورها . واضحٌ أن الفاعل عند الانطوائي هو الذي يلعب الدور الحاسم في حين أنَّ الغرض هو الذي يقوم بهذا الدور عند الانبساطي .

نعي في الواقع الميداني هذين الموقفين النمطيين اللذين سنعود إليهما فيما يلي في حالتهما الخالصة.فهما ينطويان على العديد من التنويعات والمعاوضات بحيث أنه ليس من السهل إقامة نمطٍ فردٍ ما . ما هي أسباب هذه التنويعات؟ إنها تتعلق ، بغض النظر عن التلوينات الفردية ، بسيادة واحدةٍ من الوظائف الواعية كالفكر أو العاطفة الأمر الذي يمنح في كلِّ حالةٍ نوعيةٍ طابعه الخاص للموقف الأساس . أمَّا المعاوضات المتواترة التي يتيحها هذا الأخير فهي تستند عموماً على تجارب معيوشة قد علمت الفرد وغالباً على نحوٍ مؤلمٍ ربما بأنه لا يجوز ترك العنان لفطرته العفوية . ثمة حالاتٌ متواترةٌ عند المعصوبين مثلاً حيث لا نستطيع التمييز ما إذا كان الأمر يتعلق بموقفٍ واعٍ أو بموقفٍخافي ذلك أن هذا النصف ، بسببٍ من تفكك الشخصية هو الذي يعتلن تارةً وذاك النصف تارةً أخرى جاعلاً بذلك الحكم أمراً دقيقاً . وهذا هو لباعثٍ مضاهيء ما يجعل الحياة المشتركة مع شخصيات معصوبة غايةً في الصعوبة .

وفي الواقع لقد أتاح لي وجود اختلافاتٍ نمطيةٍ عميقةٍ وصفت منها ثمانية زمرٍ في المؤلف المذكور[1] إدراك أن النظريتين المتضادتين في الأعصبة إنَّما كانتا تجلياً لتناقضاتٍ أنماطية .

باكتسابنا لهذه المعرفة أصبح من الضروري تجاوز ذلك التناقض وخلق نظريةٍ لا تعترف بحق هذا أو ذاك من النمطين وحسب بل ترضي الاثنين معاً . ولأجل تحقيق هذا الهدف ثمة دراسةٌ ناقدةٌ للنظريتين المطروحتين كانت تملي ضرورتها . فكلتاهما مؤهلتان إلى ردِّ هدف رفيع واستعدادٍ بطولي وموقفٍ مؤثرٍ وقناعةٍ عميقة ردّاً مؤلماً إلى مستوى واقعٍ تافه . . . **إذا ما ساورتنا بالطبع الرعونة في تطبيقهما عليها ؛**

١ ـ يجد القارى دراسةً مسهبةً لهذه المسألة في كتاب يونغ الأنماط النفسانية سيظهر قريباً مترجماً إلى العربية (م) .

١ ـ لا تزعم بالطبع إطلاقاً هذه الزمر الثمانية ضبط كل الأنماط التي يمكن للمرء أن يصادفها . فمن بين المعايير الأخرى في التباين نذكر : العمر والجنس والنشاط والانفعالية ومستوى النمو أما أنا فقد اعتمدت أساساً للأنماط التي وصفتها الوظائف الأربع التي تبتدىء توجه الوعي وأعني بها الإحساس والفكر والعاطفة والحدس .

وقد يكون من الواجب فضلاً عن ذلك أن يحترس المرءُ من تطبيقهما على مواد مماثلة ذلك أن كلتا النظريتين هما على وجه الدقة أداتان علاجيتان تشكلان جزءاً من الترسانة الطبية . فعلى الطبيب أن يقطم بمبضعه المشحوذ الذي لا يرحم ما هو مرضيٌّ وضارٌ مجيباً هكذا على نداء نيتشه الذي اجتهد أن يفعل الفعل عينه في نقده المدمِّر للمثاليات التي اعتبرها بمثابة تنبّتاتٍ ضارةٍ في النفس الإنسانية (وهي كذلك في المناسبة) . فإنه يمكن أن يكون للنظريتين ، إذا ما استخدمهما طبيب ماهر وعارف حقيقي بالنفس الإنسانية ولديه ـ كما يقول نيتشه «حسّ التلوينات» وطبقهما تطبيقاً صحيحاً على ما تنطوي عليه النفس من مرضيٍّ فعلاً ، وقع الكاويات الشافية. وبإمكانهما حينئذٍ أن تؤديا خدماتٍ ذات شأن إذا ما جرت، معايرتهما تبعاً لكلٍ حالةٍ خاصة في حين أنهما ستكونان ضارتين وخطيرتين لدى أيدٍ لا تعرف المعايرة ولا التقدير . إنهما تشكلان منهجين نقديين وتتمتعان بشيءٍ مشتركٍ مع كل نقدٍ هو أنهما صالحتان حيث يكون شيء ما يمكن أو حتى يجب هدمه وإذابته أو تقليصه ولكن لا يمكن أن تكونا إلا ضارتين إذا ما طبقتا عندما يتعلق الأمر بالعكس بالبناء أو بإعادة البناء .

بالوسع إذاً قبول النظريتين بلا جدال فيما لو بقيتا ، مثلهما مَثَلُ السموم الصيدلانية ، مؤتَمَنَتينْ في أيدٍ خبيرةٍ لطبيبٍ ماهرٍ . ذلك أنّه لا بدّ من معرفةٍ غير عاديةٍ بالنفس لكيما يستطيع المرء استخدام هذه الكاويات استخداماً مفيداً . يجب أن يكون قادراً على تفريق المرضي والنافل من المفيد والثمين . فهذا التمييز هو بالتأكيد واحدٌ من أصعب الأشياء . إنّ أيّاً كان يوّد الإلمام بفكرةٍ دقيقةٍ عن الأخطاء الهائلة التي يمكن أن يرتكبها بفعل أراءٍ علميةٍ مزعومةٍ دعيةٍ طبيبٌ يتدّخل بخفّةٍ في علم النفس فليس له إلا أن يقرأ مؤلّفَ موئيبيوس Moebius في نيتشه أو أيضاً الكتابات «النفسانية» المختلفة في «حالة» المسيح . فلن يتمالك المرء نفسه من الصراخ : «يا للأسف ! ثلاثاً يا للأسف !» وهو يفكّر بالمريض الذي «قد يستفيد» من مثل تلك «الجدارة» .

هاتان النظريتان في الأعصبة لا تشكلان نظرياتٍ عامة . ففي وسعنا مقارنتهما بالحري بكاوياتٍ مخصصةٍ لاستخدام «محلي» إذا جاز القول ؛ فهما إذابيتان إرجاعيتان تقولان لكلّ شيء : «أنت لستَ شيئاً أكثر من كذا . . .» . وتشرحان للمريض بأنّ



أعراضه تتحدّر من هذا المنشأ أو من ذاك وأنها ليست شيئاً سوى هذا أو ذاك.ولعلّ من الظلم الشديد الزعم بأنّ هذا الإرجاع مغلوطٌ في حالات معينة . ولكن من غير الممكن إرادة استنتاج تصوُّرٍ شاملٍ ينطبق على النفس المريضة مثلما ينطبق على النفس السوِّية من مجرَّدِ نظريةٍ إرجاعيةٍ ذلك أنّ النفس البشرية صحيحةً كانت أم مريضة لا يمكن تفسيرها تفسيراً مشروعاً بمناهج إرجاعية وحسب . إنّ غريزة الحب بالتأكيد قائمة فيها دائماً وفي كلّ مكان وغريزة القوة ـ بالتأكيد تغمر النفس في أخسّ ما لديها كما في أرفع ما لديها.غير أنّ النفس ليست مصنوعةً من هذا أو ذاك فحسب ولا حتى إذا شئتم من الاثنين معاً بل هي أيضاً ما صاغته وما سوف تصوغه انطلاقاً من هاتين الغريزتين الأساسيتين . فأنْ نعلم من أين تتحدَّر كلُّ العناصر التي تكون كائناً بشرياً لا يشكِّل سوى نصف الطريق إلى فهمه فإذا كان الأمر لا يتعلق إلا بهذا فبوسعه أيضاً أن يكون قد مات منذ زمنٍ طويلٍ . ولكننا بما هو كائنٌ حي بل عارف بكل هذا لم نفهمه بعد ، ذلك أنَّ الحياة ليست الماضي وحسب وليس تفسيراً لها إعادة اليوم إلى البارحة وتقليص الحاضر إلى ما كان . فالحياة لها الغد أيضاً واليوم لا يُفهم إلا إذا استطعنا ضمَّ الرسوم الأولى لما يمكن أن يحدث غداً إلى المفاهيم التي سلّمنا إياها الماضي . ذلك ينطبق على كل التجليات النفسانية للحياة حتى على الأعراض المرضية لأن أعراض العصاب لا تتوقف عند كونها نتائج لأسبابٍ وجدت ذات يوم سواء كانت «جنسية طفولية» أو «غريزة قوة طفولية» فهي تشكل في الوقت عينه محاولاتٍ للتوصل في الحياة إلى تركيب جديد ـ ويجب أن نضيف بقولنا ، قبل استعادة النَفَس ، محاولاتٍ مجهضة ولكنها مع ذلك محاولات تحتوي نواةً من القيمة والمعنى . إن الأمرَ عموماً يتعلق ببذور أجهضت بسبب نكبةٍ من الظروف الخارجية والداخلية على السواء .

سوف يتساءل القارىء بالتأكيد : ولكن بحق السماء ماذا يمكن إذاً أن تكون قيمة ودلالة العصاب تلك الآفة التي هي الأشد تفاهةً وتنفيراً بين الجروح التي تحملها البشرية في جنبها ؟ فماذا يفيد إذاً أن يكون المرءُ عصبياً ؟ إنه بلا شك كما يفيدنا الذباب وكل الحشرات الطفيلية الأخرى التي خلقها الله لكي يتمرس الإنسان على فضيلة الصبر النافعة . أيّاً تكن حماقة هذا التفكير من وجهة نظر العلوم الطبيعية فإنها مع ذلك تبقى ذات دلالةٍ رفيعةٍ من وجهة نظر علم النفس شرط أن نبدِّل مصطلح

الحشرة الطفيلية بمصطلح «الأعراض العصبية» . إن نيتشه نفسه الذي كان يحتقر أكثر من أي شخص آخر الأفكار الغبية والتافهة قد اعترف في مناسباتٍ متكررةٍ بكل ما كان يدين به لمرضه . وأنا قد عرفت حالاتٍ عديدة حيث كان الفرد يدين لعصابه بكلِّ النفع الذي برهن عليه وبكلِّ القيم التي كانت تسوِّغ الحياة في نظره لأن العصاب قد وضع حاجزاً في اللحظات الحاسمة للحماقات التي كان سيرتكبها وأجبره على اتباع خط سلوك يلزمه على تنمية الإمكانات الثمينة في كيانه ؛ ولقد كانت هذه البذور لتختنق لولا أن العصاب بمخالبه الفولاذية قد وضعه بالقوة في المكان الذي كان يجب أن يشغله . فكيف السبيل إلى تفسير هذه الظروف الغريبة في الظاهر؟ ذلك أنك تجد الدلالة الحقيقية لبعض الأفراد ومعنى حياتهم مُحالَين إلى الخافية في حين أنهم لا يحملون في واعيتهم سوى كلِّ ما قد يكون بالنسبة إليهم تجربةً خاطئةً وفتنةً خطرةً وشططاً . أمّا عند أفرادٍ آخرين فالعكس هو الذي يجري حيث العصاب له بالتالي عند هؤلاء دلالة أخرى جدُّ مختلفة . وإذا ما كان خلال التحليل لموقفٍ إرجاعيٍّ واسعٍ ما يبرّره بإزاء المواد الخافية لدى هؤلاء فلا يجوز أن يكون ثمة شيءٌ من هذا بإزاء فردٍ ينتمي إلى المجموعة السابقة الذكر .

ربما أصبح القارىء الآن مستعداً لقبول إمكان دلالةٍ للعصاب كهذه في بعض الحالات غير أنه سيستمر منكراً بطيبة خاطرٍ على التجليات التافهة للحالات المألوفة فائدةً من هذا المرض بهذا الحجم وبهذا التكيف . أية قيمة مثلاً يمكن أن تقدمها لنا حالة الربو والنوبات الهيسترية المذكورة أعلاه[1] ؟ إنّي أعترف بأن هذه القيمة لا تبرز للعيان خاصةً عندما نمعن النظر في الحالة من زاوية النظرية الإرجاعية أي من وجهة نظر «الظل» الذي تشكّل خلال نمو الفرد .

ثمة ما هو مشترك بين النظريتين اللتين درسناهما إلى الآن وهو أنّهما تعرّيان بلا رحمة كلَّ ما يشكّل في الإنسان جزءاً من ظله . إنهما نظريتان أو بالحري فرضيتان تفسران لنا بما يقوم العامل أو العوامل الممرضة وذروات عملها . فهما إذاً لا تعالجان قيم الفرد بل بالعكس وتحديداً لا - قيمه التي يحسُّ بها إحساساً محزناً .

**«القيمة» هي إمكان بفضله يمكن للطاقة أن تتجلى وتبلغ إلى تفتحهاولكن بقدر**

١- أنظر ص٤٩ .

ما تكون «لا قيمةً ما» إمكاناً في التجليات الطاقوية الهائلة التي ترافق العصاب ـ يمكن تمثيل هذه اللا قيمة تمثيلاً جزئياً بقيمةولكن بقيمةٍ لا تعينٌ سوى تجلياتٍ تافهةٍ وضارةٍ للطاقة . الطاقة بحدٍّ ذاتها ليست صالحة ولا طالحةً ولا مفيدةً ولا ضارةً بل هي محايدة لأن كل شيءٍ يتعلق بالشكل الذي تلبسه . الشكل يمنح الطاقة نوعيتها . ولكن بالمقابل فإن مجرّد الشكل دون طاقةٍ تنعشه محايد هو الآخر . فلكي تتشكل قيمةٌ حقيقيةٌ لا بد لنا إذاً من الطاقة من جهة ومن الشكل الثمين من جهة أخرى . الطاقة النفسية في العصاب تتلبس دون شك شكلاً دونياً وغير قابل الاستخدام . إن تصورات النظريتين الإرجاعيتن تفيد في إذابة هذا الشكل الدوني . إنهما تثبتان حقيقتهما والحالة هذه بمثابة كاوياتٍ نكتسب بفضلها طاقة حرةً إنما حيادية .

لقد كان مقبولاً إلى الآن بأن هذه الطاقة الجديدة المكتسبة تؤول إلى تصرف وعي الفرد المفترض منذئذٍ أنّه يستطيع التصرف بها كيف شاء . فبقدر ما كان يُنظر إلى الطاقة على أنها لم تكن شيئاً آخر سوى قوةٍ غريزيةٍ جنسية كان الكلام حينئذٍ عن استخدامها «المصعَّد» أي نحو استخدام لا جنسيٍّ لهذه الطاقة كممارسة فنٍّ ما أو أيِّ نشاطٍ آخر خيِّرٍ أو نافعٍ . وتبعاً لهذا التصور فإن بإمكان المريض أن يباشر بقرارٍ اعتباطيٍّ أو باتّباع خيطِ إيثاراته تصعيد جمحاته الغريزية .

لا يمكننا إلا أن نمنح هذا التصور إلى حدٍّ ما حقَّ المواطنية بمقدار ما يكون الفرد البشري على العموم قادراً على تحديد خط سلوكٍ معين لحياته يلزم نفسه باتباعه . بيد أننا نعلم بأنّه لا يوجد علمُ تنبؤاتٍ بشريةٍ أو حكمةٌ تتيح لنا أن نطبع لحياتنا اتجاهاً معيناً سوى لمراحل قصيرة جداً . فلنتفق بأن هذا الرأي المشروع بالنسبة إلى نمط حياة «مألوف» هو غير مشروعٍ بالنسبة إلى النمط «البطولي» . فهذا النمط الأخير موجود ولكنه بالتأكيد أكثر ندرة من الأول . ليس للمرء أن يزعم بنمطِ حياةٍ بطوليةٍ لا يطبع الفاعل وجوده به سوى من خلال اتجاهٍ غير ثابتٍ ولفتراتٍ قصيرةٍ وحسب . النمط البطوليُّ في السلوك هو شيء مطلق أي أن الحياة تتعلق بقراراتٍ تمهر بختمها مصيراً برمته بحيث يستمر التوجه عند الاقتضاء حتى نهاية مرة . فالطبيب يتعامل في أغلب الأحيان مع أشخاصٍ عاديين وأندر بكثيرٍ مع أفرادٍ ارتضوا البطولة بإرادتهم وعندما تحدث هذه الحالة فإنَّ الأمر للأسف يتعلقَ في أغلب الأحيان بأفرادٍ ليست بطولتهم

المزعومة سوى حَرَدٍ طفوليٍّ إزاء قدرٍ صارمٍ أو تنفّجٍ مفرطٍ غايته الأخيرة تمويه دونيةٍ لاذعةٍ . إننا للأسف نادراً ما نصادف في الرتابة القوية للحياة اليومية غير المألوف في حالةٍ صحيةٍ وقلّما نجد مكاناً لبطولةٍ مشهورة . وليس ذلك لأنَّ الفرد لا تساوره مساورةً متواترةً تحريضات البطولة ! بل بالعكس لأن عقدة هذه المشكلة المشؤومة والمنهكة تقوم في أن الرتابة التافهة تحاصر بمتطلباتها التافهة صبرنا على البذل والتضحية الخ . لا يمكن للمرء إرضاء هذه المتطلبات إلا في صيغة التواضع دون أقل تصنعٍ بطوليٍّ أو مرأى من الجميع . . الأمر الذي لا يتطلب شيئاً أقل من بطولةٍ غير مرئيةٍ من الخارج فهي لا تلمع ولا يجري تبخيرها ويجب دائماً أن تبقى طي ستائر الحياة الجارية . تلكم هي المتطلبات العميقة التي يسبب عدم إشباعها العصاب . وفي السعي للإفلات منها فإنَّ أكثر من واحدٍ قد تجرّأ على اتخاذ القرار العظيم الذي قد يجعله يندفع فوق الرتابة اليومية وأكثر من واحدٍ أيضاً قد جعله قيد التطبيق حتى لو كان يبدو ضلالاً بالنسبة إلى تحالف ذوي الحس الفطري . لا يسع المرء إلا أن ينحني إزاء أقدارٍ كهذه . ولكن كما كنت أقول أعلاه فإن حالاتٍ كهذه نادرة في حين أن الحالات ا لأخرى تشكل غالبية ساحقةً مطلقة . فبالنسبة إليهم لا يشبه الاتجاه المطبوع لحياةٍ ما في شيء خطّاً مرسوماً رسماً واضحاً . إن القدر يعرض نفسه إزاء معظم هؤلاء الأفراد أشبه بمتاهة مُربكَةٍ ومفرطة الغنى بإمكاناتها التي واحدة منها ستكون السبيل الملائم والصحيح . فحتى لو عوّل المرءُ على أدقّ تقديرٍ لطبعه تتيح المعرفة البشرية البلوغ إليه فَمَنْ يسعه أن يزعم بتثبيتٍ مسبقٍ لهذا السبيل الوحيد ؟ يمكن للمرء بالتأكيد أن يتوصل بإرادته إلى أشياء كثيرة لكن ذلك قد يكون ضلالاً عظيماً لأنه قد أثبت نظره على مصير بعض الشخصيات ذوي الإرادة القوية على نحوٍ خاصٍ فيريدهو أيضاً مهما كلّف الأمر إخضاع مصيره الخاص لإرادته . إن إرادتنا وظيفة تخضع لتوجيه تفكيرنا ؛ إذاً فهي تتعلّق بتكوين هذا التفكير . غير أنه يجب على تفكيرنا لكي يستحق هذا الاسم أن يكون عقلياً أي متطابقاً مع العقل . ولكن هل ثمة من برهن أبداً أو باستطاعته أن يبرهن أبداً بأنَّ الحياة والمصير متطابقان مع عقلنا البشري أي أنهما عقليان هما أيضاً ؟ إن لدينا بالعكس كلَّ مجالٍ للتخمين بأنهما لا عقليان وأن لهما بكلام آخر أسساً تقع في نهاية المطاف فيما وراء العقل البشري . إنَّ لا عقليةالأحداث لتثبت نفسها في الصدفة المزعومة الأمر الذي يجب علينا تلقائياً

إنكاره من وجهة نظر عقلية لأننا لا نستطيع بَدَرِيّاً التفكير بأيِّ سيرورةٍ لا تكون محرضةً بالتسلسل الضروري لأسبابها والتي يمكن بالتالي ردها إلى الصدفة[1] . ولكننا في الواقع نجد الصدفة في كل مكان وهي تفرض نفسها فرضاً قاطعا . في وسعنا أيضاً رد فلسفتنا السببية على النحو عينه إلى مستوى البدائل البالية . إن الحياة في ملئها تخضع لقوانين تارةً وتفلت منها تارةً أخرى وهي عقلية تارةً ولا عقلية تارةً أخرى . لذلك فإن العقل والإرادة التي تعوِّل عليه لا قيمة لهما ولا فاعلية إلا في نطاقٍ ضيق . فكلما اتسع المسار المُعْتَمَدُ اعتماداً عقلياً ازددنا يقيناً بأننا ننفي بذلك إمكانات الحياة اللا عقلية التي لها مع ذلك حق الحياة بالمقدار عينه . لقد كانت فرصةً من أسنح الفرص للإنسان أن يكون عموماً في وضع القادر على طبع اتجاهِ لحياته . يمكننا أن نزعم بحقٍ أن اكتساب المعقول كان أعظم انتصار للإنسانية بيد أنه لا شيء يقول لنا بأنه يجب أن يستمر الوضع هكذا بالضرورة أو أن الوضع سيستمر فعلاً على هذا النحو . لقد وجهت كارثة الحرب العالمية الأولى الرهيبة صفعةً مدويةً حتى لأكثر المتفائلين من حماة الثقافة العقلية . كان أوزوالد Ostwald[1] يكتب في عام ١٩١٣ ما يلي : «الرأي العالمي موَّحدٌ في الإيقان بأن الحالة الراهنة للسلام المسلح هي حالة لا تطاق وأنها تتردّى شيئاً فشيئاً نحو حالةٍ مستحيلةٍ للأشياء . إنها تتطلب تضحياتٍ هائلةٍ من جانب كلِّ أمة وهذه التضحيات تتجاوز من بعيدٍ النفقات التي صرفت في سبيل الأعمال الحضارية ولا توفر لنا مع ذلك أيَّ فائدةٍ حقيقيةٍ . فإذا ما سعت الإنسانية إلى وسائل التخلي عن كلِّ هذا التسلّح المعبأ لأجل الحروب التي لم تحصل بعد البتة وعن هذا التجميد بسبب الاستعداد الحربي لجزءٍ شاسعٍ من الأمة في عمره الأشد والأخصب عطاءً وإلى التخلي أيضاً عن خسائر تسببها الحالة الراهنة فقد تحقق الإنسانية حينئذٍ اقتصاداً هائلاً في الطاقة بحيث يمكننا انطلاقاً من تلك اللحظة عينها توقُّع تفتّحٍ للحضارة لم يخطر في حلم أحدٍ البتة لأنَّ الحرب التي ، تماماً كالنزاع بين

١ - لقد أنصفت الفيزياء الحديثة التصور الصارم لهذه السببية فقد جرى استبدال هذه الأخيرة «بالترجيح الاحصائي» وقد سبق لي في عام ١٩١٦ أن لفت الانتباه إلى تطويعات وجهة النظر السببية في علم النفس الأمر الذي سبب لي أحقاداً كثيرة في ذلك الحين . انظر في هذا الخصوص : Collected Paper's on analytical Psychology 1920, 2e édition. Pages 10et 15

١ - La Philosophie des Valeurs, page 313.

الأفراد ، ما فتئت الوسيلة الأكثر قِدَماً في حل الخلافات والتنافرات ليست أقلّ من هذه الوسيلة الأكثر خطأً تلك التي تؤدي إلى أسواء هدرٍ في ا لطاقة . إذاً فإنّ العدول التام عن الحرب سواء في وضعها الكموني أو في وضعها الراهن يلائم معطيات الضرورة الطاقية ويشكل في أيامنا إحدى مهام الحضارة الأساسية» .

بيد أن لا عقلية القدر لم تشأ ما كان يريده عقل المفكرين الخيِّرين بل قد أرادت أن تستخدم ليس فقط الجنود والأسلحة المكدَّسة ولكنها أرادت ما هو أسوأ أيضاً إذ سعت إلى اجتياحٍ مرعبٍ جنونيٍّ ومذبحةٍ جماعيةٍ لم يشهد أحد لها مثيلاً . فهل في وسع الإنسانية من مثلٍ كهذا أن تخلص بنتيجة أنَّ الإنسان لا يتوصل البتة عبر النوايا العقلية إلا إلى السيطرة على وجهٍ واحدٍ للقدر . وما يجب قوله عن البشرية عموماً بهذا الخصوص ينطبق أيضاً على كلِّ واحدٍ منا بمفرده ذلك أن البشرية لا تتألف إلا من أفراد منعزلين وكما تكون نفسانية البشرية تكون أيضاً نفسانية أفرادها . لقد عايشنا في الحرب العالمية الأولى تصفية حساباتٍ مروِّعة وشهدنا تصادم النوايا العقلية للثقافة المنظمة . فما يسمى «إرادة» لدى الخاص يدعى «امبريالية» لدى الأمم لأن الإرادة هي إظهار السلطة على القدر اي نفي الصدفة . إن العمل الحضاري **تصعيد مقصود ومقرَّر على نحوٍ ملائم للطاقات الحرَّة** ويصح هذا أيضاً في قلب وإطار الفرد نفسه . وإذا كان تصوُّر تنظيمٍ مشتركٍ للحضارة قد خضع لعملية ضبطٍ وحشيةٍ بفعل الحرب **فإنَّ الفرد هو أيضاً عليه غالباً في مجرى حياته أن يتعلَّم على نفقته بأن الطاقات المزعومة «حرَّة» لا تسمح للمرءِ بأن يتصرَّف بها .**



الحالة التالية تشهدُ على ما نقول : جاءني يستشيرني ذات يومٍ في أميركا رجل أعمالٍ يبلغ من العمر ٤٥ سنة تقريباً . لقد كان هذا الرجل هو عين نمط الرجل الأميركي الصانع نفسه الذي بانطلاقه من لا شيء لم يكن يدين بنجاحه إلا لعمله . لقد نجح نجاحاً رائعاً وأسس شركة واسعة الأبعاد وعرف أيضاً أن ينظم أشغاله تنظيماً تدريجياً بحيث استطاع أن ينسحب من إدارتها دون ضرر . زد على ذلك أنه قبل سنتين من رؤيتي له كان قد انسحب عملياً إلى التقاعد . إلى هنا لم يكن قد عاش إلا من أجل أشغاله التي كرس لها كل طاقته مع تلك الشدة المانعة التي لا تصدق التي يتصف بها رجل الأعمال الأميركي الذي يحرِّكه النجاح . لقد اقتنى لنفسه ملكية

عظيمة كان يحلم بأن يعيش فيها ما كان يتصوره تحت شكل نزهات في السيارة وعلى ظهر الخيل وألعاب الغولف وكرة المضرب وألعابٍ من كلِّ نوع . بيد أنه لم يحرز سوى صفقة المغبون : فالطاقة التي تحررت لم تتعلق البتة بتلك ا لنظريات المغرية ولم تستجب لهذه الحياة الجديدة ولكنها راحت تشرد على نحوٍ نزويٍّ صوب أغراضٍ أخرى مختلفةٍ كلَّ الاختلاف : فخلال بضعة أسابيع بعد بداية الحياة الفردوسية المحلومة راحت أحاسيس مادية مُبهمة وفريدة تُشغل باله وتدفعه نحو القلق ولم يلزمه الأمر أكثر من بضعة أسابيع حتى كان يغرق في مرضٍ هجاسيٍّ ساحق . كان ذلك انهياراً عصبياً تاماً . لقد تحوَّل بسرعةٍ هو الرجل السليم المعافى ذو الصلابة البدنية المدهشة والمتمتع بطاقةٍ قلَّ نظيرها إلى ضربٍ من طفلٍ متبكبك وعلى هذا النحو فقدَ كلَّ بهائه . كان ينهض من كرب ويسقط في آخر وظلَّ يتعذَّب هكذا حتى الموت تقريباً وهو ضحية انشغالاتٍ وقلاقل هجاسيةٍ مرضيةٍ . كان قد استشار في حينه اختصاصياً مرموقاً ورأى هذا الأخير حالاً رؤيةً ثاقبةً بأنَّ مريضه لم يكن لديه أيُّ ضعفٍ بدني وأنَّ ما كان يفتقر إليه هو العمل . وقد بدا هذا التصور للمريض بمثل البداهة المضيئة وعاد إلى اهتماماته السابقة . بيد أنه ـ لعظيم إحباطه ـ كان عاجزاً عن الاهتمام من جديد بأعماله ، لم ينفع في ذلك شيء لا الصبر ولا القصد المكين . لم يستطع قسرَ طاقته على الانسياب مجدداً في السرير السابق لحياته العملية وبالطبع فإن حالته قد ساءت بالمقدار عينه . فبقدر ما كان سابقاً في طبيعته طاقةً حيَّةً فاعلةً قد تحول في ذاته ضد ذاته مع قدرةٍ تدميريةٍ رهيبة . لقد كانت عبقريته الخلاقة تتمرد عليه بصورةٍ ما وكما كان في السابق قد شيد في العالم مؤسساتٍ رحبة فإن شياطينه الداخلية صارت الآن تخلق بالمقدار عينه أنظمةً رفيعةً من مقايساتٍ وسواسيةٍ مرضيةٍ قضت عليه . فعندما جاء يستشيرني لم يكن بعد سوى عبارة عن خرابٍ معنوي لا ينبىء بأملٍ البتة . مع ذلك حاولت إفهامه بأن المرء يستطيع بالتأكيد أن يتوصل دائماً إلى أن يسحب من أشغاله طاقةً عارمةً كطاقته بيد أن المسألة التي كانت تطرح نفسها حينئذٍ هو معرفة سبيل التصرف بها . إن أعرق السلالات وأنبلها وأسرع السيارات وأشد الألعاب صخباً قد لا يكون بإمكانها أن تشكل طعماً مغرياً للطاقة مع أنه من المعقول جداً التفكير بأن إنساناً كرَّس كل حياته لعمل شاق يملك فيما بعد حقاً شرعياً في التمتع بحياته . هذا صحيح بلا شك فيما لو كانت أشياء القدر تجري بموجب العقل

البشري : فقد عمل أولاً ومن ثم فهو يستحق الراحة . بيد أن الأمر ليس تحديداً من هذا في شيء ذلك أن الأحداث تتبع مجرى لا عقلياً وغير ملائم على نحو شديد . فالطاقة تتطلب قناةً مناسبةً تندفع فيها وإلا فهي تتكدس وتصبح مدمِّرةً وتنكص نحو أوضاع كان الفاعل قد اختبرها مسبقاً ؛ ففي الحالة التي هي موضوع حديثنا استخدمت الطاقة أولاً في تنشيط ذكرى خمج زهريٍّ أُصيب به قبل ٢٥ سنة . وبعد هذه المرحلة في طريق إعادة تنشيط الذكريات الطفولية التي كانت مع مرور الوقت قد امّحت تماماً من عقله . كانت هناك طبيعة علاقاته كطفل مع أمه هي التي مهرت بختمها أعراضيته . كان ذلك يشكل ضرباً من «تدبير» يهدف إلى جلب اهتمام أمه «التي توفيت منذ زمنٍ طويل» كما كان ليفعل هذا في ذلك الزمن البعيد . بيد أنها لم تكن هذه أيضاً سوى مرحلةٍ عابرةٍ انتقاليةٍ لأنه يبدو أن هدف كل هذه الأفعولة كان إلزام المريض على إعادة تشغيل بدنه الخاص على نحوٍ ما بعد أن كان قد عاش منذ طفولته برأسه فقط . لم يكن قد نمّى ومايز سوى هذا الجانب الوحيد من كيانه أما الجوانب الأخرى فقد بقيت في مرحلةٍ بدائيةٍ خامدةٍ . لقد كان عليه أن يهتم بهذه الجوانب الأخرى من حياته إذا ما أراد أن يستمر في الحياة . كان انهياره الهجاسي المرضي يمارس عليه ضغطاً كما لو أنّه كان يجبره على العودة إلى جسده الذي طالما أهمله . فلو كان استطاع اتباع السبيل الذي كان يدّله عليه انهياره وأطيافه الهجاسية ولو كان استطاع احتياز الشعور بالتخيلات التي تنشأ دائماً في حالةٍ كهذه فلعل ذلك كان سيكون طريق الخلاص . وكما كنت أتوقع فإنَّ آرائي لم تلق لديه أيَّ تعاطف . لا يمكن بعد البتة تأملُ الشفاء لحالةٍ متقدمةٍ كهذه وليس بالإمكان سوى الاعتناء به حتى النهاية .

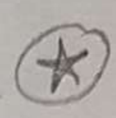
هذه الحالة تبين بياناً جلياً بأنه ليس في مستطاعنا تحويل طاقةٍ «حرةٍ» باختيارنا عن مجراها في اتجاه غرضٍ معينٍ يتمُّ انتقاؤه انتقاءً عقلياً . والأمر هو نفسه بالدقة فيما يتعلق بتلك الطاقات التي نكتسبها بتدميرنا لأشكالها غير المستخدمة بواسطة كاويات التحليل النفسي والتي يتم تحريرها في الظاهر على هذا النحو . إنّ بالإمكان كما قلنا استخدام هذه الطاقة بإرادتنا في أفضل الحالات لفترةٍ وجيزةٍ من الزمن بيد أنّها في أغلب الأحيان تتمرد وترفض تعصيب الإمكانات العقلية التي تُقدَّمُ لها لأي أجلٍ كان . لا بدَّ من الرضوخ إلى أنَّ الطاقة النفسية قوة ذات طبع صعب نزويٍّ تختار



بنفسها ولا تترك مجال أن يُفرضَ عليها وتريد أن تُنفَّذَ الشروط التي تطرحها . وأيّاً تكن كميات الطاقات الكامنة فإنها ستبقى دونما استخدام طالما أننا لم ننجح في إقامة منحدرٍ تنساب فيه .

إن مسألة المنحدر الملائم للطاقة الذي لا بدَّ منه لانسيابها هي مسألة جدُّ علمية تنطرح في معظم الحالات التحليلية . في تلك الحالات مثلاً حيث جملة من الظروف تجعل الطاقة الحرة المدعوَّة ليبيدو[1] تنقذف على غرضٍ معقولٍ فتتملكه ، أقول تلك الحالات التي كان المرء يفكر أنَّه حقق فيها التحويل بجهدٍ واعٍ من إرادته بيد أننا نتوهم في ذلك أيضاً لأن الجهود الإرادية الأكثر مثابرة لن تكفي لهذا أبداً إذا لم يكن قد وُجد في الوقت عينه وجوداً عفوياً منحدرٌ يسير في الاتجاه نفسه . إنَّ أهمية هذا المنحدر تثب لناظرينا في الحالة التي يقوم فيها الفاعل من جهة بجهودٍ يائسةٍ في اتجاهٍ معينٍ حيث يبدو التحقيق الذي يتشوق إليه والغرض المستهدف والمختار الحل المرجو الحل المرجو لكلٍ واحدٍ والمعقول إلى حدِّ البداهة ، وحيث لا يتوصل مع ذلك الانتقال والتحول من جهة أخرى إلى التحقق ذلك أن جُلَّ ما يمكن أن تخلقه الجهود المبذولة هو كبت جديد . إنها لإحدى ثمار تجربتي وجوبُ إثباتي أنَّ درب الحياة لا يستمر إلا هناك حيث ينكشف لنا انكشافاً عفوياً منحدر لطاقات الحياة . بيد أنه لا توجد طاقة إلا هناك حيث يوجد توتر بين أضداد لذا فإن علينا من أجل كشف هذا التوتر البحث

١ - لا بدَّ أن القارىء قد لاحظ مما سبق بأني أستخدم مفهوم الليبيدو الذي أدخله فرويد والعملي جداً من أجل استخدامٍ شائع في معنىً أوسع بكثيرٍ مما فعل ذاك المؤلف . إن مصطلح الليبيدو يعني بالنسبة إليَّ : طاقةٌ نفسية الأمر الذي يتيح تعيينَ الشدة التي تنشحن بها المحتويات النفسانية . لقد وحّد فرويد بين الليبيدو والإيروس متطابقاً في ذلك مع فرضياته النظرية وأشار إلى أنه يميز الليبيدو من الطاقة النفسية عموماً فهو يقول على هذا النحو (Gesammelte Schriften, tome V,P. 92) : «لقد جعلنا مفهوم الليبيدو بمثابة قوةٍ متغيرةٍ كمياً ومن شأنها قياس السيرورات والتبادلات في مجال الإثارة الجنسية . هذا الليبيدو نفرقه عن الطاقة التي يجب افتراضها عموماً في أساس السيرورات النفسية» . وفي نصٍ آخر يقول فرويد فيما يتعلق بغريزة التدمير بأنه كان يفتقر إلى «مصطلح مضاهيء لمصطلح الليبيدو» فيبدو لي من الأبسط والأفضل بما أن غريزة التدمير المزعومة هي أيضاً ظاهرة طاقية تمديد الليبيدو كدالٍ دلالةً عامة على الطاقات النفسية أي جعل مصطلح الليبيدو مرادفاً للطاقة النفسية عموماً . أنظر في هذا الخصوص : استحالات النفس ورموزها (كتاب هو قيد الترجمة) .



والعثور عما يشكل بإزاء الموقف الواعي موقف الضد المناقض . وإنه لمن الشيق أن نرى مبلغ أهمية الدور الذي لعبته هذه المعاوضة بالتضاد أيضاً في تاريخ النظريات المتعلقة بالعصاب : فنظرية فرويد تبرز مفهوم الإيروس (غريزة الحب) ونظرية أدلر تبرز القوة . إذاً فما هو في سياق المنطق أنَّ مناقض الحب هو البغض والإيروس Eros يقابله الفوبوس Phobos (الخوف والرهبة) بيد أن مضاد الحب على الصعيد النفساني هو إرادة القوة . حيث يسود الحب لا وجود لإرادة السيطرة وحيث تسود القوة ينتفي الحب . إن الحب وإرادة القوة هما ظلُّ الواحد للآخر : فالفرد الذي ينذر نفسه للحب تكون إرادة القوة هي التعويض الخافي وإن أياً كان يتشوق إلى القوة فإن الإيروس سيكون هو بدوره التعويض الخافي . فمن وجهة نظر الموقف الواعي الأحادية يبدو الظلُّ مكوِّناً أدنى للشخصية . وهو ، بما هو كذلك ، سوف يتم كبته بالمقاومات العنيفة التي يستبعثها . غير أن على المحتويات النفسية المكبوتة أن تصبح واعية من أجل أن ينبعث بين المتضادات توتر قد يتوقف بدونه تخليد الحركة الحياتية . فالوعي على نحوٍ ما إذا أجيزت لنا هذه الصورة يقف في الأعلى بينما يقف الظلُّ في الأدنى وكما يبحث دائماً ما هو في الأعلى عما هو في الأدنى وكما أن الساخن يسعى إلى التوازن مع البارد فإن كل وعي يبحث دون علمٍ منه ربما عن ضده الخافي الذي سيكون بدونه محكوماً بالاستنقاع والترهل والتحجر . **إن شعلة الحياة لا تنبجس إلا باحتكاك الأضداد .**

لقد كان تنازلاً لصالح المنطق الفكري وللزعم النفساني السائد ما دفع فرويد إلى تسمية ما كان يناقض الإيروس باسم غريزة التدمير أو غريزة الموت زد على ذلك أن الإيروس ليس مرادفاً للحياة بلا زيادة . فمن الواضح لدى الذين يبدو الإيروس لديهم مطابقاً للحياة أن ضده لا يملك أن يكون شيئاً آخر سوى الموت ؛ زد على ذلك **أن كل واحدٍ يستشعر استشعاراً مطلقاً ما هو مناقض لمبدئه الرئيسي على أنه العنصر الضار المدمِّر بل وحتى القاتل الأمثل فكيف إذاً الاعتقاد به أنه جدير بأدنى قدرةٍ حيويةٍ إيجابية ؟** من هنا فإن المرء يتجنبه ويخشاه .



عديدة هي المبادىء كما سبق وأشرنا التي يستشعرها الأفراد بمثابة الأهم في حياتهم أو في تصورهم للأشياء وثمة انطلاقاً منها مقدار مماثل من الأشكال المختلفة

للمضادات المعاوضة . لقد أشرت فيما سبق إلى نمطين من موقفين متناقضين يبدوان لي أساسيين دعوتهما الموقف الانطوائي والموقف الانبساطي . وقد سبق لوليم جيمس[1] أن كان مشدوهاً بوجود هذين النمطين عند المفكرين فسماهما «العقل الرهيف» و «العقل الغليظ» . وعلى النحو عينه كان أوزوالد قد صنف على نحوٍ مضاهىء كبار العلماء بموجب صنفين هما النمط الرومنطيقي والنمط المدرسي . إذاً لست الوحيد في تصور هذه الفكرة عن الأنماط ففي وسعنا فضلاً عن هذين الاسمين المعروفين ذكر أسماء أخرى عديدة . لقد بينت لي أبحاث تاريخية بأن عدداً لا بأس به من المساجلات الفكرية العظيمة التي حركت التاريخ إنما قامت على تناقض هذين النمطين . الحالة الأهم من هذا النوع كانت التناقض بين الإسمانية nominalisme والواقعانية réalisme التي ابتدأت بخلافٍ بين مدرسة ميغار ومدرسة أفلاطون وامتدت في الفلسفة المدرسية حيث كان لـ آبيلار Abélard الشرف العظيم في الجرأة على محاولة مصالحة وجهتي النظر المتناقضتين ضمن مذهب التصورية conceptualisme[1] . وتأبدت هذه المشادة إلى أيامنا حيث ما زالت تكشف عن نفسها بين الروحانية والمادانية . وعلى مثال التاريخ العام للعقل البشري فإن كل فردٍ هو الآخر يشترك في تضاد الأنماط أيضاً . لقد أثبت استقصاء دقيق فعلاً بأن لدى ممثلي هذين النمطين قابلية عظيمة للاتحاد بالزواج وذلك ـ دون وعي منهما بذلك ـ من أجل أن يتكاملا تكاملاً متبادلاً . إن الطبيعة المتبصرة للانطوائي تدفعه باستمرارٍ إلى معادلة الحسنات والسيئات وإلى التفكر فيهما قبل مباشرة العمل وبالطبع فإن عمله يتباطأ بمقدار ذلك . إن خجله المُجفل وحذره إزاء الأغراض يدفعانه دوماً إلى التردد وعلى هذا النحو فإن التكيف مع العالم الخارجي يجابهه بصعوباتٍ على نحوٍ دائم . أما الانبساطي فهو بالعكس يتمتع بصلاتٍ إيجابية مع عالم الأشياء الذي يشده إليه تقريباً . فالأوضاع الجديدة والمجهولة تستهويه وتفتنه.فعندما يقتضي الأمر التعرف إلى شيء جديد تُراه يقفز مندفعاً بطيبة خاطر . إنه يعمل أولاً على العموم ولا يفكر بما يفعل إلا فيما بعد . لذا فإن أفعاله سريعة ولا تخضع للتردد ولا للمواربات . من أجل

١ ـ الذرائعية ، ١٩١١ .

١ ـ انظر الأنماط النفسانية المذكورة سابقاً .

التصورية : مذهب فلسفي يعتبر المعاني الكلية صوراً عقلية لا أسماء أو إشارات تدل على أفراد (م) .

ذلك يبدو أن هذين النمطين قد خلقا تقريباً ليعيشا في حياة مشتركة . يتكفل الواحد منهما بالتفكير في حين يتعهد الآخر المباشرة والحياة العملية . فإذا مااتحد ممثلان عن هذين النمطين المتعاكسين لأمكنهما أن يحققا اتحاداً تاماً . فما دام كلاهما مستغرقين بكليتهما في الصراع من أجل الحياة وفي التكيف الضروري مع متطلبات الحياة الخارجية المختلفة فهما حقاً مصنوعان واحدهما لأجل الآخر ولكن . ليربح الزوج قدراً كافياً من المال أو ليسقط عليهما إرث سخيٌّ من السماء وتنحل بذلك صعوبات الحياة المادية فيصير لديهما إذ ذاك وقت التفرغ واحدهما للآخر . لقد كانا إلى ذلك الحين يتكئان ظهراً إلى ظهر ويحميان نفسيهما ضد الحاجة أما الآن فقد التفت كل منهما صوب الآخر ويريدان أن يتفاهما . . فإذا بهما يكتشفان بأنهما لم يتفاهما البتة وأن كلاً منهما يتكلم لغةً مختلفةً عن لغة الآخر : هكذا يبدأ تجابه هذين النمطين . المجابهة تتحول سريعاً إلى الشجار والنزاع سام وعنيف ومليء بالاحتقارات المتبادلة في حين أنه قد يبقى أحياناً غير مُعلنٍ ومستمراً على نحوٍ صامتٍ جداً في صميم الحياة الداخلية . ذلك أن قيمة الأول هي لا ـ قيمة الثاني . وعسانا نفكّر بأن الأمر لا يتعلق سوى بالحس السليم وأن كلاً من الشريكين بما هو واعٍ لقيمه الذاتية عليه أن يتمكن من الاعتراف بكل دعةٍ بقيم الآخر وبتقديرها وأن كلَّ صراعٍ قد يمسي من هذا المنطلق نافلاً . ولكن كم من حالاتٍ مرَّت بي كان المرء فيها يحاول أن يطرح حجج الإحساس السليم هذا في المقدمة دون التوصل مع ذلك إلى نتيجةٍ مرضية . فعندما يتعلق الأمر بأفرادٍ أسوياء يمكن اجتياز مرحلةٍ كهذه على نحوٍ يسير . ذلك أن الفرد السوي هو الذي في كل ظروف الحياة ـ بشرط أن تمنحه الضروري الأدنى للحياة عينها ـ يستمر عائشاً فيها . غير أن عدداً لا بأس به من الأفراد لا يتوصلون إلى ذلك ، لذا ليس ثمة أناس أسوياء كثيرون . ما نفهمه عادة بكلمة «إنسانٍ سوي» هو إذا صح القول إنسانٌ مثاليٌّ يتكون طبعه من خليطٍ متناغم يندر تحقيقه . إن الغالبية العظمى من البشر المتميزين إلى حدٍّ ما يتطلبون شروط حياةٍ تتجاوز الطعام والمأوى شبه المؤمنين . ففيما يتعلق بهؤلاء فإن نهاية ما بينهم من علاقة بينية تكافلية يشكل زلزالاً رهيباً .

لا نملك أن نفهم للوهلة الأولى لماذا يجب أن يكون الأمر على ما هو عليه . ولكن إذا ما جعلنا حاضراً في ذهننا واقع أنَّ لا أحد يكون منطوياً وحسب أو منبسطاً



وحسب وأن كل واحدٍ بالعكس يملك إمكانيتي التوجه كلتيهما اللتين لم يُنمَّ منهما إلا واحدة بمثابة وظيفة تكيف ، فنتوصل إلى افتراض أن الانبساط يهجع راقداً عند المنطوي في مكانٍ ما خلفي في حالةٍ سباتيةٍ جنينية وأن الانطواء لدى المنبسط يحيا هو الآخر حياةً غسقية مضاهئة . إن الانطوائي يملك في الحقيقة ملكة الانبساط بيد أنه لا يعيها لأن انتباه وعيه منصب دائماً على الفاعل . هو بالتأكيد يرى الغرض جيداً غير أنه يكون تمثلاتٍ خاطئة مُحطَّة أو كابحة بحيث يبقى بعيداً عنه دائماً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً كما لو أن الغرض يشكل بالنسبة إليه شيئاً ما قوياً وخطيراً . وما أريد التعبير عنه بذلك سوف أبينه بمثلٍ بسيط : ثمة شابان قاما بنزهةٍ في الريف فوصلا إلى قصرٍ جميل يرغب كلاهما في زيارته . قال المنطوي كم أحب أن أنظر داخل هذا القصر فأجابه المنبسط : «هلم ندخل» وتهيَّأ لاجتياز المعبر فاستوقفه المنطوي : «ربما كان الدخول ممنوعاً» ، في الوقت الذي راحت فيه تصورات مبهمة عن الشرطة والضريبة والكلاب النابحة الخ ، تغزو رأسه الأمر الذي جعل المنبسط يردُّ بالقول : «مالنا سوى أن نسأل وعندها سيسمحون لنا بالدخول» في الوقت الذي كان تفكُّره يعج بتصورات عن حراسٍ قدماء طيبين وخدام قصرٍ مضيافين ومغامرات رومنطيقية ممكنة . ثم بفضل التفاؤل الزخميِّ الذي يحرك المنبسط تمكن شابانا بالفعل من دخول القصر . ولكن هاكم ما حدث : لقد تم إحداث تبديلٍ شديدٍ داخل القصر فلم يعد يحتوي سوى على بضع غرفٍ تُعرض فيها مجموعة من المخطوطات القديمة وشاءت الصدفة أن يجد الشاب المنطوي لذائذه فيها . فما كاد يبصرها حتى صار أشبه بالمخطوف وراح مستغرقاً بتأملٍ هذه الكنوز معبراً عن نفسه بكلمات حماسية . فابتدأ حديثاً مع الحارس بهدف أن يستقي منه أكثر ما يمكن من المعلومات.وبما أن النتيجة كانت ضئيلة فقد سأل أين يوجد حافظ المتحف لكي يذهب فوراً ويطرح عليه الأسئلة العزيزة على قلبه . لقد تبدد خجله بضربةٍ واحدة وكأنَّ الأمر أشبه بالسحر واكتسبت الأغراض فجاةً سطوعاً فاتناً وارتدى العالم في نظره وجهاً آخر .

في هذا الحين كان مرح الشاب المنبسط يتلاشى تدريجياً وهيئته تتمطى ثم راح يتثاءب . ليس ثمة بواب طيب ولا مضافة فروسية ولا أثر لمغامرةٍ رومنطيقية . . . لا شيء سوى قصرٍ تم تحويله إلى متحف . ثمة مخطوطات ولكن بإمكان المرء أن يطلع على مثلها في بيته . وبينما كانت حماسة الواحد تتنامى كان خِلطُ الآخر يظلم فالقصر

يستثير لدى هذا الأخير انطباعاً بحزنٍ قاتل . فالمخطوطات تذكّره بالمكتبة ومن المكتبة يمر عبر فكرة التداعي إلى الجامعة ومن الجامعة إلى الدروس والامتحانات الرهيبة وهكذا دواليك كما لو أن ستاراً معتماً كان يسقط على القصر الذي كان في البداية شيقاً فاتناً . انطلاقاً من هذا الواقع أصبح الغرض سلبياً . أما الشاب المنطوي فكان يصيح : «أليس رائعاً أن نكون بالصدفة قد اكتشفنا هذه المجموعة الرائعة !» - فيسمع جواب صديقه الذي يرد عليه بالقول : «إني أجد هذا مضجراً على نحوٍ مرعب» غير مخفٍ مزاجه السيء . هذا الرد أثار حفيظة الأول الذي اتخذ في قرارة نفسه قصداً حانقاً بعدم الخروج البتة بصحبة إنسانٍ منبسط . وهذا الأخير زعل بدوره لانفعال مزاج رفيقه وفكّر بأنه طالما اعتبره أنانياً عاجزاً عن أقلّ مراعاةٍ للشعور فها هو الآن يضحي لصالح متعته الشخصية بهذا النهار الربيعي الجميل الذي يمكن للمرء مع ذلك أن يتمتع به تمتعاً أفضل في الهواء الطلق .

ما الذي جرى ؟ لقد كان الشابان يسيران معاً في تكافل مفرح إلى أن بلغوا إلى ذلك القصر المشؤوم . وهناك راح المنطوي الذي يسبق تَفْكِيرُهُ الفِعْلَ[1] يفكر بنفسه قائلاً : «عسانا نحاول رؤية هذا القصر من الداخل» . أما المنبسط النشيط الذي يسبق عَمَلُهُ تَفْكِيرَهُ فقد اتخذ الإجراءات العملية الضرورية للولوج إلى القصر . نشهد إذ ذاك انقلاباً في النمط عند كلٍّ منهما . فالانطوائي الذي كان في البداية ينفر من الدخول إلى القصر لم يعد يستطيع حزم أمره بالخروج منه في حين أنّ الانبساطي راح يلعن اللحظة التي تجاوز فيها الرواق . الأول هو منذ الآن مفتون بالغرض أمّا الثاني فمشدود إلى أفكاره السلبية . فمنذ أن أبصر الأول المخطوطات قُضيَ أمره وتلاشى خجله واستحوذ الغرض عليه فاستسلم له بطيبة خاطر . أمّا الثاني فقد استشعر بالعكس مقاومةً متنامية ضد الغرض إلى أن وقع في النهاية تحت سيطرة فاعله أي ذاته وخِلطه السيء : لقد تحوّل الأول إلى انبساطي في حين أنّ الثاني قد تحوّل إلى انطوائي . بيد أنّ انبساط الانطوائي مختلف عن انبساط الانبساطي وكذلك انطواء الانبساطي مختلف أيضاً عن انطواء الانطوائي . فعندما كان شابانا في بداية نزهتهما يسيران معاً في تناغمٍ جزِل لم يكن يزعج أيٌ منهما الآخر ذلك أنّ كلاً منهما كان في

١ - اشبه بابيميثيوس عند سبيتلر .

وفاقٍ مع فطرته الخاصة . لقد كان كلّ منهما يتخذ موقفاً إيجابياً إزاء الآخر لأنّ استعداد كلٍّ منهما كان بمثابة المكمِّل لاستعداد صديقه . لقد كانا يتكاملان من حيث إنّ موقف كلٍّ منهما كان يحتوي على نحوٍ ما الشريك . نرى ذلك لديهما مثلاً في حديثهما القصير أمام باب القصر حيث كلاهما يرغب في الدخول فالشك الذي ساور الانطوائي في معرفة ما إذا كانت الزيارة ممكنةً أم لا قد أفاد أيضاً رفيقه وكذلك فإن مبادرة الانبساطي كانت مفيدةً هي الأخرى للانطوائي . وهكذا فإنّ موقف الواحد يحتوي حالة الآخر وذلك يجد تحقيقه إلى حدٍّ متباين عندما يكون فرد ما ضمن استعداده الطبيعي متكيِّفاً قسراً مع المجموعة إلى درجةٍ تزيد أو تنقص . ذلك صحيح أيضاً بالنسبة إلى موقف الانطوائي على الرغم من أنّ هذا الموقف يجد دائماً إلهامه في الفاعل[1] . الاختلاف هو أنّ المسار الذهني عند الانطوائي يبدأ دائماً من الفاعل إلى الغرض بينما يبدأ بالعكس عند الانبساطي من الغرض إلى الفاعل .

ولكن انطلاقاً من اللحظة التي ينتصر فيها الغرض عند الانطوائي بأهميته على الفاعل ويجرّه وراءه في ثلمه فحينئذٍ يفقد موقف الانطوائي طابعه الاجتماعي فينسى حضور صديقه ولا تعود تنطوي اهتماماته على وجوده فيغرق في الغرض ولا يعود يبصر مبلغ سأم صديقه . والانبساطي بدوره يفقد على نحوٍ متلازم ملكة مراعاة الآخر في اللحظة التي إذ يُحبَط انتظاره فيتحصن داخل تصوراته الذاتية وأخلاطه النزوية .

وبالنتيجة فإنّنا نستطيع اختصار هذا الحدث الطارىء على النحو التالي : لقد ظهر لدى الانطوائي بفعل تأثير الغرض انبساط أدنى في حين أنّ انطواء أدنى قد حلَّ لدى الانبساطي بديلاً عن الحفاوة الاجتماعية . ذلك يعيدنا إلى المقولة التي كانت بداية انطلاقتنا حيث قلنا : بأنّ قيمة الواحد هي تحديداً لا قيمة الآخر .

ثمّة أحداث إيجابية مثلما هناك أحداث سلبية أيضاً يمكنها أن تبرز الوظيفة المضادة المكمّلة والقائمة في مستوىً أدنى فما أن يُبلغ إلى هذه النتيجة حتى تنبعث التأثرية . فالتأثرية هي العرض الذي يشير إلى وجود دونيَّةٍ ما . وعلى هذا النحو تنشأ الأساسات النفسانية للتنافر وسوء التفاهم ليس بين كائنين وحسب بل أيضاً لانقسام المرء على نفسه .

١ ـ نقصد بكلمة «فاعل» ذات الشخص بما هي بإزاء الغرض (م) .

إنَّ أحد السمات الجوهرية للوظيفة الدنيا هي تمتّعها بالاستقلالية : فهي مستقلة تحاصرنا وتفتننا وتسترمينا في شباكها بحيث لا نعود بعد أسياد أنفسنا ولا بعد في حالة إقامة قسمةٍ عادلةٍ بيننا وبين الآخرين .

على الرغم ـ أو بسبب ـ هذه المعطيات لا يبقى أقلُّ من أنَّ ثمّة ضرورة ، من أجل نمو الطبع ، أن يُمنح الجانب الآخر فينا بعض الحرية وتحديداً لوظيفتنا الدنيا . فلا يمكننا مع مرور الزمن التخلص تكافلياً من قدر جزءٍ من شخصيتنا على حساب جزءٍ آخر من هذه الشخصية عينها ذلك أنَّه يمكن في كلِّ لحظةٍ أن تنبجس آونةٌ على غير توقّعٍ منا ونحن في حالةٍ مفجعةٍ من عدم الاستعداد ، تلك الآونة التي كما بين ذلك مثل الشابين المتنزهَيْن أعلاه التي نحتاج فيها إلى وظيفتنا الأخرى . لكنَّ النتائج الناجمة عن ذلك قد تكون خطيرة فالانبساطي ـ كما لو كانت الأرض تميد تحت رجليه ـ يفقد في ظرفٍ كهذا الصلات العلائقية الضرورية بالنسبة إليه والتي توحّده بالأغراض بينما يفقد الانطوائي تلك الصلات التي توحّده بالفاعل . فإذا ما قلبنا وجهة نظرنا لعدنا إلى القول **بأنه لا بدَّ للانطوائي أن يتوصَّل إلى العمل دون أن تعيقه الترددات**



**والانكماشات على نحوٍ مستمرّ وأن يتمكّن الانبساطي من أن يقوم بدورةٍ على نفسه دون أن يسيء بذلك إلى حياته العلائقية .**

إنَّ الأمر يتعلّق كما نرى في الانبساط والانطواء بموقفين طبيعيين متقابلين على نحوٍ متبادل أو بحركتين في اتجاهٍ معاكس أشبه بما كان غوته يدعوه تحت اسم **الانقباض والانبساط** . لا بدَّ لهذه الحركات بلا شكّ أن تشكّل في تلاحقٍ متناغمٍ إحدى إيقاعات الحياة . بيد أنَّه يبدو بأنَّ ثمّة ضرورة لفن حياة بالغ الإتقان من أجلِ البلوغ إلى هذا الإيقاع . أو ربّما وجب أن يكون المرء بلا وعيٍ مطلق بحيث لا يعكّر قانونَ السيرورة الطبيعية أيُّ فعلٍ واعٍ ، أو ربّما وجب أيضاً البلوغ إلى مستوى وعيٍ أرفع بكثيرٍ مما هي الحال الشائعة لكيما يكون المرء في حالٍ من إرادة الحركات المتضادة للسيرورة الطبيعية وتنفيذها أيضاً . فحيث أنَّه ليس بمستطاعنا التطوّر على نحوٍ متقهقر كما لو أنّنا نعود باتجاه لا وعينا الحيواني فلا يبقى أمامنا سوى الطريق الأصعب المنفتح إلى الأمام والجهد باتجاه مستوىً من الوعي أشد رفعةً . صحيح بأنَّ هذا الوعي الفائق الذي عساه يجعلنا في حالةٍ من الحياة نقيم فيها إرادياً وقصدياً «نعم» الحياة و«لاءها»



العظيمتين يشكّل هدفاً يفوق الإنسانيّ إطلاقاً لكنّه يبقى مع ذلك هدفاً . إنّ ذهينتنا الراهنة لا تتيح لنا بلا شك سوى إرادة «النعم» وعلى الأكثر تلقّي «اللا» . فإذا كانت هذه هي الحال من الآن فثمّة كثير قد ربحناه .



إنّ مسألة الأضداد بما هي مبادىء ملازمة للطبيعة البشرية تشكّل مرحلةً جديدةً في السيرورة التدريجية للمعرفة . المسألة هي عموماً مسألة العمر الناضج . فمعالجة مريض لا تبدأ بلا شكٍ البتة باعتبارنا هذه المسألة نقطة الانطلاق وخاصةً لدى الشباب . إنّ أعصبة الشباب والمراهقة ناجمة عموماً عن الاصطدام الذي يجعل قوى الواقع تتحطم إزاء موقفٍ طفوليٍّ ناقص . هذا الموقف يتصف من وجهة النظر السببية بتعلقٍ غير سويٍّ يستشعره المريض نحو أهله الواقعيين أو الوهميين ويؤدي من وجهة النظر الغائية إلى تلفيقاتٍ متفاوتة أي إلى قصدٍ وإراداتٍ غير متكيفة . في مثل هذه الحالات فإن وجهتي نظر فرويد وأدلر ملائمتان تماماً . ولكن ثمّة كثير من الأعصبة التي لا تنمو إلّا في العمر الناضج أو التي تكتسب إذ ذاك من الحدّة مثلاً ما يجعل المريض عاجزاً عن ممارسة مهنته . من السهل بالطبع إزاء حالاتٍ مماثلة أن نبيّن من الآن بأنّه كان يوجد في عمر الشباب تعلُّقٌ مرضيٌّ للطفل بأهله وأنّه كانت تسود في عقل الطفل حينذاك كلُّ دروب الأوهام الطفولية وكلُّ الأشياء التي لم تكن مع ذلك تمنع الفاعل من اتخاذ مهنة ومن العمل الناجح والزواج وعيش حياةٍ زوجية كيفما اتفق إلى تلك الآونة من العمر الناضج التي يرفض فيها الموقف الذي كان سائداً إلى ذلك الحين فجأةً كلَّ خدمة .



في حالةٍ كهذه يبدو احتياز الشعور بتلك الأخيلة التي راودت الفاعل أثناء طفولته وتعلّقه بأهله وسيلةً ضعيفة على الرغم من أنّها بالطبع جزء ضروري من المنهج العلاجي وعلى الرغم أيضاً من أنها تستطيع أن تؤدي نتائج لا بأس بها . ولكن العلاج على العموم في حالة من هذا النوع لا يبدأ إلّا من اللحظة التي يدرك فيها المريض بأنّ ليس بعد أبوه أو أمه من يسدّ الطريق في وجهه ولكنّه هو نفسه أي ذلك الجزء الخافي من شخصيته الذي يمدد أو يخلد دور الأب أو الأم . ولكن مهما تكن فائدة هذا الإيضاح فإنّه هو الآخر سلبي لأنه يقرّر فقط ما يلي : «أعترف بأنّ من يقف ضدي ليس أبي ولا أمي بل أنّي أنا نفسي الذي أضع لنفسي العصي في الدواليب» .

ولكن ما هذا الذي في المريض ينتصب ضده ؟ ما هو ذلك الجزء السري في شخصيته الذي تقنّع خلف هيئة الأب أو الأم جاعلاً إياه يعتقد بأنَّ سبب علته كان يجتاحه من الخارج ؟ ما هو هذا الجزء السري ؟ لقد تكوَّن من الجزء المضاد ، الجانب السيء لموقفه الواعي فهو لا يتيح له أيَّ راحة محتفظاً بفعله المقلق إلى أن يُعترف به ويُقبل . إنَّ الخلاص من الماضي قد يكون كافياً بالطبع لدى الشباب لأنَّهم يواجهون مستقبلاً يناديهم وغنياً بالإمكانيات . تكفي غالباً مساعدتهم على التحرُّر من بعض الروابط ومن ثمَّ يقوم الاندفاع الحيوي بما تبقّى . ولكن عندما نكون إزاء أشخاصٍ يجرّون خلفهم جزءاً كبيراً من حياتهم ولم تعد تبتسم لهم وعود مستقبلٍ زاهر ولم يعودوا يُمَنّون النفس بشيءٍ آخر سوى إتمام واجباتٍ أصبحت مألوفةً لديهم منذ زمن طويل وبفرح الشيخوخة الضئيل فثمّة ما ينتظرنا هو عمل آخر مختلف كلَّ الاختلاف .

إذا ما نجحنا في تحرير الشباب من ماضيهم فنرى أنَّهم يعودون فيسقطون «إصويرات» **imagines** آبائهم على شخصياتٍ بديلةٍ أكثر تلاؤماً مع وضعهم النفساني الراهن : فالعاطفة التي لم تكن تتوصَّل إلى الانعتاق من الأم تنتقل إلى الزوجة التي يتعلَّق المرء بها وتُنسب سلطة الأب إلى أساتذة محترمين أو إلى مؤسسات . صحيح أنَّه ليس في ذلك حلٌّ جذري ولكنّه سبيل ومخرج عملي يستعين به خاصة الإنسان المسمّى سويّاً على نحوٍ خافي أيضاً ولذلك فهو يجري دون إظهار مقاومةٍ أو ضيقٍ ذي شأن .

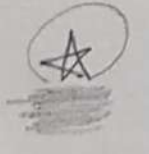
أمّا المسألة بالنسبة إلى الراشد الذي لم يكن ربّما قد أمضى هذا الجزء من حياته إلّا بشيءٍ من الصعوبة فإنَّ الأمر مختلف كلَّ الاختلاف . لقد تحرَّر من وجهة نظرٍ عاطفية من أهله الذين أصبحوا أمواتاً ربّما وبحث ووجد الأم في المرأة أو الأب في الزوج وأظهر تقديره واحترامه «لآباءٍ» ومؤسسات وأصبح هو نفسه أباً أو أماً أو ربّما أنّه قد صار يجرُّ كلَّ ذلك خلفه مع اعترافه في الطريق بأنَّ هذه الأشواق التي حقّقها والتي كانت في البداية تشكِّل بالنسبة إليه متطلبات وجلبت له إشباعاتٍ وتعويضات قد تحوَّلت كلّها إلى ضلالٍ مرهق هو ثمرة أوهام الشباب التي يتأمّلها اليوم بين متحسِّرٍ ومتشوِّق ذلك أنّه لم يعد بعد ينتظر شيئاً سوى الشيخوخة ونهاية أوهامه كلِّها . لم يعد من الآن يملك أن يقول بأنَّ له أباً أو أماً وكل ما أسقطه من أوهام في العالم وعلى الأشياء يعود إليه تدريجياً فاقد الرونق متعباً تالفاً . وكلُّ الطاقة التي كان قد وظّفها في علاقاته التي تبدو من الآن وهميةً إلى حدٍّ بعيد ترتدّ إليه وتسقط في خافيته حيث تنشّط

ما كان إلى الآن قد أهمل استثماره وتنميته في نفسه .

إذا ما توصلنا لدى الكائن الشاب إلى تفكيك القوى الغريزية المتسلسلة في العصاب والمعاقة به فإنَّ هذه القوى ما أن تتحرر حتى تمنح الفاعل اندفاعاً وأملاً وحظّاً في مستقبلٍ أفضل وإمكانات توسيعٍ لآفاقه . أمّا بالنسبة إلى الفرد الذي قد عبر إلى الجزء الثاني من حياته فإنَّ تنمية وظيفة الأضداد الهاجعة إلى ذلك الحين في خافيته هو ما سوف يوفّر له تجديداً وإنعاشاً لحياته . هذا الارتقاء لا يقوم بعد على تذويب المعوِّقات الطفولية وتدمير أوهام هي مخلّفات المراحل الأولى من العمر ولا على إسقاط الصور الوالدية على شخصياتٍ جديدة ، ذلك أن هذا الارتقاء لا يمكن أن يُبلغ إليه إلاّ من خلال مسألة الأضداد .

إن مبدأ الأضداد بما هي بالطبع مكوّنات أساسية للمنظومة الإنسانية هو أحد أسس الذهنية الشبابية ولا بد بالتأكيد لنظريةٍ نفسانيةٍ في النفس المراهقة أن تأخذ هذا المعطى بعين الاعتبار . كذلك فإنَّ نظريتي فرويد وأدلر لا تتناقضان إلاَّ متى زعمت كلٌّ منهما بأنَّها نظرية وحيدة عامة . وبالعكس فإنَّهما بقدر ما ترتضيان أن لا تكونا سوى عكازين فكريين ودعامتين تقنيتين فإنهما لا تتعاكسان بقدر ما لا تتنافيان . إن نظرية نفسانية تتوق إلى أن تكون أكثر من وسيلةٍ تقنيةٍ داعمةٍ يجب أن تقوم على مبدأ الأضداد وبدون هذا لن يكون بوسعها سوى إعادة تركيب منظومةٍ نفسيةٍ عصابية معدومة من التوازن بسبب افتقارها إلى قرنين متوازنين . ذلك أنَّ النفس نظام تعديل مِستِقِلٌ ولا يمكن أن يكون ثمّة توازن ولا نظام تعديلٍ ذاتيٍّ بدون قوى متضادة قادرة على التوازن .

## أ ـ ٢



فلنستعد هنا الخيط الذي تركناه سابقاً . لقد كانت هذه الاستطرادات ضرورية لكي تتيح للقارىء أن يستخلص بوضوحٍ بأنَّه إنَّما تكمن في العصاب كما في غلافٍ القيمُ التي يفتقر الفرد إليها .

فلنعد الآن إلى حالة تلك المرأة الهيسترية المذعورة من عربة الجياد التي تكلّمنا

عنها أعلاه ولنستخدم بصددها المعارف التي اكتسبناها إلى الآن . فلنتخيّل بأنّ هذه المريضة قد خضعت للتحليل أي أنّ علاجها أدّى بها إلى احتياز شعورٍ واضح بأفكارها الخافية التي كانت تجري خلف أعراضها وأنّها قد استعادت دفعةً واحدةً تلك الطاقة الخافية التي كانت تعينُ شدّة أعراضها ، ينطرح علينا السؤال العملي التالي : ما الذي يجب عمله بالطاقة التي نزعم بأنّها أصبحت من الآن قيد الاحتياط ؟ قد يبدو عقلياً بحسب النمط النفساني للمريضة أن تطلق تلك الطاقة إلى الخارج أي أن تطبّقها مثلاً على بعض أنشطةٍ إنسانية أو مفيدةٍ في مجال ما . وعلى نحوٍ استثنائي فإنّ هذا الانحراف ممكن لدى طبائع فعّالةٍ على نحوٍ قاس لا تخشى إيلام ذاتها حتى الدّم أو أيضاً لدى أشخاصٍ تأسرهم انشغالاتهم الثانوية ؛ ولكنّ الأمر ليس كذلك في معظم الحالات . لا يجوز أن ننسى بأنّ الليبيدو (الطاقة النفسية المسمّاة باسمها التقني) تملك من الآن غرضها على نحوٍ خافٍ وهو الشاب الإيطالي أو معادله الإنساني والواقعي جدّاً . إنّ تصعيداً كهذا في هذه الدروب ربّما كان أمراً مرجواً بشدّة بيد أنه في غير متناولنا . غالباً ما يقدّم الغرض الحقيقيُّ للطاقة منحدراً أفضل بكثيرٍ من أيِّ نشاطٍ أخلاقي مهما كان جماله . ثمّة فائض من الكتّاب الذين يتكلّمون دائماً عن الإنسان كما يُرجى أن يكون ولا يتكلّمون البتة عن الإنسان كما هو في واقعه . أمّا الطبيب فهو على علاقةٍ دائمةٍ بالإنسان الواقعي الذي يصرُّ على البقاء هو نفسه طالما أنّه لم يُعترف بحقيقته بكلّ وجوهها . لا يمكن لتنشئةٍ أن تنطلق إلّا من الواقع العاري وليس من صورةٍ خادعةٍ تُسقط سراب إنسانيةٍ مثالية .



لا بدّ للمرء من الوقوف على البداهة التالية : إنّ الطاقة المدعوة طاقةً احتياطية لا تترك في معظم الأحيان مجال التصرّف بها تصرّفاً اعتباطياً في سبيلٍ مقرّرٍ مسبقاً . إنها تتبع منحدرها الطبيعي المرسوم قبل أن نتمكّن من استخلاصه من شكله غير القابل للاستخدام . وفعلاً نكتشف بأنّ أخيلة مريضتنا التي كانت تتعلق بالشاب الإيطالي قد حوّلت الآن على الطبيب نفسه[1] . إذاً فالطبيب هو الذي أصبح غرض الليبيدو الخافي . إذا كانت المريضة لا تريد بأيِّ ثمن الاقرار بواقع هذا التحويل أو أيضاً إذا كان الطبيب لا يفهم هذه الظاهرة أو يفهمها فهماً سيئاً فإنّ مقاومات عنيفة

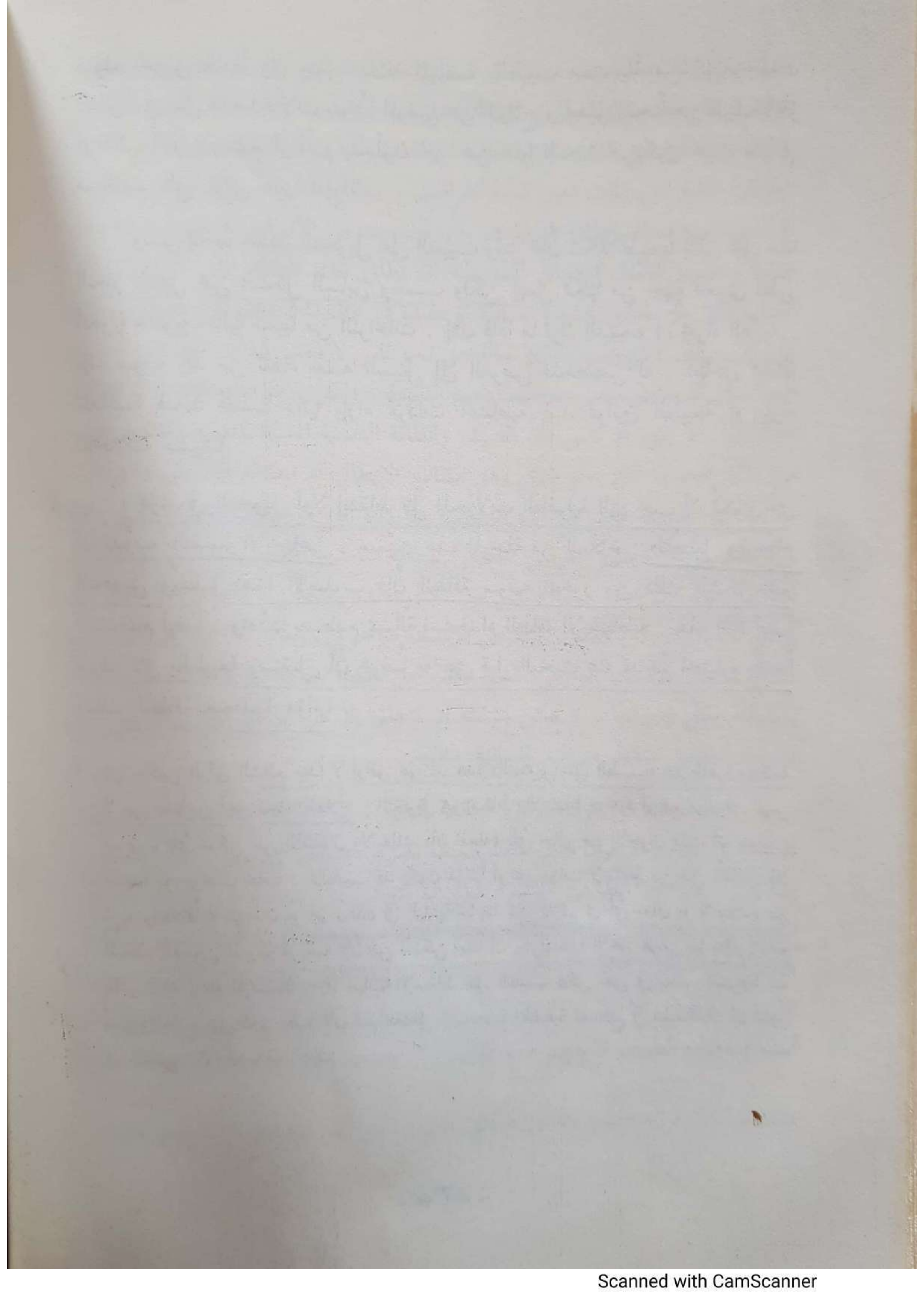
١ ـ لقد أدخل فرويد مفهوم «التحويل» لكي يشير إلى مثل هذا الإسقاط للمحتويات الخافية .

سوف تحصل هادفةً إلى جعل علاقة المريضة بالطبيب مستحيلةً من كلّ وجهات النظر[٢]. في مثل هذه الحالات يتخلّى المرضى عن العلاج ويذهبون بحثاً عن طبيبٍ آخر أو كائنٍ آخر يفهمهم أو أنّهم يتخلّون حتى عن هذا البحث مرتبكين حيث هم في مسائلهم التي تبقى غير محلولة .

ولكن إذا ما حدث التحويل على الطبيب وقُبل فإنّ شكلاً طبيعياً يُخلق على هذا النحو لا يحلّ محلّ الشكلِ السابق وحسب ولكن يجعل ممكناً من جهةٍ أخرى تطوّر أفعولةٍ طاقويةٍ خاليةٍ نسبياً من النزاعات . إذن فإذا ما تُرك الليبيدو في مجراه الطبيعي فإنه سوف يجد من تلقاء نفسه السبيل إلى الغرض المخصّص له . أمّا في الحالة المعاكسة فنجد أنفسنا دائماً بإزاء تمرّداتٍ اعتباطية ضد قوانين الطبيعة أو بإزاء تدخّلات مشوِّشة .

يجري في التحويل أولاً إسقاط كلّ المحوّلات الطفولية التي يجب أن تُكوى أي أن تُذوَّب بالتفسير الإرجاعي . سميّت هذه المرحلة من العلاج : **التحليل وإرجاع التحويل** ويفضل هذا الأسلوب فإنّ الطاقة سوف تتحرَّر من ذلك الشكل غير المستخدم أيضاً . ومجدَّداً نصطدم بمسألة استخدام الطاقة الاحتياطية . هذه المرّة أيضاً سوف نثق بالطبيعة وسنقبل بأنّ غرضاً ما حتى قبل البحث عنه قد تمّ اختياره مانحاً بذلك للطاقة منحدراً مؤاتياً .

٢ - إني بعكس الرأي الشائع جداً لا أوافق على أنّ هذا «التحويل على الطبيب» هو ظاهرة منتظمة لا غنى عنها من أجل نجاح العلاج . التحويل هو إسقاط والإسقاط موجود أو غير موجود . ليس ضرورياً بأيّ شكلٍ من الأشكال ولا نملك «أن نفعله» بأيّ حالٍ من الأحوال ذلك أنّه ينجبس تحديداً من بواعث خافية . فالطبيب قد يكون مؤاتياً أو غير مؤاتٍ لإسقاطٍ من قبل الفاعل فلا شيء وإطلاقاً لا شيء يتيح أن نحدّد في البداية ما إذا كان يلائم في أيّ حال أو لا يتلاءم مع المنحدر الطبيعي لليبيدو مريضه لأنّ من الممكن جداً أن يكون لهذا الأخير غرض ما خلفي أهم بكثير بمثابة وعاءٍ للإسقاط . إنّ غياب الإسقاط على الطبيب يمكن حتى في بعض الشروط أن يُسهّل العلاج على نحوٍ عظيم لأنّ قيم الفاعل الشخصية الحقيقية تستطيع في هذه الحال أن تظهر في المستوى الأول بدقةٍ أعظم .



## ٥

# الخافية الفردية والخافية الجمعية أو فوق الفردية

تبدأ عند هذا الطور من العلاج مرحلة جديدة من سيرورتنا الاستقصائية . فلنفرض بأنّنا تابعنا في الحالة الواقعية التذويب التحليلي للأخيلة الطفولية التحويلية إلى أن يكون المريض قد فهم هو أيضاً فهماً عريضاً بأنّه قد جعل من طبيبه ضرباً من أبٍ أو أمٍ أو عمٍ أو مربٍّ أو معلم أيّاً يكن في كلِّ حالةٍ نوعيةِ التنكّر الذي تتقلّده السلطة الوالدية . ولكن كما لاتني التجربة تبيّنه فإنَّ أخيلةً أخرى تنبجس ذاهبةً إلى حدٍّ تقديم الطبيب بمثابة المخلص أو كائنٍ شبيهٍ بالآلهة . . . على الرغم من التناقض الواضح مع الحكم السليم للواعية . بل قد يحصل أن تتجاوز هذه الصفات الإلهية بكثيرٍ إطار التصورات المسيحية التي نشأنا فيها وأن تأخذ اتجاهاتٍ وثنية وغالباً جداً أشكالاً حيوانية .

ليس التحويل بحدٍّ ذاته شيئاً آخر سوى إسقاطٍ من محتوياتٍ خافية . فالذي يتم إسقاطه أولاً هو المحتويات المسمّاة محتويات الخافية السطحية ، الأمر الذي نتعرّف إليه بفضل أحلام وأعراض وتخيلات المريض . في هذا الطور يكون الطبيب مشوّقاً كمثل عشيقٍ ممكن (أشبه بنوع الشاب الإيطالي الذي ذكرنا) . ثمَّ في طورٍ لاحق يبدو بالأحرى أشبه بأَبٍ عطوفٍ أو مرعبٍ تبعاً للصفات التي كان يتحلّى بها الأب الحقيقيُّ في عيني المريض . وأحياناً أيضاً يبدو الطبيب للمريض تحت شكلٍ أمويٍّ الأمر الذي يبدو من الآن غريباً بعض الشيء ولكن يمكن له عند الاقتضاء أن يدخل أيضاً في نطاقٍ ممكن . إنّ كلّ هذه الإسقاطات من الأطياف المُتخيّلة إنّما تستند على تذكّرات شخصية .

وفي نهاية الأمر تظهر شخصيات خيالية ترتدي طابعاً شاذاً . فالطبيب يظهر حينئذٍ مزوّداً بصفاتٍ شيطانية كساحرٍ مثلاً أو مجرمٍ شيطاني أو يظهر أيضاً مزوداً بصفاتٍ مماثلةٍ في الاتجاه الخيّر ويتراءى في مخيّلة المريض أشبه بمخلص . بل يمكن له أيضاً أن يجمع خليطاً من المظهرين . وبالطبع فإنّ واعية المريض ليست بالضرورة هي التي تدركه بهذه السمات فالأمر يتعلق بالحري بأطياف تصعد من أعماق الخافية وتعرِّف بها على هذا النحو . إنَّ بعضاً من هؤلاء المرضى يعانون غالباً من التصوّر والاقتناع بأنَّ هذه الأطياف تتحدَّر فعلاً من أنفسهم ومن أعماقهم وأنَّ ليس لها شيء البتة أو تقريباً لا شيء مع الطبع الخاص بالطبيب . هذا الضلال المتمكّن يصدر من أنَّ إسقاطاتٍ من هذا النوع لا تستند على أيِّ أساسٍ من التذكّرات الشخصية . ويمكننا أن نتوصل أحياناً إلى تبيان أنّ أطيافاً مضاهئة سبق لها أن تعلّقت في مرحلةٍ ما من الطفولة بالأب أو الأم دون أن يقدّم هذان الأخيران أيَّ ذريعةٍ واقعية .

لقد بيَّن فرويد في مؤلفٍ صغير[1] كيف أنَّ ليونارد دوفنتشي كان قد تأثّر في المجرى اللاحق لحياته بواقع أنه كان له أُمّان . فواقع الأمّين أو المنشأ المزدوج كان حقيقياً عند ليونارد لكنّه يلعب دوراً أيضاً عند فنانين آخرين . فقد كان عند بنفنوتو سليني هذا التخيل نفسه عن النسب المزدوج . زد على ذلك **أنَّ الأمر هنا يتعلق بباعثٍ أساطيري** . ثمّة أبطال عديدون في الأساطير لهم أمّان . فهذا الباعث التخيلي لا يتحدَّر مطلقاً من واقع أنَّ هؤلاء الأبطال قد كان لهم أُمّان فعلاً بل هُو يشكِّل صورة «أصليّة» شائعةً شيوعاً شاملاً وتشكِّل جزءاً من الأسرار الخفية لتاريخ وتطوّر العقل البشري وهذه الصورة لا تنتمي إلى نطاق التذكرات الشخصية .

ثمّة في كلِّ كائنٍ فردي فضلاً عن التذكرات الشخصية صور عظيمة «أصلية» إذا ما استخدمنا المصطلح الجريء الذي سماها به يوماً يعقوب بوركارت ، وهذه الأشكال الأسلافية مكوَّنة من إمكانيات التراث التمثيلي كما جرى تصوّره دائماً أي من إمكانات التصوّر البشري المتناقلَةِ وراثياً . إنَّ واقع هذا النقل الوراثي يفسر هذه الظاهرة غير المصدَّقة عموماً بأنَّ بعض المواضيع الأسطورية وأنَّ بعض الذرائع الفولكلورية تتكرَّر في كلِّ الأرض تحت أشكالٍ مماثلة . وفضلاً عن ذلك يشرح هذا

1 – Sigmund Freud, Un souvenir d'enfance de léonard de vinci 1910, Gallimard, Paris .

The Myth of the Birth of the Hero

The image is projected on to patients (the archetype)

النقل الوراثي كيف أنه يمكن مثلاً لمعتوهين أن يستعيدوا بدقة الصور عينها والصلات الترابطية عينها التي نجدها من الآن في نصوص قديمة . لقد قدّمت عنها أمثلة في كتابي «استحالات الليبيدو ورموزه»[1] . وأنا بقولي هذا لا أؤكد البتة النقل الوراثي للتمثيلات représentations ولكن فقط النقل الوراثي للقدرة على استدعاء هذا العنصر أو ذاك من التراث التمثيلي . وثمّة في هذا اختلاف هائل .



إذاً في هذه المرحلة الأكثر تقدماً في العلاج التي تتوالد فيها هذه التخيلات التي لم تعد بعد تستند إلى ذكريات شخصية يتعلق الأمر بتجلياتٍ تنبعث من الطبقات الأكثر عمقاً للخافية ، طبقاتٍ تهجع فيها الصور الأصلية التي هي عموماً عدة النوع الإنساني[2] . سمِّيتُ هذه الصور أو موضوعاتها أعياناً ثابتة . (ونسميها أحياناً أيضاً باسم «السائدات»). وأحيل القارىء من أجل تفاصيل أكثر لهذا المفهوم إلى مؤلفاتٍ أخرى .



يمثل اكتشاف هذه الصور العينية الثابتة تطوراً جديداً في مفاهيمنا . فهو يؤدي إلى التفريق بين طبقتين في الخافية هما خافية شخصية وخافية غير شخصية أو فوق فردية[1] . نسمي أيضاً هذه الأخيرة باسم الخافية الجمعية وذلك تحديداً لأنها منفصلة عن الأفلاك الشخصية القائمة على هامش هذه الأخيرة ولأنها تتمتع بطابع عام جداً ولأنه يمكن أن نصادف محتوياتها لدى كل الأفراد الأمر الذي ليس هو بالطبع حال المواد الفردية . أما الخافية الشخصية فتحوي الذكريات المنسية والذكريات المكبوتة (أي المنسية عمداً) للتمثيلات الشاقة والإحساسات الوصيدية أي للإدراكات الحواسية التي لم تكن شدتها كافية لتجاوز العتبة والنفاذ إلى الواعية وبالتالي المحتويات

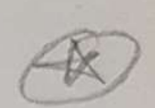
١ - . Epuisé , 1918 , Paris , Montaigne parue chez . trad , 1938 , 3e édition لا بدُّ أن يملك ما سبق

٢ـ مونتاني Montaigne أن سماه : «الوضع البشري» بأي شكلٍ من الأشكال قواماً نفسانياً : يبدو أن ذلك متعين الآن تماماً في هذه الصور الأصلية . (رك) .

٢ ـ أنظر استحالات الليبيدو ورموزه . الأنماط النفسانية(قيد الترجمة) .

أنظر خاصة علم النفس المركب ، شارل بودوان ، ترجمة سامي علام . دار الغربال دمشق ، ص ١٠١

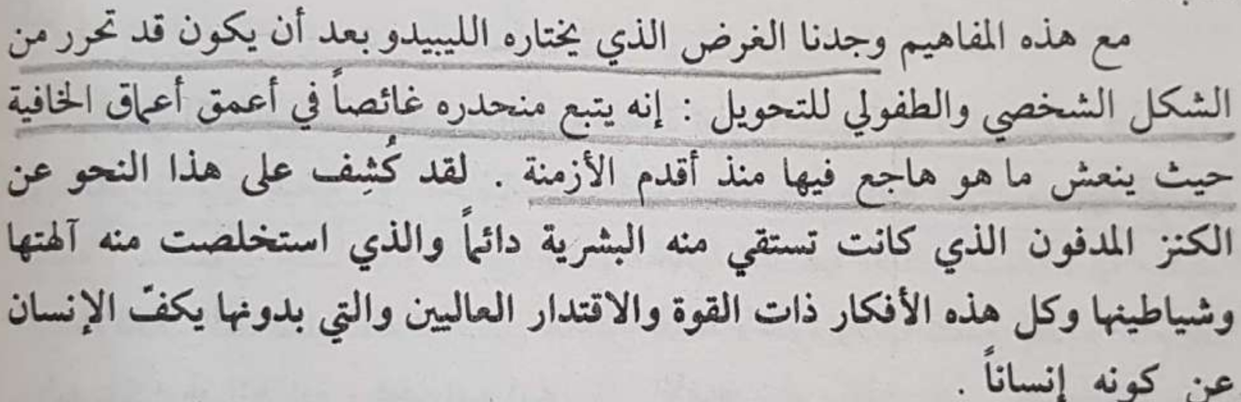
١ ـ تشكل الخافية الجماعية الجانب النفسي الموضوعي في حين تمثل الخافية الشخصيةَ النفسية بما فيها من ذاتي .



التي ليست بعد ناضجة بما يكفي للولوج إلى الواعية . إن الخافية الشخصية تتوافق في جزء كبير منها مع تلك الشخصية التي تظهر غالباً في الأحلام والتي سميتها الظل[2] .

وتشكل الصور الأصلية الأشكال التمثيلية الأكثر عمومية والأكثر بعداً الموجودة في خزانات البشرية . إنها بالمقدار عينه عاطفة وفكر بل لها أيضاً شيء من حياة خاصة مُستَقِلة ومستقِل وهي بذلك مضاهئة بعض الشيء لأنفس مُجتزأة[1]. ونستطيع أن نتحقق من ذلك بسهولةٍ في كل الأنظمة الفلسفية والعرفانية التي تقوم على النظر إلى الخافية بمثابة نبعٍ للمعرفة . إن تصور الملائكة ورؤساء الملائكة وتصور «العروش والسلاطين» عند القديس بولص وتصور الحكام عند العرفانيين والمراتب السماوية عند ديونيسوس الأريوباغي ، كل هذا ينحدر من إدراكٍ للاستقلالية النسبية للأعيان الثابتة .





مع هذه المفاهيم وجدنا الغرض الذي يختاره الليبيدو بعد أن يكون قد تحرر من الشكل الشخصي والطفولي للتحويل : إنه يتبع منحدره غائصاً في أعمق أعماق الخافية حيث ينعش ما هو هاجع فيها منذ أقدم الأزمنة . **لقد كُشِف على هذا النحو عن الكنز المدفون الذي كانت تستقي منه البشرية دائماً والذي استخلصت منه آلهتها وشياطينها وكل هذه الأفكار ذات القوة والاقتدار العالين والتي بدونها يكفّ الإنسان عن كونه إنساناً .**

فلنمعن النظر مثلاً بواحدة من أعظم الأفكار التي ولدت خلال القرن التاسع عشر وهي فكرة انحفاظ الطاقة التي أطلقها روبير ماير . Robert Mayerلقد كان طبيباً وليس فيزيائياً أو فيلسوف طبيعة يغرينا أن ننسب إليه خلق فكرة من هذا النوع . ومع ذلك فمن المهم أن نعرف بأن هذه الفكرة لم تولد من تلاقي التصورات والفرضيات العلمية الموجودة في ذلك الحين ولكنها تطورت لدى مبدعها على الطريقة النباتية . **كان ماير في كتابه إلى غريزنجر عام ١٨٤٤ يعبر عن نفسه على النحو التالي : «ليس بضغط الجبهة ولا بجهد التفكير على طاولة العمل اكتشفت هذه النظرية» . ويتابع رسالته طارحاً أمام مراسله بعض الملاحظات**

١-أنظر الإنسان يبحث عن نفسه :نظرية المركبات ، الفصل الخامس ،
ترجمة سامي علام وديمتري أفييرينوس دار الغربال ١٩٩٣

٢ -إني أشير بمصطلح «الظل» إلى الجزء السلبي من الشخصية أي إلى مجموع الأخطاء المخبأة والوظائف المتخلفة في نموها والمحتويات غير الإيجابية للخافية الشخصية .

الطبائعية التي التقطها بين عامي ١٨٤٠-١٨٤١ كطبيب مساعد فيختم على النحو التالي : «إذا ما أردنا توضيح مسائل طبائعية physiologiques فلا مندوحة لنا عن معرفة السيرورات الطبيعية إلا إذا فضلنا أخذ هذه الأشياء من زاوية الغيب (ما وراء الطبيعة) الأمر الذي أنفر منه كل النفور لذا فإني التزمت بحدود الفيزياء وأكببت عليها بمقدار من الحماس - الأمر الذي قد يحمل كثيرين من الناس على الاستهزاء بي - بحيث كنت قلما أكترث بالإقليم البعيد الذي كنا نحاذيه وبحيث كنت أفضل البقاء بمحاذاته حيث كان بإمكاني أن أعمل دون انقطاع وحيث كنت أشعر بنفسي في بعض الساعات شعور المُلْهَم ولم يحدث لي شيء مشابه البتة على ما أذكر لا قبل ولا بعد . ثمة شذرات فكرية خطرت لي - كان ذلك خلال مرسى في سوراباجا - لاحقتها بحماس في الحال فأدَّت بي أيضاً إلى مواضيع جديدة . لقد ولت تلك الأزمنة بيد أن فحصاً متأنياً لما انبجس فيَّ حين ذاك قد علمني بأن الأمر كان يتعلق بحقيقةٍ لا يمكن استحساسها استحساساً ذاتياً وحسب بل البرهان عليها برهاناً موضوعياً . هل يمكن أن يصوغ هذا البرهان إنسان مثلي ضئيل الاطلاع على الفيزياء ؟ هذا هو بالطبع ما لا يعود إلي أن أحكم فيه» .

إن هيلم Helm في مؤلفه «علم الطاقة» قد أبدى رأيه «بأنَّ فكرة روبير ما ير الجديدة لم تُسْتَخْلَص استخلاصاً تدريجياً بدراسةٍ وتفكيرٍ معمقين من التصورات التقليدية التي كنا نصوغها عن القوة بل أنها تنتمي إلى تلك الأفكار المدركة إدراكاً حدسياً التي بتحدرها من ميادين أخرى للفكر تستولي تقريباً على الفكر وتلزم التصورات التقليدية على التحول في اتجاهها» .

والمسألة التي تنطرح الان هي في معرفة المصدر الذي كانت تتحدر منه الفكرة الجديدة التي فرضت نفسها على الوعي باقتدارٍ جدًّ ابتدائي . ومن أين كانت تستقي تلك القوة التي كانت تسود الواعية إلى حدًّ أن تجردها من الانطباعات المتنوعة لأول سفرة إلى المدارات الاستوائية ؟ ليس من السهل الإجابة على هذه الأسئلة ! فإذا ما طبقنا تصوراتنا على هذه الحالة فيجب أن يكون تفسيرنا لها هو التالي : إنَّ فكرة الطاقة وانحفاظها يجب أن تكون فكرةً أصليةً تهجع في الخافية الجمعية . هذا الاستنتاج يلزمنا بالطبع على البرهان بأن صورةً أصليةً مثل هذه كانت موجودةً حقاً في

قانون مصونية الطاقة

تاريخ العقل البشري وأنها أثارت الإحساس بتأثيرها عبر آلاف السنين . وبالفعل فإنه يمكن تقديم هذا البرهان حقاً بدون صعوبات خاصة : **إن الديانات الأكثر بدائية في الأرجاء المتعددة من الكرة الأرضية إنما هي قائمة على هذه الصورة . إنها الديانات المسماة زخماوية dynamistes** التي تقوم فكرتها الوحيدة السائدة على تأكيد وجود قوةٍ سحريةٍ حاضرةٍ في أي مكان وبمثابة مركزٍ لكل الأشياء[1] . لقد ارتكب تايلور Taylor العالم الانكليزي المشهور وكذلك فريزر Frazer سوء الفهم بنظرهما إلى هذه الفكرة على أنها الإحيائية (animisme) . فالبدائيون في الواقع في تمثيلهم لقوةٍ ما لا يقصدون البتة الأنفس أو الأرواح ولكن شيئاً ما كان العالم الأميركي لافجوي[2] يسميه على نحوجريءٍ باسم «الطاقات البدائية» . هذا المفهوم الأخير يتلاءم مع تصورٍ للنفس والروح والله والصحة والقوة الطبيعية والخصوبة والسحر والتأثير والاقتدار وإمعان النظر والمداواة كما مع بعض حالات النفس التي تتميز بانفلات الوجدانات . فـ «المولونغو» لدى بعض الأقوام البولينيزية (هذا تحديداً اسم هذا التصور للطاقة عند البدائيين) هو روحٌ ، نفسٌ ، كائنٌ شيطاني ، سحرٌ ، إمعانُ نظر وإذا ما حدث شيء ما مذهل وغير متوقع يصيح هؤلاء البولينيزيون : «مولونغو» . هذا المفهوم للقوة هو أيضاً لدى البدائيين الشكل الأول لتصورهم لله . لقد تطورت هذه الصورة على مدار التاريخ عبر تنوعاتٍ متجددةٍ دائماً . القوة السحرية في العهد القديم تشتعل في العليقة الملتهبة وتضيء وجه موسى ؛ وفي الإنجيل تهطل من السماء مجسِّدةً الروح القدس في شكل ألسنةٍ نارية . أما عند هيراقليط فتظهر بمثابة طاقة الكون مثل «نارٍ حيَّةٍ خالدة» ؛ وهي عند الفرس ضياء نار «الهاعوما» ، **النعمة الإلهية**ونجدها عند الرواقيين في الحرارة البدئية ، قوة القدر . وتظهر في أساطير العصر الوسيط أشبه بهالة القداسة الشعاعية التي تنبعث مثل شعلةٍ محمرة من سقف الكوخ الذي يكون القديس فيه في حالة انخطاف . والقديسون في رؤاهم يرون إشعاع هذه القوة مثل شمسٍ وكفيضٍ من النور . وتبعاً للتصور القديم فالنفس ذاتها هي هذه القوة . إن مفهوم خلودها لينطوي على انحفاظها وثمة في التصور البوذي والبدائي للتقمص أو مهاجرة الأرواح ما يعبر عن قدرتها اللامتناهية على الاستحالات مضافةً إلى انحفاظها الثابت .

١ ـ هذه القوة تدعى «مانا» .

٢ ـ Lovejoy, the Monist. vol. 16.p.361

هذه الفكرة إذاً منقوشة في المخ البشري منذ أزمنة سحيقة . لذلك فانت تجدها قيد الاحتياط في خافية كل منا ولا نحتاج إلى أكثر من بعض الظروف لجعلها تنبجس منها . هذه الظروف كانت ظاهرياً مستوفاة عند روبير ماير . إن أعظم أفكار الإنسانية وأجملها إنما تتشكل من هذه الصور الأولية التي هي بمثابة ترسيمات قاعدية . ولطالما سُئِلْتُ من أين يمكن لهذه الأعيان الثابتة أو الصور الأصلية أن تتحدَّر . فيبدو لي أن من المستحيل تفسير تشكلها دون الاعتراف بأنها تكَوِّن ترسب الخبرات البشرية المتجددة أبداً . إن أولى هذه الخبرات الأكثر شيوعاً وأعظمها تأثيراً في الوقت عينه هي على ما يبدو لي المسار اليومي للشمس . إننا لا نستطيع فعلاً اكتشاف أقل أثرٍ في الخافية لهذه الظاهرة الطبيعة بما هي كذلك غير أننا نجد فيها أسطورة البطل الشمس في تنويعاته التي لا حصر لها[1] . هذه هي الأسطورة التي تجسد العين الثابتة للشمس وليس الظاهرة الطبيعية . وفي وسعنا أيضاً أن نقيم إثباتات مضاهئة فيما يتعلق بأطوار القمر . العين الثابتة هي ضرب من جاهزية ، من نزوع إلى إعادة توليدٍ متجددةٍ دائماً للتمثيلات الأسطورية عينها أو للصور المضاهئة . يبدو من هذا بأن ما يعبر عن نفسه في الخافية هو حصراً التخيُّل الطبيعي والذاتي المستثار من الظاهرة الطبيعية التي يتلاءم معها ويصاديها . إذاً في وسعنا الإقرار بأن الأعيان الثابتة مكونة من انطباعات الرجع الذاتية المكررة عديداً من المرات . هذه الفرضية لا تفعل بالطبع شيئاً سوى أنها ترد المسألة إلى الوراء دون أن تقدم لها حلاً . لا شيء يمنع من الإقرار بأن بعض الأعيان الثابتة موجودة من الآن لدى الحيوانات وأن الأعيان الثابتة بالتالي لها وجودها القائم في الخاصيات عينها للأنظمة الحية وأنها بلا قيدٍ ولا شرط تعبير عن الحياة وتجلٍّ يفلت وجوده وشكله من كلِّ محاولات التفسير . الأعيان الثابتة على ما يبدو ليست فقط نتيجة الانطباعات التي تركتها الخبرات النمطية المتجددة في مسرى الوجود الفردي والحياة البشرية ولكنها تسلك فضلاً عن ذلك منظوراً إليها من جانب تجريبي بمثابة مراكز طاقوية وقوى أو نزعات تدفع الفاعل إلى تجديد هذه الخبرات عينها . وفعلاً فإن كل مرةٍ تنبجس عين ثابتة في الحلم أو في المخيلة أو تتجلى في الحياة فإنها تجلب معها

١ - نحن لا نجد أثراً في الخافية الجماعية للظاهرة الفيزيائية بما هي كذلك ولكننا نجد الصور النفسية التي أطلقتها ونفسنتها إذا جاز القول واندماجها النفسي تحت شكلها الأولي ورسماتها الأصلية (رك)

وتمارس «تأثيراً» وقوةً يستشعرها المرء من خلال قدرتها على أنها «قدسية»[1] فاتنة أو محرضة على العمل .

بعد أن قدَّمت هذا المثل الذي بيَّن كيف تنشأ أفكار جديدة من تراث الصور الأولية فلنعد إلى وصف أفعولة التحويل :

لقد رأينا بأنَّ الليبيدو قد وجد غرضه الجديد في أطيافٍ شاذةٍ في الظاهر ومفككة هي واقع المحتويات الخافية الجمعية . وكما كنت أقول فيما سبق فإن إسقاط الصور الأولية على الطبيب يشكل من أجل استمرار العلاج خطراً يجب الاحتراز من استبخاس حسامته . ذلك أن هذه الصور الأولية لا تحوي فقط كل ما هو أجمل وأعظم في قلب ما فكرت به البشرية إطلاقاً وأحست به أو استشعرته ولكن أيضاً أسوء المعايب وأشد الإبداعات جهنميةً التي تمكن منها بنو الإنسان . وبسببٍ من طاقتها النوعية فإن هذه الصور التي تسلك إذاً بمثابة مراكز مستِقلى **autonomes** مشحونة بالطاقة تمارس تأثيراً مفتناً قادراً باستحواذه على وعي المرء على إفساده إفساداً عميقاً . إن بإمكان المرء أن يتحقق من هذا المستوى من الوقائع في مناسبة الاهتداءات الدينية والتأثيرات الإحيائية وخاصةً لدى تفتح بعض الأشكال الفصامية[1] . فإذا كان المريض حينئذٍ لا يتوصل إلى التفريق بين شخصية الطبيب وهذه الاسقاطات فلن يكون بعد ذلك بينهما أيُّ وسيلة للتفاهم البتة ولا أي إمكانٍ للفهم لأن كل علاقةٍ إنسانيةٍ[2] تصبح مستحيلة بينهما . أما إذا كان المريض يتجنب الدُّب ويقع في الجُب باستسقاطه لهذه الصور أي أنه ينسبها لنفسه بدل أن ينسب صفاتها إلى الطبيب فإن الخطر الذي تنطوي عليه خطورة كهذه هائل أيضاً بمقدار الموقف السابق . فالمريض يتأرجح خلال الإسقاط بين عبادةٍ شاذةٍ مرضيةٍ من جهةٍ واحتقارٍ حاقد لطبيبه من جهةٍ أخرى أمّا خلال الاستسقاط فإنَّه يقع في عبادةٍ صنميةٍ

١ ـ ترجمة لكلمة numinos اللاتينية وهي من numen التي تعني الإرادة الإلهية والفائق الطبيعة . وتشير إلى شيء فائق الوصف وسري ورحيب ومفارق كل المفارقة (رك) وهذا ما تعنيه بالضبط كلمة «قدسي» بالعربية (م) .

١ ـ تجد واحدةً من هذه الحالات محللةً في كتاب : «استحالات الليبيدو ورموزه» .

٢ ـ التي هي الشعاع الموجه الجوهري والوحيد لكل العلاج التحليلي (رك) .

مضحكةٍ لنفسه أو هو بالعكس يمزّق نفسه على صعيدٍ أدبي متفككاً إلى قطعٍ عدّة . إنَّ الضلالة التي يرتكبها في الحالتين هي بإضفائه على شخصٍ ما المحتويات الخافية الجمعية بحيث أنه يجعل من طبيبه أو من نفسه الإله أو الشيطان . في هذه الظواهر ينكشف طراز العمل المميّز للعين الثابتة إذ يستولي على المنظومة النفسية بنوعٍ من القوة الأصلية ويلزمها على تجاوز حدود القطاع البشري حصراً معيّناً على هذا النحو مبالغةً وإحساساً بالتضخّم (التضخّم النفسي !) وعدم استعدادٍ قاهراً وأوهاماً تستحوذ كلّها على الفرد في سبيل الخير أو في سبيل الشرّ . ذلكم هو السبب الذي من أجله كان البشر بحاجةٍ دائمةٍ إلى الشياطين والذي لأجله لم يستطيعوا البتة أن يعيشوا من دون آلهة باستثناء بعض الأنماط الذكية على نحوٍ خاص «للإنسان الغربي» البارح أو ما قبل البارح . فالله قد مات بالنسبة لهؤلاء الذين هم أشبه ببشرٍ متفوقين ولذلك فإنّهم أصبحوا آلهةً هم أنفسهم . . . (آلهة الدوشينية) ذوي جماجم سميكة وقلوبٍ باردة ذلك أنّ مفهوم الله يستجيب لوظيفةٍ نفسانيةٍ ضروريةٍ إطلاقاً ذات طبيعةٍ لا عقلية . وهذا المفهوم ليس فيه شيء مشترك مع مفهوم وجود الله . أمّا فيما يتعلّق بهذه المسألة الأخيرة فإنّ الذهن البشري لن يتمكن البتة من الإجابة عليها والأشد استحالةً أيضاً هو إعطاء أيّ برهانٍ على وجود الله . زد على ذلك أنّ برهاناً كهذا هو بلا فائدة البتة ذلك أنّ فكرة كائنٍ إلهيٍّ كلّي القدرة هي فكرة شائعة في كلّ مكان إن لم يكن شيوعاً واعياً فعلى الأقل شيوعاً خافياً لأنّها فكرة تكوّن عيناً ثابتةً . ثمّة بالفعل شيء ما في نفسنا ذو قدرةٍ فائقة - وإذا لم يكن هذا الشيء على نحوٍ واعٍ هو الله فهو بطننا على الأقل كما يقول القديس بولس . لذلك أعتقد بأنّ من الحكمة الإقرار إقراراً واعياً بفكرة الله ففي حال غيابها ثمّة بكل بساطةٍ شيء آخر سيتمّ تأليهه وهو عموماً شيء غير كافٍ البتة وبهيميٌّ جدّاً يتوافق مع ما يمكن أن يصوغه وعي «متنورٌ» كما يجب . إنَّ ذهننا يعلم منذ زمنٍ طويلٍ بأننا لا نستطيع تكوين فكرةٍ دقيقةٍ عن الله وأننا قلما نستطيع أيضاً تصوره في وجوده الحقيقي وفي شكله الواقعي . إنَّ وجود الله مسألة لا نملك أن نجيب عليها نهائياً . ومع ذلك فإنّ «الحس المشترك» بين الناس وحكمة الأمم تتكلّم عن آلهة منذ أيونٍ وستستمر أيضاً في الكلام إلى أبعد القرون . فمهما بدا عقل الإنسان له جميلاً وكاملاً فإنّ بإمكانه الإيقان بالمقدار عينه بأنّ هذا العقل لا يشكّل في كلّ الأحوال سوى وظيفةٍ من الوظائف العقلية الممكنة وأنّه

لا يتطابق سوى مع مظهر الظاهرات التي تناسبه . بيد أنّ حوله ومن كلّ الجهات يقبع اللا عقلي وكلّ ما لا يتطابق مع العقل . غير أنّ هذا اللا عقلي هو أيضاً وظيفة نفسانية أعني بها الخافية الجمعية في حين أنّ العقل مرتبط جوهرياً بالوعي . إنّ الواعية بحاجةٍ إلى العقل لكي تكتشف أولاً نظاماً في شواش الحالات الفردية غير المنتظمة التي تعمّر الكون ولكي تخلق فيها بعد هذا النظام وتخلق تناظماً على الأقل في الميادين الإنسانية . نحن نتمتع بنزعة محمودة ومفيدة إلى استئصال شواش اللا عقلي فينا وخارجاً عنا بكلّ ما يمكننا . غير أننا قد دفعنا بعيداً جدّاً في الظاهر بهذا الأسلوب الإجرائي . كان معتوه يقول لي ذات يوم : «سيدي الطبيب لقد طهّرت هذه الليلة كلَّ السماء بواسطة مُصعِّدٍ (كيميائي) وعلى الرغم من ذلك لم أكتشف أيَّ إله» . هذا هو بالتقريب ما حصل لنا أيضاً .

إنَّ هيراقليط العجوز الذي كان حقّاً حكيماً عظيماً قد اكتشف أروع القوانين النفسانية وأعني به **وظيفة الأضداد الموازِنة** وسمّاها **الانضداد (enantiodromie)** (التسابق في اتجاهٍ متعاكس أي ما كان يقصد به أنَّ كلَّ شيءٍ سينقلب يوماً إلى ضده . (أذكّر هنا بحالة رجل الأعمال الأمريكي الذي ذكرناه أعلاه الذي يقدِّم لنا مثلاً جيداً على الإنضداد). على هذا النحو ينتهي بالضرورة الموقف العقلي المتحضر إلى ضده أي إلى اجتياح اللا عقلي للثقافة[1] فلا يحقّ لنا في الواقع أن نتواحد مع العقل نفسه لأنَّ الإنسان ليس عاقلاً وحسب ولا يمكنه أن يكون كذلك ولن يكون البتة . إنَّ على كل المعلمين في مدرسة الحضارة أن يلاحظوا ذلك جيداً . لا يجوز ولا يمكن استئصال اللا عقلي . لا يمكن أن تموت الآلهة ولا يجوز أن تموت .

كنت أقول لتوّي بأنَّ ثمّة شيئاً ما كان يبدو دائماً في النفس الإنسانية أشبه بقدرةٍ

١ ـ كتبت هذه الجملة خلال الحرب العالمية الأخيرة وقد تركتها في شكلها الأولي لأنها تحوي حقيقة سترى الضوء أكثر من مرّةٍ أيضاً خلال التاريخ (ملاحظة كُتبت في عام ١٩٢٥) فكما تبينُ الأحداث المعاصرة لم يطل الوقت طويلاً للأسف حتى ثبت هذا التأكيد . من هو إذاً محرِّك هذه الاجتياحات العمياء ؟ . . . إنّ الكل يؤازرون شيطان التدمير باندفاعٍ لا حدود له . يا لبساطة القداسة ! (ملاحظة كُتبت عام ١٩٤٢) .
ـ ويا لهول ما نرى اليوم أيضاً من اقتتال وتدمير متعمَّد في كل أرجاء المعمورة مترافقٍ مع ما زعم عن نظام عالمي جديد وسيادة قطب عالمي واحدٍ متمثلٍ في الولايات المتحدة الأمريكية (م) .

فائقةٍ وأنّه إذا لم يكن فكرة الله فهو البطن بحسب عبارة القديس بولص . كنت أريد بذلك التعبير عن واقع أنه يوجد دائماً جموح أو مجموع معينٌ من تمثيلاتٍ يتساتل عليه أعظم قدرٍ من الطاقة النفسية وأنّه بذلك يخضع الأنا لسيطرته . إنَّ الأنا مشدودة عادةً إلى مركز الطاقة هذا إلى حدٍّ أنّها تتواحد معه وتعتقد بأنّها ليست بحاجةٍ لشيءٍ آخر غيره وأنّه ليس ثمّة شيء آخر ترجوه . ولكن من هذه النقطة عينها ينبعث ميلٌ ، هوسٌ أحادي الجانب ، استحواذٌ ، اقتصارٌ مدفوعٌ إلى أقصاه يجعل التوازن النفسيَّ في مهبّ أهوج الرياح . إنَّ ملكة الانكباب على هذا النحو على نشاطٍ معيّنٍ أحادي الجانب هو بالتأكيد سرٌّ بعض النجاحات ولذلك فإنَّ حضارتنا تبذل جهوداً عظيمةً من أجل تطوير النزعات الاقتصارية . فالهوى أي اختزان الطاقة الذي ينعش أهواساً أحاديةً من هذا النوع يشكّل ما كان الأقدمون يدعونه «إلهاً» . ولغتنا اليوم تفعل الشيء عينه . لا نقولنَّ : «إنّها تجعل منه عالماً»[1] بخصوص هذا الشيء أو ذاك ؟ إنَّ المرء ما يزال يظن نفسه مالكاً للإرادة وحرية الاختيار ولا يدرك بأنّه قد استحوذ عليه وأنَّ الهوى أصبح سيّده واستولى على السلطة . إنَّ مراكز اهتمامٍ كهذه تفعل ما قد كانت الآلهة لتفعله . وإذا ما تمَّ استشعار ذلك لدى عددٍ كبيرٍ من الأفراد فسيتكون شيئاً فشيئاً معابد و«كنائس» تجمع المصلحة المشتركة في داخلها قطيعاً من المؤمنين . هذا هو ما نسمّيه اليوم «التنظيم» . بيد أنَّ تكوين هذا التنظيم يتبعه لا محالة رجعٌ مفكّكٌ فوضويٌّ يهدف حقّاً إلى طرد الشيطان بواسطة بعل زبول[2] .

إنَّ الانضداد الذي يهدِّد دائماً عندما تبلغ حركة ما إلى السلطة على نحوٍ لا ينازع لا يشكّل مع ذلك حلاًّ للمسألة لأنّه هو أيضاً أعمى في نزعته المفكِّكة بمقدار ما كان عليه سابقاً التنظيم في مراحل إعداده .

إنَّ قانون الانضداد القاسي لن يوفِّر سوى الذي يعرف أن يتميز ويتفارق عن خافيته ولا يتم ذلك عبر الكبت الذي نتيجته الوحيدة استيلاء الأشياء المكبوتة على الفاعل دون علمٍ منه كما لو كانت تفاجئه من خلفه بل بالنظر إلى الخافية مواجهةً

١ ـ العبارة الألمانية الموازية الماثلة في النص تُترجم حرفياً كما يلي : «إنّه يجعل منه إلهاً (ر . ك)» .

٢ ـ اسم لسيد الشياطين ورد ذكره في العهد الجديد واذا كان الشيطان يطرد شيطاناً فمعنى ذلك أن الشيطان قد انقسم على نفسه وهو ما يقصد المؤلف قوله بهذه الكناية (م) .

كشيءٍ متميِّزٍ كلَّ التميز عن الأنا .

هذا الموقف يمكن من حل المسألة المثارة أعلاه ومعرفة كيفية التخلص من الدب دون الوقوع في الجب . على المعاود أن يتعلَّم التفريق بين الأنا واللا أنا أي المنظومة النفسية الجمعية . في هذه الحال سوف يحرِّر ويكتسب المواد التي عليه أن يجابهها بل أن يتعارك معها انطلاقاً من هذه اللحظة ولزمنٍ طويل . إنَّ طاقاته التي كانت فيما سبق متلبسةً بأشكالٍ قليلة الفائدة بل حتى مرضية سوف تجد انطلاقاً من هذا الواقع مجالها الحقيقي . إنَّ التفريق بين الأنا واللا أنا النفسانية يفترض أن يكون الفرد مستقراً استقراراً راسخاً في وظائف أنيته أي أنَّه يتمِّم واجبه إزاء الحياة لكيما يكون من كلِّ وجهات النظر عضواً قابل الحياة في المجتمع البشري . فكلُّ ما يهمله بهذا الخصوص يقع في الخافية ويقوّي موقفها بحيث أنَّ الإنسان يركب خطر الوقوع في شدقها . وإذا ما حصل هذا الابتلاع فإنَّه يخضع المرء لعقوباتٍ جسيمة . فكما يوحي بفهمه سينسيوس Synésius العجوز فإنَّ «النفس المروحنة» تصبح إلهاً وشيطاناً وتتعرَّض في هذه الحالة إلى العقوبات الإلهية أي إلى التمزيق الزغري Zagrée الذي استشعره نيتشه هو أيضاً في بداية مرضه العقلي . إنَّ الانضداد يقوم على الابعاد ما بين عناصر زوجي المتضادات . زد على ذلك أنَّ هذه الأزواج المتضادة لا تنتمي سوى إلى إلهٍ وإلى الإنسان المؤلَّه الذي يدين بصورته لإله ، وتحديداً إلى واقع أنه تجاوز آلهته .

إننا ما أن نتكلَّم عن الخافية الجمعية حتى نجد أنفسنا في فلكٍ أو أنَّنا نبلغ مستوىً ومسائل لا تدخل بدايةً في خط اعتبارنا بالنسبة للتحليل العملي للمرضى الشباب أو بالنسبة إلى أولئك الذين بقوا طفوليين زمناً طويلاً جدّاً . فعندما يتعلَّق الأمر أيضاً بتجاوز سطوة الأب أو الأم أو صورهما أو عندما يتعلق الأمر باكتساب معطياتٍ خارجية تقع بالطبع في مدار أمنيات الإنسان المتوسّط فإنَّنا نفعل حسناً بعدم الكلام البتة عن الخافية الجمعية وعن مسألة الأضداد . ولكن عندما يتمُّ تجاوز التحويلات إزاء الوالدين وأوهام الشباب أو عندما يكون هذا الأمر على وشك أن يحصل فسيكون علينا فعلاً مقاربة مسألة الأضداد والخافية الجمعية . لأنَّنا مذ ذاك نجد أنفسنا فيما وراء مدى نظريتي فرويد وأدلر الإرجاعيتين فلا نملك بعد فعلاً أن

نتساءل عن كيفية إبعاد ما يعيق فرداً عن ممارسة مهنته أو عقد زواجه أو أن يكون له نشاط معين يمثّل امتداداً لحياته ولكنّ مهمتنا هي مساعدة الفاعل على إيجاد مسوّغ وجوده ، هذا المسوّغ الذي يجعل على العموم متابعة الحياة ممكنة بمقدار ما يجب أن تكون الحياة أكثر من مجرّد انقيادٍ أو انكفاءٍ حزينٍ على الماضي .

إنّ حياتنا أشبه بالشمس فعند الصباح تأخذ الشمس بزيادة قوتها زيادة تدريجية إلى أن تبلغ ذروة لمعانها وشدتها عند الظهر . حينئذٍ يبدأ الانضداد فلا يعود سيرها الثابت يتضمن بعد زيادةً في قوتها بل نقصان تلك القوة وانطلاقاً من هذا الواقع فإنّ مهمتنا إزاء إنسانٍ شاب ليست هي نفسها بحضور إنسانٍ مُسن . إذ يكفي عند الأول إزالة الحواجز التي تعيق التفتح والصعود أمّا لدى الثاني فعلينا تنشيط كل ما بإمكانه أن يقدّم دعماً لمسار الانحدار فالشباب حيث لا خبرة لهم يعتقدون غالباً أنّ بإمكانهم إهمال المسنّين الذي لم يعد بعد حقاً يُنتظر شيء منهم والذين يمثلون في أفضل الأحوال مخلّفاتٍ متحجرةً من الماضي . بيد أنه من الضلال الجسيم الاعتقاد بأنّ الحياة تستنفد معناها خلال طور الشباب والتمدد وأنّ امرأةً مثلاً ينتهي أمرها بعد سن الياس . فما بعد ظهيرة العمر لها من المعنى بمقدار ما لصباحها بيد أنّ معناها وهدفها مختلفان كلّ الاختلاف . إنّ للإنسان غايتان في الحياة ؛ الأولى هي الغاية الطبيعية ، إنجاب ذريّةٍ والرعايات التي تستلزمها حماية مجموع الأسرة والرعايات التي من ضمنها الربح والوضع الاجتماعي وعندما يكون الصيف قد أشبع هذه الغاية يبدأ من ثمّ طور آخر هو الطور الذي هدفه الثقافة . فلكي نبلغ إلى الأول من هذه الأهداف نجدنا مؤزرين بالطبيعة وفوق ذلك بالتربية أما لكي نبلغ إلى النهاية الثانية فليس ثمّة شيء يشدّ من أزرنا أو ربّما الشيء القليل . بل غالباً ما نصادف حبّاً ذاتياً في غير مكانه يتوق بموجبه إنسان مسن إلى أن يكون أشبه بإنسانٍ شاب أو لعلّه على الأقل يتراءى كذلك على الرغم من أنّه لا يستطيع في أعماق ذاته الالتزام بهذا الوهم . لذلك فإنّ العبور من طور الحياة «الطبيعي» إلى طورها «الثقافي» هو بالنسبة إلى أشخاص كثيرين بالغ المرارة والمشقة ذلك أنهم يتعلّقون بأوهام الشباب أو حتى بأطفالهم متأمّلين على هذا النحو بِزقة من فتوة . يصادف هذا الموقف خاصةً لدى الأمهات اللواتي يرون أن سبب وجودهن كله قائمٌ في أطفالهن وأنهن سيسقطن في عدم لا قعر له عندما يبدأ أطفالهنّ يخفقون بأجنحتهم وأنّ عليهنّ حينذاك أن يتوقفن عن تكريس حياتهنّ لهم .

فليس ثمّة إذاً ما يدعو إلى التعجب إذا كان عدد كبير من الأعصبة الخطيرة يفصح عن نفسه في بداية ما بعد ظهيرة العمر . إنّه طور أشبه بضربٍ من بلوغٍ ثانٍ أو مرحلة من «عاصفةٍ وضغط» متميزة غالباً بكلّ كوارث الهوى (العمر الخطير) . بيد أنّ المشكلات التي تنبجس في هذا العمر لا يمكن بعد حلها بواسطة الوصفات التي أثبتت نجوعها في المراهقة لأنّ عقرب ساعة الحياة لا يمكن إرجاعه إلى الوراء . **فما كان الشباب قد وجده وكان عليه أن يجده في الخارج فإنّ على إنسان ما بعد ظهيرة عمره أن يجده في داخله** . تطالعنا هنا مشكلات جديدة تثير غالباً العقبات في وجه الطبيب .

يتمّ العبور من صباح الحياة إلى ما بعد ظهيرتها عبر ضربٍ من **تحوّل القيم** . إنّ الضرورة تفرض علينا الاعتراف ليس فقط بشرعية أهدافنا القديمة ولكن بأضدادها وبإدراك الضلال في ما كان يشكّل قناعتنا إلى ذلك الحين وبإحساس الكذب في ما كان يكوّن حقيقتنا وبقياس مبلغ ما كان من مقاومةٍ وحتى من احتدادٍ فيما كنا نعتبر أنه الحب . ثمّة أناس كثيرون قد ضلّوا في الصراعات التي أثارتها مشاكل الأضداد فيقذفون من على جانب السفينة كل ما كان يبدو لهم في الماضي صالحاً ومرغوباً ويسعون إلى الحياة في تناقضٍ تام مع أنيتهم السابقة . فهناك تبديلات في المهنة وطلاقات واهتداءات دينية وجحود من كلّ ضربٍ هي بمثابة أعراض هذا الاندفاع نحو الضد . والعيب في هذا الارتداد الجذري نحو الضد لما كان يشكّل إلى ذلك الحين دعامة الحياة هو أنّ الحياة السابقة سوف تنزاح من الآن إلى حيز الكبت وهذا الأمر يخلق حالةً غير مستقرةٍ تماماً كالحالة السابقة حيث كانت معادلات الفضائل والقيم الواعية ما تزال مكبوحةً خافية . ففي حين كان الفاعل في السابق يتألّم ربّما من اضطراباتٍ عصابية من جرّاء عدم وعيه للتخيلات المضادة التي كان يكبحها فإنّ اضطراباتٍ على النحو عينه توشك الآن أن تحصل من جرّاء كبت الأصنام القديمة .





إنّه لضلالٌ أساسيٌ بالطبع أن يعتقد المرء بأنّ قيمةً مُجدّت في السابق تنطوي على - لا قيمة - أو على حقيقةٍ من الأخطاء . وأنّ هذه الحقيقة ستصبح ملغاةً : أقول لا بل هي فقط قد أصبحت نسبية . **فكلّ ما هو بشريٌ هو نسبي بما هو مستند على تباينات داخلية ذلك أنّ كلّ الظواهر ذات طبيعة طاقية** . إذ بدون تباينٍ وبدون توترٍ موجودٍ سلفاً لا يمكن أن يكون ثمّة طاقة . يجب أن يكون التوتر موجوداً على نحوٍ مسبق بين الأعلى والأدنى وبين الحار والبارد . . . لكيما تنشأ وتجري سيرورة التعويض هذه التي

تكوّن الطاقة تجديداً . إنّ كلّ ما هو حيّ هو طاقة وبالتالي فهو يقوم على توتر الأضداد لذلك فإنّ الجنوح إلى إنكار كلّ القيم السابقة لصالح أضدادها هو أمر مبالغ فيه أيضاً تماماً كالاقتصارية السابقة . فبمقدار ما كان الأمر يتعلّق بقيم غير مشكوكٍ فيها ومعترفٍ بها اعترافاً شاملاً فإنّ الإحساس بالضياع عند نبذها هو أيضاً أمر مفجع بقدر ما هو كارثي . فإنّ أيّاً كان يتصرّف على هذا النحو ويقذف بقيمه إلى البحر فإنّما يقذف نفسه أيضاً في الوقت عينه كما سبق لينتشه أن أقرّ بذلك .

إنّ الأمر لا يتعلّق بالتوق إلى ارتدادٍ جذريٍّ يناقض كلّ حالة الأشياء القائمة سابقاً بل إلى الحفاظ على القيم القديمة التي ينضاف إليها أخذ أضدادها بعين الاعتبار . هذا الموقف يجرّ بالطبع إلى صراعات وتناقضاتٍ مع الذات . فمن المفهوم أنّ الإنسان ينفر منها سواء كان ذلك من وجهة نظرٍ فلسفية أو من وجهة نظرٍ أدبية لذلك فإنّ المرء يفضّل أحياناً قلب البخار على أن يأخذ بهذا الحل . بل إنّنا نجد ما هو في الغالب أكثر من تلطيفٍ تلويني للحقائق السابقة أو ارتدادٍ جذري إذ نلاحظ انقباضاً على الأوضاع القديمة وتشنجاً اختلاجياً يحاول الفاعل من خلاله التخلص من ورطته . علينا الاعتراف ، على الرغم من أنّ هذا الموقف لدى المسنين قلّما هو مأنوس ، بأنّ لهم فيه مع ذلك بعض الفضل ذلك أنّه يحميهم من أن يصبحوا جاحدين فيبقون واقفين ثابتين في موضعهم فلا يقعون في اللا يقين ولا في الوحول ولا يفلسون لكنّهم فقط أشبه بأشجارٍ تموت أو ـ بتعبيرٍ أكثر أدباً ـ «بشهودٍ على الماضي» . بيد أنّ هذا الموقف لا يمرّ دون أعراضٍ ثانوية : التصلّب والتحجر وضيق العقل وصعوبة متابعة الحركة وكلها مميزات أولئك المدّاحين للأزمنة السابقة الذين يغضبون الآخرين ويضرون أنفسهم . إنّ طريقتهم في الدفاع عن موقفٍ وتقديم حقيقة أو المرافعة في سبيل قيمة هي متصلّبة وملحاحة إلى حدّ أنّك تجد المستمع نافراً من أسلوبهم المزعج أكثر منه مشدوداً إلى الحجة وبحيث يسلكون على هذا النحو ضد قصدهم المحمود . إنّ ما يجمّد هؤلاء الناس المسنين هو بالحقيقة الخوف الذي يوحي به إليهم مشكل الأضداد فإن عندهم حدس مبهم وخوف صامت من «الأخ الصغير» المزعج للقديس ميدار لذلك لا يجوز أن يكون ثمّة سوى حقيقة واحدة وإمكانٍ سلوكيٍّ وحيد يجب أن يكونا مطلقين وإلاّ فقد لا يحميان من القلاقل المهدّدة التي يستشعرها المرء في كلّ مكانٍ إلاّ في ذاته . مع ذلك فنحن إنّما نحمل في أنفسنا الثورية



الأشد خطراً فيجب أن يكون هذا الواقع معلوماً لدى أولئك الذين يريدون تجاوز عتبة العمر الناضج أصحاء سالمين . فمن الصحيح أننا بهذه المعرفة عينها نبادل الطمأنينة الظاهرة التي تمتعنا بها إلى الآن بحالةٍ من الشكوك والاختلافات والقناعات المتناقضة . والأسوأ في هذه الحالة هو أنها في الظاهر لا تتيح أيَّ مخرج . «العامل الثالث غير معطى» يقول المنطق : و«ليس ثمّة من حدٍّ وسط» .

لقد أجبرتنا بالتالي الضرورات التطبيقية لعلاج المرضى على البحث عن طرقٍ ووسائل تتيح الخروج من هذه الحالة غير المحتملة . فكلّ مرّةٍ يجد المرء نفسه أمام حاجزٍ نفساني لا يمكن تجاوزه في الظاهر فإنّه «يتراجع من أجل قفزةٍ أفضل» كما يقول المثل - ويقوم بما نسميّه بكلماتٍ تقنيةٍ نكوصاً ؛ هذا المصطلح يعبر عن أنّ الفاعل يرتدُّ إلى الأزمنة السابقة حيث وجد نفسه في أوضاعٍ مماثلة وينحو مجدداً إلى استخدام الوسائل التي نجح بها . بيد أنّ ما كان قد نجح أيامَ الشباب لم يعد ليجدي نفعاً في الشيخوخة . فما الذي أفاد رجل الأعمال الأميركي باستعادة اهتماماته القديمة ؟ إنّ الأمور لم تعد تسير البتة . فبعد اخفاقاتٍ كهذه يتابع النكوص مجراه من مرحلةٍ إلى مرحلة حتى الطفولة (الأمر الذي يفسِّر كيف أنّ كثيرين من المعصوبين المسنين يسلكون سلوكاً طفولياً كما لو أنّهم أصبحوا أطفالاً مرّةً أخرى) وفي النهاية إلى الزمن الذي يسبق الطفولة . يبدو هذا التأكيد جريئاً جداً بلا شك بيد أنّ الأمر يتعلّق في الواقع بسيرورةٍ ليست منطقية وحسب بل ممكنة في الواقع .

لقد رأينا أعلاه أنّ الخافية تنقسم على نحو ما إلى طبقتين الطبقة الشخصية والطبقة الجمعية . الطبقة الشخصية تتوقف عند التذكرات الطفولية الأبكر أمّا الطبقة الجمعية فتشمل العصر ما قبل الطفولي أي بقايا الحياة الأسلافية . وحين تكون الصور - الذكريات المحتواة في الخافية الشخصية مليئةً تقريباً لأنها معيوشة فإنّ الأعيان الثابتة[1] المحتواة في الخافية الجمعية تكون مجرّد صورٍ ظلّيةٍ لأنّها آثار لم يعشها الفاعل

١ - سيلاحظ القارىء بأنّ عنصراً جديداً يختلط هنا بمفهوم العين الثابتة لم يكن قد ذكر فيها سابقاً . إنّ ظهور هذا العنصر الجديد لا يشكّل ظلامية لا إرادية بل توسيعاً مقصوداً لمفهوم العين الثابتة وذلك بفضل عامل الكارما Karma الهام جدّاً في الفلسفة الهندوسية . فمظهر كارما لا غنى عنه من أجل فهمٍ متقدمٍ أكثر للطبيعة الجوهرية للعين الثابتة . علينا هنا دونما سعيٍ إلى تقديم تعريف مؤات لهذا العنصر أن نذكر وجوده على الأقل . لقد تعرّضت من جانب النقاد إلى هجومات عنيفه

بعد على نحوٍ فردي . وعندما يتجاوز نكوص الطاقة النفسية حدّ الأزمنة الطفولية الأكثر إبكاراً فإنّه ينبجس في آثار أو مخلّفات الحياة السلفية موقظاً حينئذٍ صوراً أساطيرية هي الأعيان الثابتة . إنّ عالماً روحياً لم يكن لدينا سابقاً أي ظنٍّ بوجوده ينفتح عندئذٍ في صميمنا وتظهر محتويات نفسية تشكّل عند المناسبة التباينات الأكثر بروزاً مع كلّ تصوراتنا السابقة . هذه الصور تملك حدّاً من الشدة بحيث أنّنا بمعرفتها نفهم لماذا ملايين من الناس المثقفين ينكبّون على الحكمة الإلهية والحكمة النفسية . ذلك يعود إلى أنّ هذه الأنظمة العرفانية الحديثة تشبع الحاجة إلى التعبير عن الأحداث الداخلية المحرومة من اللغة وصياغتها أفضل من أي شكلٍ موجودٍ في الديانة المسيحية دون أن نستثني تماماً الكاثوليكية من ذلك .

صحيح أنّ هذه الأخيرة هي في وضع التعبير عن المسائل المطروحة بفضل رموز عقائدية ليتورجية تعبيراً أوسع بما لا يقاس ممّا يمكن أن تفعله البروتستانتية . بيد أنّ الكاثوليكية نفسها لم تبلغ لا في الماضي ولا في الحاضر إلى ملء الرموزية الوثنية القديمة ولذلك فإنّ هذه الأخيرة قد استمرت إلى ما بعد مجيء المسيحية وبقيت على مدى قرونٍ من الحياة المسيحية متغلغلةً تدريجياً في بعض تياراتٍ جوفيةٍ دون أن تفقد البتة تماماً حيويتها منذ بدايات العصر الوسيط وحتى الأزمنة الحديثة . صحيح أنّها كادت تختفي تماماً من المسرح الرسمي بيد أنّ أشكالها تتابع التطور وتعود دائماً إلى الظهور للتعويض دائماً عن أحادية الاتجاه التي تميّز توجه الوعي الحديث . إنّ واعيتنا قد عُجنت بالمسيحية وتلقّت دمغتها إلى حدّ أنّ الاستعداد الخافي المناقض لا يستطيع أن يجد فيها مكانه لسببٍ بسيطٍ هو أنّ الصراعات التي تستثيرها مع التصورات الأساسية السائدة في الواعية قد تكون غير محتملةٍ بشدتها نفسها . ذلك أنه كلّما اتخذ إنسان روحاً انحيازية وصلابةً واستبداداً في التمسك بوجهة نظرٍ ما فبالمقدار عينه يحرك معاكسه الخافي العدوانية والثأر والتنافر بحيث أنّ توفيقاً لوجهتي النظر يبدو في البداية ذا حظٍّ ضئيل في النجاح . بيد أنّ الواعية إذا أقرّت على الأقل بالصحة النسبية التي تميّز من جهتها كل ما هو رأي بشري فإنّ التباين يفقد في الحال بعضاً من تنافراته

بخصوص مفهوم العين الثابتة هذه . إنّي أوافق بطيبة خاطر على أن هذا المفهوم يجرُّ إلى المجادلة ويعيّن ارتباكاً ليس بطفيف . بيد أنّي تساءلت دائماً إلى أي مفهومٍ استند النقاد لكي يعبروا عن المواد التجريبية التي عينتها بهذا المصطلح .

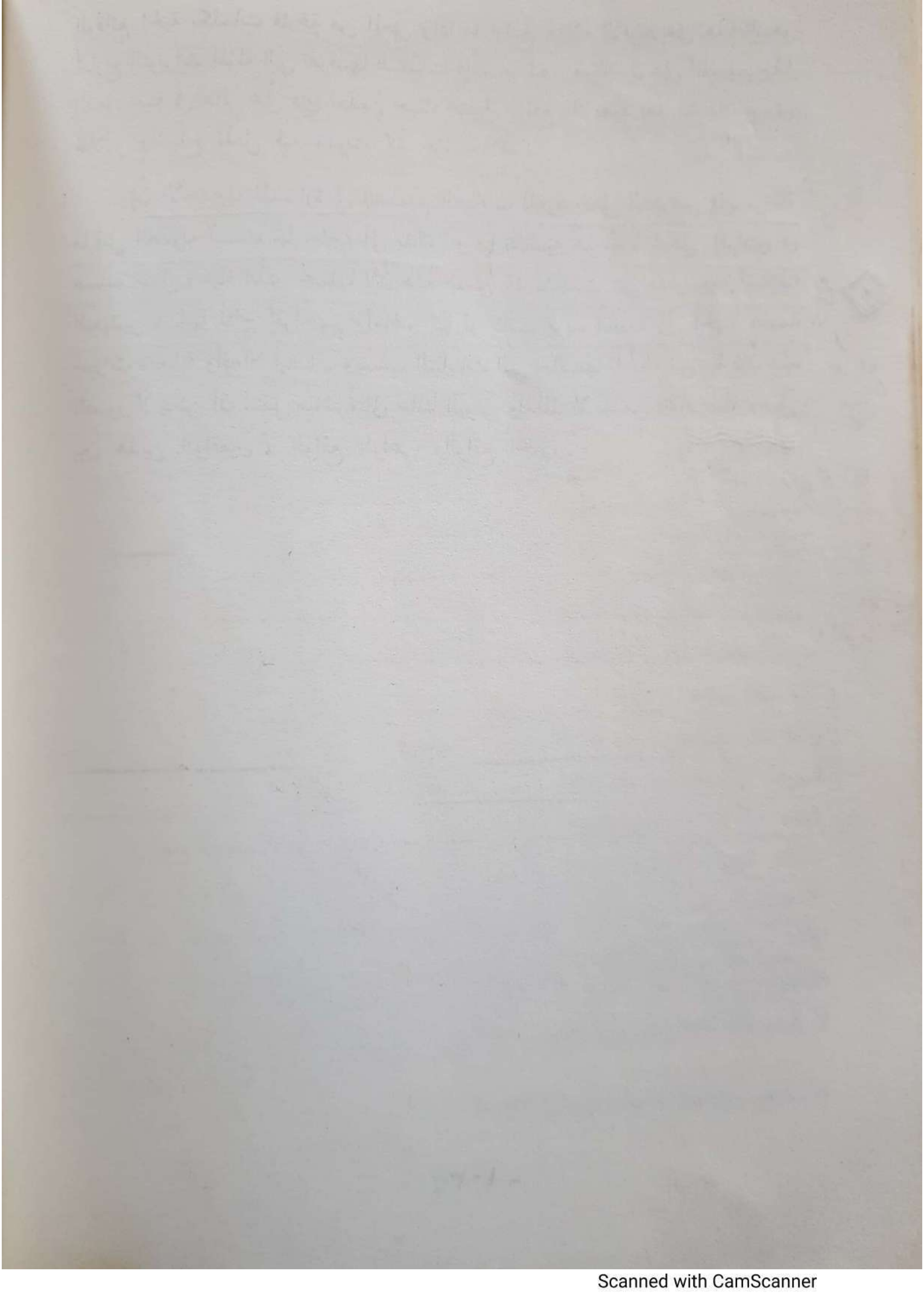
الأشدُّ لذعاً . ولكن في هذا الوقت تبحث من نفسها الأقلية المضغوطة بالمعارضة السائدة عن تعبيرٍ ملائمٍ مثلاً في الديانات الشرقية الهندوسية والبوذية والطاوية . التوفيقية (خلط ومَزج) في الحكمة الإلهية تقدِّم طعاماً مؤاتياً لهذه الحاجة وهذا ما يفسرُ نجاحها وعدد أتباعها .

إنَّ مراكز الاهتمام الجديدة التي تتبلّر في مناسبة العلاج التحليلي تعين خبراتٍ داخلية ذات طبيعةٍ عينيةٍ ثابتة تنحو إلى تعبيرٍ وإلى تشكلٍ عياني . وخبرات من هذه الطبيعة لا تعاش فقط في مناسبة العلاج التحليلي وحده فغالباً ما تنبجس خبرات عينية ثابتة انبجاساً عفوياً ومن الخطأ الشديد الاعتقاد بأنَّ هذه التجليات العفوية لا تحصل سوى عند أفرادٍ ينتمون إلى «الطبقة النفسانية» . غالباً ما جاءني بأشدِّ الأحلام والرؤى شذوذاً أشخاص لا يملك أحد البتة أن يضع صحتهم العقلية موضع شك حتى ولا الاختصاصي نفسه . إنَّ المرء ليستشعر غالباً الخبرة الحية لعينٍ ثابتة ويخبئها كالسر الأكثر فرديةً الذي يمكن أن يكون وذلك تحديداً لأنَّ الفاعل يشعر بنفسه مصاباً في عمق كيانه ؛ إنها ضرب من خبرةٍ أصليةٍ لـ لا ـ أنا النفس ، لشريكٍ داخليٍّ يدعو إلى الحوار والنقاش والمجابهة . ومن المفهوم أن الفاعل في حالةٍ كهذه يبحث عن نقاط استناد وعن خبراتٍ إنسانية مماثلة تقدم له إزائيةً مؤازرة ؛ وما هو بالغ التواتر حينئذٍ هو أنَّ الحدث الأوليَّ خلال تقصياتٍ من هذا النوع يُماثل خطأً بتصوراتٍ مستعارة . ثمّة حالة نمطية من هذا النوع هي رؤيا الثالوث للأخ القديس نيقولاوس الفلوي . وثمّة مثل مضاهيء هو رؤيا الحية ذات الأعين اللا محدودة للقديس أغناطيوس الذي فسرها أولاً على أنّها ظهور إلهي ثمّ رأى فيها تجلياً شيطانياً . فمن خلال تقريباتٍ كهذه تجد دلالة الخبرة المعيوشة عفوياً نفسها مستبدلة بصور ومفردات مأخوذة من مصادر غريبة عنها وبتصورات وأفكار أو أشكال من الإدراكات غير المحلية[1] عند الاقتضاء ؛ وحيث أنّها لم تنبع من أرضنا فهي ليست على صلةٍ بمشاعرنا بل هي على الأكثر مرتبطة بذهننا الذي ، حيث أنّه لم يولّدها ، ليس لذلك في حالة من افتكارها افتكاراً واضحاً . فالمرء الذي «يستعير» على هذا النحو لا يكتسب سوى خيرٍ مسروق لا يفيده لأنّه أشبه بمادةٍ بديلة يجعل الأفراد غير واقعيين وأشباحيين ؛ فهؤلاء سيبدِّلون

(١) يلمح يونغ هنا خصوصاً إلى الحكمة الإلهية (ر.ك) .

الوقائع الحية بكلماتٍ فارغةٍ من المعنى وإذا ما ارتفع هؤلاء الأفراد على هذا النحو خارج التوترات المؤلمة التي تفرضها التباينات فإنّهم ينفذون ويغلقون على أنفسهم بهذا الفعل عينه في عالمٍ محلّي ذي بعدين حيث يختفي الواقع فلا يعود بعد مشكلاً بسوى ظلالٍ وأشباح تذبل فيه وتموت كلّ قوة خلاقة .

إنّ الأحداث المستثارة في الصميم الصامت للفرد بفعل النكوص إلى مرحلة ما قبل الطفولة ليست بها حاجة إلى بدائل ؛ فما تقتضيه هو اتخاذ شكلٍ إفرادي في صميم عمل وحياة الذي يحملها لأنّ هذه الصور قد تشكلت على مدار حياة أسلافنا البعيدين ؛ إنها نتاج أفراحهم وآمالهم كما لو كانت تريد العودة إلى الحياة مُلهمةً خبرات داخلية وأفعالاً أيضاً . وبسبب التباينات التي تعاكسها بالحالة الواعية فإنّ هذه الصور لا يمكن أن تنتقل مباشرةً إلى عالمنا اليومي ولذلك لا بد من إيجاد صلة وصلٍ بين هذين الواقعين ، الواقع الواعي والواقع الخافي .



## ٦

# المنهج التركيبي أو البنائي

الحوار والانفصال عن الخافية والمجابهة معها هي سيرورة تُستَشعر تبعاً للحالات كسياق يتلقاه الفاعل أو كعملٍ ينجزه [1] أُطلقُ عليه اسم الوظيفة السامية. ذلك أنَّ الأمر يتعلق بوظيفةٍ أشبه بجسرٍ يستند على دعائم تقوم على معطيات بعضها واقعي وبعضها الآخر وهمي أو أيضاً بعضها عقلي وبعضها الآخر لا عقلي متجاوزة على هذا النحو الوادي الفاغر أي اللا اتصالية الفاصلة بين الواعية والخافية. هذه الوظيفة السامية تشكل سيرورة طبيعية، إنَّها تجلٍّ للطاقة المحرَّرة خارج التوتر القطبي بين الأضداد متجسدةً في سلسلةٍ من الظواهر التخيلية التي تنبجس في أحلامٍ ورؤى. فثمَّة سيرورة من الطبيعة عينها يمكن ملاحظتها أحياناً خلال طلائع بعض أشكال الفصام ونجد وصفاً مدرسياً لها مثلاً في السيرة الحياتية لجيرار دونرفال gérard de Nerval: Aurélia في أوريليا. بيد أنَّ المثل الأهم الذي يقدمه لنا الأدب هو بالتأكيد فاوست الثاني لغوته[2]. **إنَّ التناقض الطبيعي الذي يصالح عفوياً الأضداد قد كان بالنسبة لي الطراز الأساس لمنهجٍ يهدف في جوهره إلى الاستثارة القصدية لما يحصل بطبيعته حصولاً عفوياً خافياً وإلى استدماجه بالواعية وبعالمه المفاهيمي.**

إنَّ تعاسة العديد من المرضى تقوم بالفعل في استحالة تمكنهم حيث هم من العثور على وسائل وطرقٍ تتيح لهم تمثل الأحداث التي هم مسرح لها. هنا على الطبيب أن يقدِّم مساعدته بفضل منهجٍ خاصٍ في العلاج.

١ ـ لم أكتشف إلَّا فيما بعد بأنَّ مفهوم «الوظيفة السامية» موجود أيضاً في الرياضيات العليا كتسمية لوظيفة الأعداد الواقعية والوهمية.

٢ ـ تجد في كتابي علم النفس والكيمياء (قيد الترجمة إلى العربية) وصفا مؤاتياً لسلسلة من الأحلام التي تؤكد الوظيفة السامية.

وكما رأينا فإنَّ النظريات التي درسناها في بداية هذا المؤلف الصغير تستند على سياقٍ حصريٍّ من الإرجاع السببي الذي يفكك الحلم (أو الأطياف) إلى مكوناتهما : تذكراتٍ وبواعث غريزية وجموحية . وقد بينت ما يبرر هذا الشكل من الإجراء والحدود التي هي حدوده : ذلك أنه يُستنفد في اللحظة التي تمتنع فيها الرموز الأحلامية عن الإرجاع إلى تذكراتٍ أو إراداتٍ شخصية أي منذ أن تنبجس صور الخافية الجماعية . ولعلَّه من الحماقة إرادة إرجاع هذه الأفكار الجماعية إلى أشياء شخصية . وليس ذلك من الحماقة فقط ولكن كما بينت ذلك الخبرة على نحو مؤسف فقد يكون فيه ضرر على نحوٍ مباشر . ليس عن طيشٍ ولا دون ترددات طويلة وجدتني مجبراً بعد أن اغتنيت بالتعاليم التي كانت تصدر عن الإخفاقات على ترك التوجه الشخصاني الصرف لعلم النفس الطبي من أجل السبيل المشار إليه . لقد وجب عليَّ في البداية الاقتناع بأن «التحليل» بمقدار ما ليس إلَّا تفكيكاً يجب أن يكون بالضرورة متبوعاً بسيرورةٍ تركيبية وأنَّ ثمّة مواد نفسية من «وجهة نظرٍ تحليليةٍ» حصراً معدومة تقريباً على نحوٍ مماثلٍ في حين أنَّها ذات امتلاءٍ في المعنى إذا كنا لا نسعى إلى تفكيكها بل إلى تثبيتها في خصائصها وحتى إلى توسيع إلماعاتها الدالة بفضل كل الوسائل الواعية التي في حوزتنا : ذلك هو مفهوم «التوسيع»[1] . لأنَّ صور أو رموز الخافية الجمعية لا تكشف عن نفسها إلَّا بمقدار ما نخضعها لعلاجٍ تركيبي . فبعد أن قام التحليل بتفكيك المواد التخيلية الرمزية إلى مكوناتها يقوم الإجراء التركيبي بالمساعدة في استدماج المجموع في تعبير عامٍ ومفهوم . بيد أنَّ الإجراء التركيبي ليس بسيطاً بالتحديد لذلك سوف أقدم مثلاً يتيح لي التعريف به .

ثمّة مريضة كانت تقف تحديداً عند ذلك الحاجز الحرج حيث يتوقف تحليل الخافية الفردية وتنبجس محتويات الخافية الجمعية قد رأت الحلم التالي :

إنَّها على وشك أن تجتاز جدولاً عريضاً . ليس ثمّة جسر . لكنّها تجد مكاناً تستطيع العبور منه وبينما هي تعبر تعلّق بها إربيان[2] ضخم كان مختبئاً بالماء فأمسك بقدمها ولم يتركها ومن ثمَّ

١ ـ أنظر شرحاً لهذا المفهوم في كتاب علم النفس المركب ، شارل بودوان ، ترجمة سامي علام ، ١٩٩٢ ص٧٠ (م) .
٢ ـ حيوان شبيه بسرطان الماء (م) .

استيقظت محصورة . الترابطات كانت التالية :

١ـ الجدول : جدول يشكّل حدّاً يصعب اجتيازه ـ يجب أن أجتاز حاجزاً ـ ذلك يعود على الأرجح إلى أنّني لا أتقدم إلّا ببطءٍ ـ عليّ مع ذلك الوصول إلى الضفة الأخرى .

٢ـ معبر : إنّه فرصة للعبور بثقةٍ إلى الضفة الأخرى ـ إنّه طريق ممكن ـ وإلّا فإنّ الجدول قد يكون عريضاً جداً . العلاج التحليلي يقدم إمكان اجتياز الحاجز .

٣ـ الإربيان : كان الاربيان مختبئاً بكليته في الماء فلم أره قبل أن يعضني ـ السرطان مع ذلك هو مرض مرعب (ذكرى السيدة س التي ماتت من سرطانة) ـ إنّي أخاف هذا المرض ـ الإربيان هو حيوان يمشي القهقرى ـ ويريد بالتأكيد أن يجرني إلى قعر الجدول . لقد كبلني على نحوٍ غير طبيعي واجتاحني خوف هائل ـ ما الذي يمنعني إذاً من الوصول إلى الضفة الأخرى ؟ آه! حقّاً لقد حدث لي أيضاً شجار مع صديقتي .

ثمّة فيما يتعلّق بهذه الصديقة شيء ذو صفةٍ خاصة تجب ملاحظته . إنّ الأمر يتعلّق بصداقة قديمة منتشية تلامس الجنوس Homosexualité ،الصديقة تشبه المريضة من نواحٍ عدة وعصبية هي الأخرى : الاثنتان تجمعهما أذواق فنية متميزة بيد أنّ مريضتنا هي الشخصية الأقوى بينهما . وحيث أنّ صلاتٍ صميمية فائقة تجمع بينهما ، هي علاقات تنفي بحد ذاتها نفياً متفاقماً كلَّ إمكانات الحياة الأخرى فكلتاهما مفرطتان في العصبية وتحدث بينهما على الرغم من صداقتهما المثالية مشاحنات رهيبة صادرة عن عصبيتهما المتبادلة . ومن خلال هذه المشاحنات تهدف خافيتهما إلى إبعادهما الواحدة عن الأخرى بيد أنهما لا تريدان إدراك ذلك . وفي العادة تنطلق مشاحنتهما من الوضع التالي : ترى إحداهما بأنّهما لا تتفاهمان بعد بما يكفي وأنّه يجب أن تتبادلا على نحوٍ صادقٍ قول كل ما يخطر على قلبهما الأمر الذي تندفعان كلتاهما فيه بحماسٍ في تفسيراتٍ جديدة ، وبالطبع فإنّ الأمر لا يطول حتى يثير بعض سوء تفاهم يطلق بدوره مشاحنةً جديدة أسوأ من كل ما سبقها . وبسبب الافتقار إلى الأفضل" فقد كانت هذه المشاحنة لزمنٍ طويلٍ بالنسبة إليهما كلتاهما بدائل عن متعة لم تكونا ترغبان في التخلص منها . لم تستطع مريضتي خاصة على مدى زمنٍ طويل التخلي عن المشقة اللذيذة في أن تكون غير مفهومة من أعز صديقةٍ لها على الرغم من



أنّ كلّ مشاحنة كانت تستنفدها وتتركها مُتعتعةً . وعلى الرغم من أنّها فهمت منذ زمن طويل على أنّ هذه الصداقة قد أصبحت ساقطةً وأنّ حبّاً ذاتياً مزيفاً كان وحده يجعلها تصر على استبيان ما لست أدري أيَّ هدف في هذه الصداقة . لقد سبق لمريضتي أن أثبتت في علاقاتها مع أمها وجود عواطف منتشية رومانسية وبعد وفاة هذه الأخيرة أعادت نقل عواطفها إلى صديقتها .

لعلَّ التفسير التحليليَّ (الذي ينزع في مساره إلى ردِّ الظواهر وتقليصها إلى أسبابها[1]) هو التالي :

يمكن اختزاله بكلمة : «افهم جيّداً بأنَّ عليَّ عبور الجدول والوصول إلى الضفة الأخرى (أي التخلي عن علاقتي مع صديقتي) ، ولكن كم أود مع ذلك بالأكثر أيضاً أن لا تتركني صديقتي أتخلص من قبضتها (أي من ضماتها وعناقاتها) ذلك يعود بكلام آخر إلى التعبير عن أمنيةٍ طفولية : عساني أفضل أن تضمني أمي أيضاً كما كان ذلك يجري أيام عناقاتنا الهوية passionnés الماضية» . إن ما هو نافر في هذه الرغبة هو قوة نزوعها الجنوسيِّ الكامن الذي تشهد عليه بكفايةٍ سيرة حياة المريضة . الإربيان يدركها في رجلها لأنَّ للمريضة قدمين كبيرتين «وذكوريتين» ؛ زد على ذلك أنّها تلعب بإزاء صديقتها الدور المذكر وهي محطُ هجومٍ لأخيلةٍ جنسيةٍ مقابلة . للقدم كما نعلم دلالة قضيبية . فيمكننا منذئذٍ على هذا النحو تكثيف دلالة مجمل الحلم :

إذا كانت المريضة لا تريد الانفصال عن صديقتها فالسبب الوحيد لذلك هو أنّها تحمل في نفسها رغباتٍ جنوسية خافية إزاءها . وحيث أنَّ هذه الرغبات من وجهتي النظر الأخلاقية والفنية متناقضة مع نزعات شخصيتها الواعية لذلك فهي تُكبت وتصبح بالتالي شبه خافية . فالقلق إن هو إلاّ لازمة طبيعية لهذه الرغبة المكبوتة .

يظهر أنَّ هذا التفسير هو بالطبع أسوأ بخسٍ للمثال الرفيع الذي اصطنعته المريضة للصداقة . فمن الصحيح أنَّ مريضتي عند بلوغها إلى هذه المرحلة من

١ — ثمة في كتاب سيلبرر Silberer :
Problème der Mystik und ihrer symbolik, 1914 .
تصور قريب من هذين المنهجين في التفسير ما يزال يحتفظ بكل اهميته .

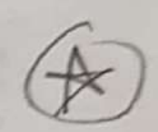
التحليل لم تعد بعد لتأخذ تفسيري بجانبه السيء . فمنذ زمنٍ طويلٍ من الآن ثمّة بعض الوقائع كانت قد أقنعتها بأنَّ نزعةً جنوسيةً موجودةً فيها بحيث أنّه كان بإمكانها الاعتراف بها صراحةً على الرغم من أنَّ ذلك بالطبع لم يكن مستحبّاً بالتحديد . إذاً ، فإذا كنت عند هذه المرحلة من العلاج قد صرحت لها بهذا التفسير فقد لا أكون فيما بعد عرضةً لأي مقاومة . لقد سبق أن أذعنت بفهمها لما لهذه النزعة المؤسفة من عناء . بيدَ أنّه كان بإمكانها أن تقول لي : «لماذا إذاً نحلّل أيضاً هذا الحلم ؟ إنّه يكرّر دائماً وباستمرار ما أعرفه منذ زمنٍ طويل» ؟ في الواقع إنّ كلَّ هذا التفسير لم يعد يؤدي للمريضة أيَّ شيءٍ جديد ومن هنا لم يعد بعد شيقاً ولا ناجعاً . مع ذلك فقد كان مستحيلاً على الإطلاق في بداية العلاج لسببٍ بسيط هو أنَّ الحياء المفرط للمريضة ما كان ليقبل شيئاً كهذا بأيٍّ ثمن . كان لابدَّ من تقطير «سُمِّ» المعرفة بفطنةٍ متناهية وبأقلِّ المقادير إلى أن تكون المريضة قد أصبحت شيئاً فشيئاً أكثر تعقّلاً . ولكن عندما لا يعود التفسير التحليلي في مفهومه الإرجاعي السببي يجلب أيَّ شيءٍ جديد ويكرّر الشيء عينه من خلال بدائل متنوعة فتلك هي اللحظة المؤاتية حيث يجب التنبه بعنايةٍ خاصة إلى الظهور الممكن لدوافع عينية ثابتة . وإذا كانت تلك هي الحال فلا يجوز التلكؤ في تبديل أسلوب التفسير . ذلك أنَّ الأسلوب الذي يهدف إلى ردِّ كلِّ شيءٍ إلى أسبابه له حينئذٍ بعض المضار .

١ـ فهو قبل كلِّ شيء لا يأخذ بعين الاعتبار التداعيات التي تخطر عفويةً على بال المريضة . ففي حالتنا مثلاً تداعي المريضة مع «الإربيان» هو غير مُستخدم .

٢ـ الاختيار التلقائي لهذا الرمز الفريد يبقى غامضاً . لماذا يجب أن تظهر «الصديقة الأم» تحديداً تحت شكل إربيان ؟ كان يمكن مثلاً تمثيلها تمثيلاً أكثر استحباباً وأكثر فنّاً تحت شكل حوريّةٍ مثلاً («تجذبها بنصفها وتجعلها تنزلق بنصفها الآخر» الخ .) أو تحت شكل أخطبوطٍ أو تنينٍ أو حيةٍ أو سمكةٍ يمكن أن تؤدي الوظيفة عينها .

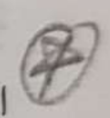
٣ـ ينسى أسلوب التقليص إلى الأسباب أنَّ الحلم ظاهرة ذاتية وأنَّ تفسيراً مستنفداً لن يستطيع البتة النظر إلى الإربيان كرامزٍ وحيدٍ إلى الأم أو الصديقة فإنَّ عليه من جهةٍ أخرى إقامة الروابط أيضاً ما بين الرمز والفاعل ، أي مع الشخص الذي جرى لديه الحلم . إنّه هو الذي يمثل الحلم بكامله ؛ فهو الجدول والعبّارة والإربيان وبكلمة فإنَّ خصائص الحلم تعبّر عن الشروط والنزعات النفسانية القابعة في

خافية الحالم . لذلك فإنّي أدخلت الاصطلاح التالي : أسمّي تفسيراً على صعيد الموضوع (الغرض) كلّ تفسيرٍ تكون فيه تعابير الحلم مماثلةً لأغراضٍ واقعية . وفي مقابل هذا التفسير يتوضع التفسير الذي يقيم الصلة ما بين نفسانية الحالم نفسه وكلّ عنصرٍ في الحلم ، مثلاً مع كلٍّ من الأشخاص الفاعلين الظاهرين فيه . هذا الأسلوب الأخير أسمّيه التفسير على صعيد الذات (الفاعل) . التفسير على صعيد الغرض هو تفسير تحليلي لأنّه يفكك محتوى الحلم في لحمته المركبة من تذكراتٍ مبهمةٍ وذكرياتٍ هي صدى لظروف خارجية . أمّا التفسير على صعيد الذات فهو بالعكس تركيبيٌّ بما هو ينزع من الأسباب الجائزة مركبات التذكرات المبهمة ويطرحها للفهم كنزعاتٍ أو مكوناتٍ للذات التي والحالة هذه يدمجها فيها مجدداً (وبالفعل فأنا من خلال عيشي لحدثٍ ما لا أقوم فقط باختبار الغرض ولكن أيضاً وفي المقام الأول باختبار نفسي ـ هذا إذا كنت أعي الدور الذي تلعبه أناي في الحدث المعيوش) .





إذاً فإنَّ **أسلوب التفسير التركيبي أو البنائي**[1] يقوم على التفسير على مستوى الذات (الفاعل) .



التفسير التركيبيُّ أو البنائي هو : المريضة لا تعي بأنَّ في نفسها إنَّما يكمن الحاجز الذي يجب قهره والحدُّ الصعب الذي يجب اجتيازه اللذان يعاكسان تطورها اللاحق . مع ذلك فإنَّه يمكن إجتياز هذا الحدّ . ولكن في تلك اللحظة تحديداً التي ستتمّ فيها هذه الخطوة الحاسمة يجيء التهديد من خطرٍ خاصٍ وغير متوقع : شيء ما «حيواني» (أي شيء ما لا إنساني أو يتجاوز الإنسان) شيء ما يسير القهقرى ويغوص في الأعماق ويسعى لأن يجرَّ إليها شخصية الحالمة بكليتها . هذا الخطر أشبه بمرض قاتل ينمو نمواً سريّاً في نقطة ما وقد يكون غير قابل الشفاء أي كلي القدرة في خباثته . المريضة تتصور بأنَّ صديقتها إنَّما هي التي تعيقها وتجرها إلى الأوحال . فما دامت على هذه القناعة يجب بالطبع أن تؤثر على صديقتها وتسعى لتلقينها وتحسينها وتربيتها أي أن تستنفد مثالياً نفسها في جهودٍ نافلةٍ وغير معقولة لكي تمنع صديقتها من جرّها نحو الدنايا . صديقتها بالطبع تبذل جهوداً مماثلة لأنها موجودة في حالة المريضة عينها

١ ـ هذا هو علم النفس المركب (م) .

وهكذا فإنّهما تندفعان الواحدة نحو الأخرى مثل الديكة وكلّ واحدةٍ تحاول أن تقفز فوق رأسِ الأخرى . فكلما ارتفعت إحداهما ضنيت الأخرى في محاولة تجاوزها . لماذا ؟ لأنّ كلّ واحدةٍ تتخيل بأنّ الأخرى ، الغرض ، هي التي تتحمل الخطأ . إنّ ضبط التفسير على مستوى الذات سيوقف كل هذه الترّهات ويتيح الخلاص ذلك أنّ الحلم يبينّ للمريضة بأنّها هي التي تحمل في نفسها شيئاً يمنعها من اجتياز الحاجز أي يمنعها من الانتقال من وضع أو من موقف إلى موقف آخر . يُفسّر تبديل الموقع كدلالة ، من وجهة نظرٍ نفسانية ، ويعود تبديل الموقف إلى كيفياتٍ لغويّةٍ في بعض اللهجات البدائية حيث تشير مثلاً «أنا على طريق الذهاب» إلى : «أتهيّأ للذهاب» . فلكي نفهم لغة الأحلام علينا أن نستقي استعاراتٍ هامة من نفسانية البدائيين ومن الرموز التاريخية ونترك لأنفسنا مجال الاهتداء بالموازيات التي نجدها في هذه المعطيات الواقعية وعُدَد (مواد) مرضانا . إنّ الأحلام تصدر في جوهرها عن الخافية الغنية بكلّ الإمكانات الوظيفية التي ما تزال حيّةً منذ العصور السابقة للتطور الإنساني . ثمّة مثل تقليدي يقدّمه لنا «عبور البحر العظيم» في نبوءات آي جينغ I ging[1] . يتعلّق حلّ المسألة النفسانية المطروحة في الحالة التي درسناها بفهم ما يمثله الإربيان : فنعلم من ناحيةٍ أولى بأنّ الإربيان يجسد شيئاً ما استشعرته المريضة لدى صديقتها (كانت المريضة قد أقامت في تداعياتها صلةً بين الإربيان وصديقتها) وشيئاً آخر يتمثل في أمها . فهل تمثل الأم والصديقة في الواقع الصفة التي تنسبها إليهما المريضة ؟ إنّ المسألة قلّما تهمنا من وجهة النظر الذاتية لهذه الأخيرة فالموقف لا يمكن فعلاً أن يتغير إلّا إذا تغيرت المريضة نفسها . وفيما يتعلق بالأم لم يعد بعد ثمة شيء للتغيير لأنّها قد ماتت . أمّا فيما يتعلق بالصديقة فلا نملك أن نقسرها بقوة على التغيير . فإذا كانت ترغب ذلك فهو شأنها غير أنّ ظهور الصفة المذكورة عند الأم يدل على شيء ما طفولي . فما هي الصلات المشتركة بين المريضة وأمها وصديقتها ؟ لقد كان ما ميّز علاقات مريضتنا بهاتين المرأتين حاجة شديدة إلى الحنان والنشوة هويّة إلى حدّ أنّها سيطرت عليها . إذاً فإن هذا التطلب الوجداني يحمل طابع الشهوة الطفولية الفائضة وهي شهوة عمياء كما نعلم . إذاً فإنّ الأمر يتعلق هنا بجزءٍ من الليبيدو غير المهذّب وغير المفرّق وغير المؤنسن ما يزال يمتلك طابعاً جموحاً قاسراً أي أنّه لم يروّض بعد

1 – Richard Wilhelm, I Ging Das Buch der Wandl ungen, 1924 .

بالتدجين . ولقد كان الحيوان رمزاً مؤاتياً تماماً ومميزاً من أجل التعبير عن ذلك الجانب . ولكن لماذا يكون هذا الحيوان إربياناً بالتحديد ؟ الإربيان فيما يتعلّق بالتداعي يثير في عقل المريضة السرطان التي ماتت من جرائه السيدة س عندما كانت قد بلغت تقريباً إلى السن التي هي فيه الحالمة الآن . قد يكون في ذلك ترسيمة لتواحدٍ مع السيدة س . إذاً فإنَّ علينا أن نستخبر عن خاصيات هذه الأخيرة . تروي المريضة بخصوصها ما يلي :

لقد أصبحت السيدة س أرملةً في وقت مبكر . كانت مرحةً جداً تحبُّ الحياة وتقدِّر ملذاتها وكانت لها سلسلة من المغامرات مع الرجال وخاصةً مع فردٍ غريبٍ فنانٍ موهوب كانت المريضة تعرفه شخصياً وقد تركت فيه دائماً انطباعاً فريداً فاتناً ومقلقاً .



لا يمكن أن يحدث تواحد البتة إلّا على قاعدة تشابهٍ خافٍ بقي مستتراً ولا يفهم الفاعل مؤداه . بماذا يمكن إذاً أن يكون تشابه مريضتنا بالسيدة س ؟ لقد ذكرتها بهذا الخصوص بسلسلةٍ سابقةٍ من التخيلات والأحلام التي كانت قد بيّنت لنا بياناً واضحاً بأنَّها هي الأخرى كانت لديها أيضاً خميرة من الخفة وأنَّها كانت دائماً قد قمعت قمعاً قلقاً تلك النزعة التي كانت تستشعرها على نحوٍ مبهم خشية أن تنساق من جرائها إلى حياةٍ لا أخلاقية . هذا المعطى يقدِّم لنا عنصراً هاماً في فهم «الجانب الحيواني» . إنَّ الأمر ما يزال يتعلّق بالشهوة الجموحة غير المروضة التي تتوجه في حالةٍ نوعيةٍ إلى الرجال . وندرك في الوقت عينه سبباً آخر لدى مريضتنا بعد تخليها عن صديقتها ذلك أنَّ عليها أن تتشبث بها لكي لا تسقط في التجارب إزاء الرجال الذين يبدون لها أشدَّ خطراً بكثير . وهي بتصرفها على هذا النحو فإنَّها تستمر سحاقيةً على صعيد طفوليٍّ من ارتقائها ، بيد أنَّ ذلك يفيدها كحماية . (إنَّه كما أثبتت التجربة أحد أقوى الحوافز التي بإمكانها أن تجبر كائناً على ممارسة علاقاتٍ طفوليةٍ غير مروضة) . غير أنَّ ذلك لا يعني على نحوٍ أقل بأنَّه إنَّما تكمن في هذا الجانب الحيواني الجموح الصحة بالنسبة إلى المريضة وبذرة مستقبلها الناضجة التي لا تتراجع خائفةً إزاء مخاطر الحياة .

غير أنَّ معاودتي قد استخلصت من قدر السيدة س استنتاجات مختلفة كل الاختلاف . كانت قد رأت في مرضها المفاجىء والغريب وفي نهايتها المبكرة عقاباً من القدر لخفتها التي برهنت عنها والتي كانت هي نفسها ـ دونما اعتراف بذلك البتة ـ قد

اشتهتها دائماً . وعند موت السيدة س اتخذت لنفسها مظاهر كئيبة مشوبة بصرامةٍ أخلاقية كانت تخفي تحتها فرحها الوحشي «البشري المفرط في بشريته» الذي يمكن أن تسببه خسارة الآخرين . وكعقابٍ لهذه العاطفة كانت مريضتنا تتخوف تخوفاً دائماً من مثل السيدة س مبدية ذلك في سلوكها حجةً في امتناعها عن الحياة والنمو . وعلى أثر هذه الظروف تحملت نفسها عذاب هذه الصداقة الضئيلة الرضى . إنَّ كلَّ هذا التسلسل بالطبع لم يتبدَّ لها البتة تبدياً واضحاً وإلاَّ فما كانت أبداً لتتصرف على هذا النحو . لم تكن صحة تحققاتي بذلك أقل سهولة للإثبات بفضل المواد عينها التي كانت عدّة المريضة .

هل انتهينا إذاً من قصة هذا التواحد ؟ على الإطلاق لقد عادت المريضة بفكرها فعلاً بعد ذلك مشيرةً إلى المواهب الفنية المرموقة للسيدة س التي لم تكن قد تطورت إلاَّ بعد موت زوجها والتي عينت حينئذٍ علاقتها مع صديقها الفنان . يبدو أنَّ هذا العنصر يكون أحد حوافز التواحد الأساسية ولنذكر فعلاً قصة المريضة حيث كانت تصف الانطباع العظيم والغريب الإفتان الذي أحدثه الفنان فيها . إنَّ افتتاناً كهذا لا ينجم البتة حصراً من تأثيرٍ صرف من شخص على آخر بل هو يكون ظاهرةً علائقية لا غنى للشخصين عنها ؛ ولكي تحدث يجب أن يكون الشخص حاملاً لاستعداد يتيح للظاهرة أن تنطلق ويجب من جهةٍ أخرى أن يكون هذا الاستعداد موجوداً فيه على جهلٍ منه . ذلك أنَّه إذا لم يكن خافياً فإنَّ النجوع الإفتاني لا يملك أن يفعل فعله . فالإفتان بالفعل ظاهرة قاسرة وهي إذ تمارس سطوةً لا تقاوم ليست بذلك أقل تجرداً من كلِّ الدوافع الخافية ممّا يعني القول بأنَّ الأمر لا يتعلَّق بشيءٍ من تجلّي الإرادة ولكن بتجلٍ ينبثق بلا قيد ولا شرط من الخافية فارضاً نفسه على الوعي ضد الإرادة .

علينا إذاً الإقرار بأنَّ مريضتنا تملك استعداداً ـ خافياً ـ مضاهئاً لاستعداد الفنان . إذاً فإنّها قد تواحدت أيضاً برجل(١) . فلنذكر حالاً تحليل الحلم حيث صادفنا إلماعاً إلى الجانب المذكر ألا وهو الرِجْل . وفي الواقع فإنَّ المريضة تلعب بإزاء صديقتها دوراً مذكراً فهي العنصر الفاعل الذي يباشر دوماً وهي التي تأمر صديقتها

١ ـ لا يغرب عن بالي بأنَّ الحافز العميق للتواحد مع الفنان هو بعض المواهب الخلاقة التي تتمتع بها .

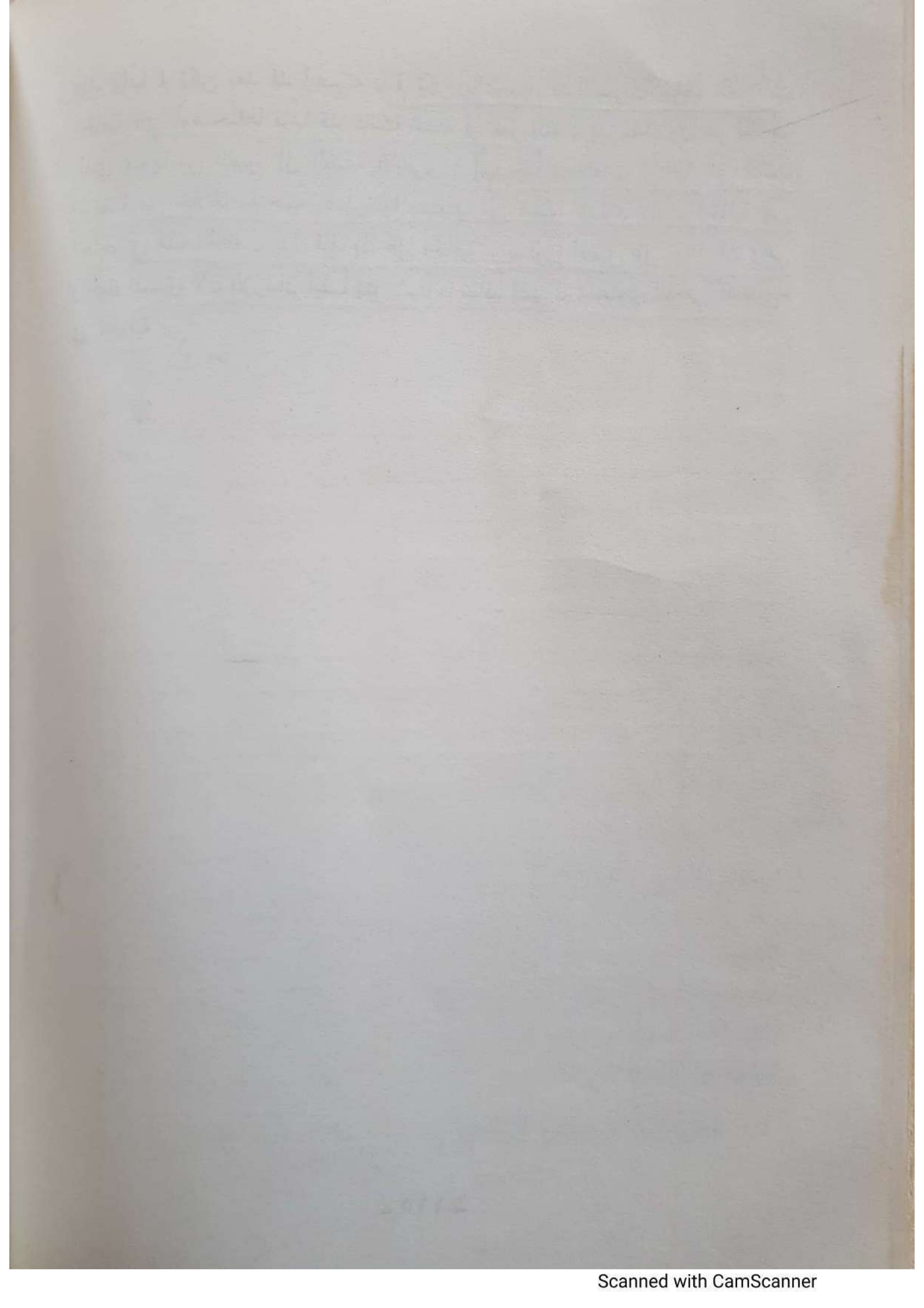
وتلزمها حتى عنوةً في المناسبة على شيءٍ ما تتمناه مريضتنا وحدها . أمّا صديقتها فهي أنثوية صراحةً حتى في مظهرها الخارجي بينما تحمل مريضتنا حتى في ظاهرها الخارجي طابعاً ذكورياً معيناً . صوتها نفسه أقوى وأجهر من صوت صديقتها . تُصوَّر السيدة س على أنّها بارزة الأنوثة فهي بحسب أقوال المريضة قد كانت فيما يتعلّق باللطف والمودة أشبه بصديقتها . هذه العناصر تقدِّم منفذاً جديداً . إنَّ مريضتنا تلعب على نحوٍ ظاهر إزاء صديقتها الدور الذي كان يقوم به الفنان مع السيدة س . وهكذا يكتمل اكتمالاً خافياً تواحدها مع السيدة س ومع عشيقها . وعلى هذا الطراز ما تزال المريضة رغم كلِّ شيء تعيش حياتها وميلها إلى الخفة الذي كانت قد قمعته قمعاً بالغ التخوف ؛ بيد أنّها لا تحياه حياةً واعيةً بل هي لا تلعبه حتى على نحوٍ خافٍ ؛ وإنما النزعة الخافية هي التي تلعب بها لعبتها الغريبة ؛ إنّها ألعوبتها أو قل أيضاً إنها هي الممثلة التي إذ تجسد مركبها الخاص تستمر جاهلةً العمل الضالعة فيه .

ها نحن إذاً في حوزتنا معلومات أكثر بكثير عن الإربيان : فهذا الأخير ينطوي على النفسانية الداخلية التي تتوافق مع قطاعات الليبيدو غير المروضة لدى مريضتنا . من هنا كانت تواحداتها الخافية تردّها دائماً نحو أعماقها . فإذا كان لتواحداتها مثل هذه القدرة فلأنها خافية بالتحديد وبذلك تفلت من كلِّ تصحيحٍ ومن كلِّ تفكرٍ واعٍ ومن كلِّ اندماج . الإربيان يرمز إذاً إلى محتوياتٍ خافيةٍ تنزع دائماً إلى جعل المريضة في علاقاتٍ مع صديقتها : الإربيان يسير القهقرى.بيد أنَّ صلات المريضة مع صديقتها هي بالنسبة إليها مرادفة للمرض : فهذه هي العلاقات التي جعلتها عصبية .

إنَّ مسألة علاقات المريضة بصديقتها تنتمي بصحيح القول إلى التحليل على مستوى الغرض (الموضوع) . بيد أنّه لا يجوز لنا أن ننسى بأنّنا لم نكن لنتوصل إلى ذلك إلّا باستخدامنا التحليل على مستوى الفاعل (الذات) الذي ينكشف على هذا النحو مبدأً تفتيشياً ذا قيمةٍ عظيمة . في وسعنا من وجهة النظر التطبيقية أن نعتبر أنفسنا راضين عن النتيجة المكتسبة إلى الآن . إنّما علينا أيضاً إرضاء متطلبات النظرية ذلك أنّنا لم نستخدم كلَّ تداعيات المريضة ودلالة اختيار هذا الرمز أو ذاك لم تبيِّن قيمتها بما فيه الكفاية .

يبقى علينا أن نبيِّن ملاحظة المريضة بأنَّ الإربيان كان مختبئاً في الجدول تحت

الماء وأنّها لم تكن بعد قد أبصرته : لم تكن بالتحديد قد أبصرت سابقاً العلاقات الخافية التي أوضحناها فإنّها قد كانت مختبئةً في قعر الماء . إذاً فالجدول هو الحاجز الذي يمنعها من العبور إلى الضفة الأخرى : إنّها حقاً العلاقات الخافية التي كانت المريضة من خلالها ملتحمةً بصديقتها فمنعتها من العبور ؛ لقد كانت الخافية هي الحاجز في هذه الحالة . يدل الماء إذاً على الخافية أو بصورةٍ أفضل على حالة اللا وعي والحياة المستترة لأنَّ الإربيان أيضاً يمثل شيئاً ما خافياً أعني به المحتوى الزخمي المختبىء في الخافية .



# ٧

# الأعيان الثابتة في الخافية الجمعية

يبقى علينا الآن مهمة مواجهةٍ على مستوى الفاعل (الذات) للعلاقات التي فُسِّرَتْ أولاً على مستوى الغرض (الموضوع) وإمعان النظر فيها بمثابة تفصيلاتٍ رمزيَّةٍ لمركباتٍ ذاتيةٍ في المريضة . فإذا ما سعينا إلى تفسير شخصية السيدة س على مستوى الذات فإنَّ علينا أن نفهمه إلى حدٍّ ما كتشخيص لنفس مجزأةٍ وأقصد القول لمظهرٍ معين في الحالمة . فالسيدة س هي على هذا النحو صورة ما تتمنى المريضة أن تكونه وما لا تتمنى أيضاً أن تصبحه . السيدة س تمثل أيضاً صورةً مستقبلية أحادية الجانب لطبع المريضة . أما بخصوص الفنان المثير فيستشعر المرء بدايةً بعض الصعوبات في رفعه تفسيرياً إلى مستوى الفاعل (الذات) ذلك أنَّ المواهب الفنية الخافية للمريضة قد سبق تمثيلها بالسيدة س . وفي وسعنا القول بحقٍ بأنَّ الفنان يكّون صورة الجانب المذكر الهاجع في المريضة وحيث لا يجد مكاناً له في الواعية فإنَّه يطفو غير ناشطٍ تقريباً في الخافية[1] .

يبدو ذلك متحققاً في واقع أنَّ المريضة بهذا الخصوص تقع في توهّم بنفسها . فهي فعلاً تعتبر نفسها حساسةً ورهيفةً وأنوثيةً إلى أبعد حد وأنْ ليس فيها مطلقاً أي شيءٍ ذكوري . لذا فقد كانت جدُّ متفاجئة ومنزعجة عندما لفتُ نظرها للمرة الأولى على سماتها الذكورية . بيد أنَّنا لا نملك أن ندخل إلى الحجيرة المذكرة نفسها علامات

١ - سمّيت هذا الجانب المذكر في داخل النفسانية الأنثوية «القرين» وسميت «قرينة» الجانب الأنثوي المناظر داخل النفسانية المذكرة .
أنظر في هذا الخصوص «علم النفس المركب» ص ١٦٦ - ص ١٦٨ (م) .

القلق والافتتان التي يبدو أنها تفتقر إليها أقله في نفسانيتها المظهرة . ومع ذلك فيجب أن يكون هذا الجانب قابعاً في مكانٍ ما لأنها هي نفسها بلا قيد ولا شرط قد صاغت هذه العاطفة .

عندما لا نتمكن من العثور على عنصر من هذا الضرب في نفسانية الحالم فإنَّ التجربة تثبت دائماً بأنه تمَّ إسقاطه . ولكن على ماذا جرى الإسقاط ؟ هل ما يزال هذا الإسقاط ملتصقاً بالفنان ؟ لقد غاب هذا الأخير منذ زمنٍ طويل من أفق المريضة ومع ذلك فهو لم يستطع أن يأخذ إسقاطه معه لأنَّ رَحِمَ هذا الإسقاط متأصل في خافية مريضتنا . زد على ذلك أنه لم يكن لها علاقةٌ شخصية مع الفنان على الرغم من طابع الإفتان الذي مارسه عليها . لقد حقّق بالنسبة إليها إطلالةً تخيلية . من هنا فإنَّ إسقاطاً من هذا الضرب هو إسقاط راهن دائماً ؛ ذلك يعني بأنَّه يجب أن يوجد بمكانٍ ما شخصية معينة يُسقَط هذا العنصر عليها لأننا بدون هذا قد نجده في شخصها وجوداً ملحوظاً .



تعيدنا هذه الأفكار على نحوٍ غير ملحوظ ودون إحساسٍ منا إلى مستوى الموضوع (الغرض) لأنّنا بدون هذه العبورات من أحد المستويين إلى الآخر قد لا يكون في وسعنا البتة العثور على وعاء هذا الإسقاط . لا تعرف المريضة رجلاً لديه في نظرها بعض الفائدة إلَّا أنا نفسي بما أنّي طبيبها الذي أملك الكثير منها . ثمّة إذاً مجال للافتراض بأنَّها أسقطت هذا العنصر عليَّ ومع ذلك فأنا لم أستشعر من جانبها شيئاً مشابهاً البتة . بيد أنَّه ليس ثمّة في ذلك ما يثير العجب لأنَّ العناصر الأدق في رهافتها لا تتعرض أبداً تعرضاً عفوياً إلى الضوء الساطع للسطح حيث أنَّها لا تتجلّى عموماً بحضورها إلَّا خارج جلسة العلاج.من هنا بادرتها بالسؤال على خفر : «قولي لي إذاً ما هو تفكيرك بي وأيّة صورةٍ تصطنعين لي عندما لا تكونين في مكتبي ؟ هل أنا نفسي دائماً ؟» . فأجابت : «عندما أكون في مكتبك فأنت لطيف جدّاً ويشعر المرء إزاءك بالاطمئنان أما عندما أكون وحيدةً أو عندما لم أرك منذ بعض الوقت فإنَّ الصورة التي أتصورك بها تتحول غالباً تحولاً فضولياً . فأنت تبدو لي أحياناً بسماتٍ غاية في المثالية وأحياناً . . . يكون الأمر مختلفاً كلَّ الاختلاف» . هنا انقطعت عن الكلام مترددةً فساعدتها : «إذاً كيف أكون حينئذٍ ؟» فأجابت قائلةً : «إنّك تنبجس

أحياناً بسماتٍ مخيفةٍ جدّاً ومقلقة أشبه بساحرٍ خبيثٍ أو شيطان . لست أفهم كيف تراودني أفكار كهذه ومع ذلك فأنت لست في شيء من هذا» .

إذاً قد تمَّ عليَّ إسقاط العنصر موضع البحث تحت شكل تحويل ومن هنا غيابه في بيان نفسية المريضة . وتمنحنا هذه التحققات معرفةً جديدةً هامةً : لقد كنت متعدياً بصورة الفنان ومواحَداً به مواحدةً خافية وبالتالي فقد كانت في تخيلها الخافي تلعب بإزائي ، بقدر ما كنت أغطي الفنان ، دورَ السيدة س عشيقته . لقد استطعت أن أبينّ لها هذا الواقع بياناً سهلاً بفضل مواد مستقاةٍ سابقاً خاصة بفضل المواد التي كانت تثير مشاهدة جنسية . غير أنني صرت منذ ذلك الحين الحاجز الإربيان الذي كان يمنعها من البلوغ إلى الضفة الأخرى . فإذا ما توقفنا عند هذا الحد في حالاتٍ كهذه عند الشرح على مستوى الموضوع (الغرض) فقد يكون من الصعب جدّاً بلا شك الخروج من دعسةٍ دقيقةٍ كهذه . فماذا قد تفيدني كل تفسيراتي ؟ في وسعي القول دائماً : «تعلمين جيداً بأنّي لست ذلك الفنان وأنا لست أحولَ ولا مقلقاً كما لست بساحرٍ يريد لك الشر الخ . . . » . إنَّ كلاماً كهذا لن يمس المريضة البتة لأنّها تعرفه من الآن كما أعرفه أنا ولن يقل تأصل الإسقاط إثر تحريضاتي السابقة وعلى الطبيب أن يتحقق في حالةٍ كهذه بأنّه الحاجز الذي يعاكس التطورات اللاحقة للمريضة .

لقد كان لأكثر من علاج حُشر في هذا المأزق نصيبه الفاشل ذلك أنَّه لا توجد هنا سوى وسيلةٍ واحدة للإفلات من سطوة الخافية هي أن يرتفع الطبيب نفسه إلى مستوى الفاعل أي أن يؤازر مريضته لتفهم بأنّه لا يشكل هو نفسه سوى صورة . ولكن أيّة صورة ؟ إنّها هنا صعوبة الصعوبات : إذن ، يقول الطبيب «هي صورة شيء ما كان يهجع في خافية المريضة» الأمر الذي سترد المريضة عليه بالقول : «ماذا ؟ هل أنا رجل وفوق ذلك رجل مفتن مقلق ساحر مخيف أو شيطان ؟ كلا ثم كلا! لا يمكنني أن أرضى بذلك ، إنّه جنون ، بل أعتقد بالحري بأنَّ الأمر في هذه الإلماعات الشيطانية إنّما يتعلق بك أنت . » إنّها فعلاً على حقٍّ فيما تقول . يبدو أنَّ إرادة إدخال حصيلة تخيلات مماثلة في شخصها أمر مفرط في اللا معقولية . إنّها لا تستطيع أكثر من الطبيب قبول التحول إلى شيطان . عند هذه الفكرة راحت عيناها تلمعان شرراً

وظهر تعبير سيء على محيّاها وانفجرت مقاومة مجهولة فجأةً في قسماتها . فأبصرت دفعةً واحدةً إمكان إنزلاق سوء فهمٍ بيننا لا يمكن تجاوزه . فبماذا يتعلّق الأمر ؟ هل بالحب المحبط ؟ هل شعرت بنفسها مستجهلةً ومحقّرة ؟ إنَّ نظرتها تذكر بنظرة وحشٍ مفترس وإنَّ فيها حقاً شيئاً ما شيطانياً . أفتكون مع ذلك شيطاناً ؟ أم أنّي أنا نفسي الوحش المفترس والشيطان الذي يمسك أمامه بضحيته المفتتنة المرعوبة التي تحاول الدفاع عن نفسها ضد أذياته بالقوة الوحشية اليائسة ؟ أيّة أمواج هذياناتٍ نتجشّم الآن! ذلك أنَّ الأمر لا يمكن أن يتعلّق إلّا باستشباحات fantasmagories . ولكن أيّة نقطةٍ حساسة استطعت إصابتها في المريضة ؟ أيَّ وترٍ جديدٍ فيها راح يهتز؟ ومع ذلك فإنَّ هذا المشهد كله لم يدم سوى هنيهة حتى بدأت هيئة المريضة تهدأ . وقالت لي كالمرتاحة : «إنّه لأمر فضولي لقد مسَّني الانطباع بأنَّك أصبت نقطةً لم أستطع البتة تجاوزها في علاقتي مع صديقتي . إنّها عاطفة مخيفة ، إحساس بشيءٍ ما غير إنساني البتة ، سيءٍ وقاسٍ يستحيل عليَّ أن أصف لك مبلغ إقلاق هذا الإدراك . ففي حالاتٍ مماثلةٍ تجعلني العاطفة أكره نفسي وأحتقر صديقتي على الرغم من أني أحمي نفسي من ذلك بكل قواي .»

هذه الكلمات أضاءت الفصل كله . لقد أخذت مكان الصديقة ، والصديقة بما هي كذلك قد تمَّ تجاوزها وكُسِرت مرآة الكبت . ثمَّ دخلت المريضة دون علمٍ منها في طورٍ جديدٍ من وجودها . فأنا أعلم من الآن بأنَّ كل ما كان يوجد من ضار ومؤلم في علاقاتها مع صديقتها سوف يقع عليَّ وبلا شكٍ أيضاً ما كان من علاقات طيبة . ولكنَّ ذلك في تناقضٍ عنيفٍ مع ذلك الـ س المستتر الذي لم تستطع المريضة البتة تجاوزه . نبلغ الآن إذاً طوراً جديداً من التحويل ولكنّه ما يزال لا يسمح بالتبين تبيناً واضحاً فيما يقوم هذا العنصر س المسقط عليَّ .

من الأكيد أنَّ المريضة إذا ما توقفت عند هذه العتبة من التحويل فقد نتعرض إلى أفدح الالتباسات ذلك أن المريضة في هذا الطور ستكون مدفوعةً على نحوٍ خافي inconscient إلى التعامل معي بمثل ما كانت تعامل صديقتها أي أنَّ اللغز السري سيظل حائماً على الدوام وباعثاً على النزاعات . ومن هنا فإنّها ستجد نفسها مضطرة لأن ترى فيَّ الشيطان المسيء كونها لا تستطيع الإقرار بأنّها كانت هي نفسها ذلك

الشيطان . فعلى هذا النحو تتكون الصراعات المستعصية ، غير أنَّ صراعاً مستعصياً يعني في مرحلةٍ أولى على الأقل توقف الحياة واستنقاع مجاريها .

ثمّة أيضاً إمكان آخر : ستعمد المريضة إزاء هذه الصعوبة الجديدة إلى استخدام وسيلتها الدفاعية القديمة فتمتنع عن النظر إلى هذه النقطة المعتمة التي ستغض النظر عنها كابتةً إياها مجدداً بدلاً من أن تحتاز وعياً واضحاً بما اجتهد في رفعه إلى مستوى الوعي وهو موقف ذهني وضرورة بديهية ضمنية في المنهج نفسه لا خيار فيها . وبالعكس ليس ثمّة مكسب في هذا الكبت فتهديد السيد س سوف ينبعث من الخافية بدل أن يصدر عن الواعية الأمر الذي هو أكثر إزعاجاً وخطراً بكثير .

لا بد لنا أن نتساءل أولاً كلَّ مرَّةٍ يبرز فيها عنصر غير مقبولٍ من هذا الضرب عما إذا كان الأمر يتعلق بصفةٍ شخصية أو بنعتٍ غير صحيح . فيبدو أنَّ كلمتي «ساحر» و«شيطان» تمثلان صفاتٍ تكشف منذ الوهلة الأولى بموجب التسميات عينها التي أطلقها عليها الناس بأنَّ الأمر لا يتعلق بصفاتٍ بشرية بالمفهوم الشخصي للمصطلح بل بصفاتٍ أساطيرية . إنَّ «الساحر» و«الشيطان» شخصيتان أساطيريتان تعبران عن الإحساس المجهول والشعور «غير الإنساني» الذي استولى على المريضة . هذه النعوت ليست إذاً بحد ذاتها منطبقة إطلاقاً على شخصيةٍ بشرية على الرغم من أننا نجدها كقاعدةٍ عامة مخلوعةً على الغير - تحت شكل أحكامٍ حدسية تفلت من كل فحصٍ ناقدٍ أكثر تنوراً - مسببةً دائماً أكبر مضرَّة للعلاقات البشرية .

إنَّ مثل هذه النعوت تدل دائماً بأنَّ محتوياتٍ تعمِّر الخافية الجمعية أو فوق الفردية قد تمَّ إسقاطها . ذلك أنَّ «الشياطين» وأقل منهم «السحرة الخبثاء» لا تعتبر تذكراتٍ شخصية على الرغم من أنَّ كلاً منا قد سمع الكلام عنها ذات يوم أو أنَّ لديه شيئاً ما في هذا الخصوص . بيد أنَّ المرء لن يقفز مذعوراً عند أقل صريرٍ لعضاية لمجرَّد أنَّه سمع يوماً كلاماً عن حياتٍ ذات أجراس أو أنَّه سيلتبس عليه ما بين بدغةٍ[1] غير مؤذية وهذه الزواحف المرعبة . ولن يكون لدينا من الدوافع أكثر لكي نعلن بأنَّ السيد فلان «شيطان» إلا إذا صدر حقاً عن شخصيته ضرب من وقع .

١ - جنس زحافات من العظاء تشبه الحية (م) .

شيطاني . غير أنَّ الحالة لو كانت كذلك وكان هذا الوقع الشيطاني عنصراً مكوناً فعلاً لطبعه الشخصي فإنَّ كلَّ أعضاء محيطه سيستشعرون ذلك ويصبح هذا الكائن حقاً حينئذٍ ضرباً من شيطان أو ذئبٍ مهوِل . وخارجاً عن هذا الاحتمال لا يمكن أن يتعلق الأمر إلَّا بشخصيةٍ وبتعبير أساطيري مما يعني بأنَّ الموضوع الجاري هو المنظومة النفسية الجمعية وليس أبداً منظومةً نفسيةً فردية . إننا بقدر ما نشترك عبر خافيتنا في المنظومة النفسية التاريخية الجمعية نعيش عيشةً طبيعيةً وخافيةً في عالمٍ من المتوحشين والشياطين والسحرة الخ . . . فتلك تمثيلات قد أثارت على امتداد العصور السابقة لعصرنا أشدَّ الانفعالات في الجنس البشري كافةً . وعلى نحوٍ مضاهىء يشترك وجودنا مع وجود الآلهة والشياطين والمخلصين والمجرمين لكنَّه قد يكون من الجنون أن يزعم المرء استنساباً شخصياً لهذه الإمكانات الملازمة للخافية . لذلك فإنَّ من الضرورة القصوى إقامة خطٍ فاصلٍ واضحٍ بقدر الإمكان بين ما هو شخصي ويتعلق بمسألتنا من جهة وبين ما هو لا شخصي من جهة أخرى . وذلك ليس بالطبع من أجل أن ننفي الوجود المرجح الشديد النجوع لمحتويات الخافية الجمعية بيد أنَّ المطلوب هو تمييز هذه المحتويات بما هي عدّة المنظومة النفسية الجمعية من النفس الفردية . فلدى الكائنات التي استمرت في سذاجتها البدائية لم تُفصل قطُّ هذه المعطيات بالطبع عن الواعية الفردية لأنَّ الآلهة والشياطين كانت متصوَّرة ليس على أنَّها إسقاطات نفسية ومكونة بهذا الفعل محتويات خافية ولكن على أنها بلا قيدٍ أو شرط وقائع قائمة بذاتها . إنَّ طابعها الإسقاطي لم يكن قط قد استدرك . لقد انتظر الناس العصر المدعو عصر «الأنوار» لكي يدركوا بأنَّ الآلهة لم تكن موجودةً فعلاً وأنَّها ليست سوى إسقاطات وبهذا الفعل عينه توقفت سيادتها . بيد أنَّ الوظيفة النفسانية التي كانت متواكبةً معها لم تلغ بأيِّ حالٍ من الأحوال: لقد أصبحت عدةَ الخافية ووجد الناس أنفسهم بعد هذا التحول متسممين بفائضٍ من الليبيدو كان في السابق موظفاً ومستخدماً في إكرام الصور الإلهية . إنَّ بخس وكبت وظيفة هامة كالعاطفة الدينية له بالطبع عواقب هامة على صعيد النفسانية الفردية . فارتداد الليبيدو سيعزز منذئذٍ الخافية بمقادير هائلة بحيث يبدأ بممارسة عملٍ قويٍّ وتأثير بالغ على الواعية من خلال تنشيط محتوياتها الجماعية البائدة . فلنذكر فضلاً عن ذلك بأنَّ «عصر الأنوار» قد انتهى بمجازر الثورة الفرنسية . وفي الوقت الراهن أيضاً نحن نشهد ذلك التمرد

للقوى التدميرية للنفس الجماعية . لقد كانت نتيجتها مذبحةً عامة لم يُشاهد مثلها قط[1] . هذا هو بالتحديد ما كانت الخافية تبحث عنه . لقد كان وضعها مدعوماً مسبقاً دعماً لا حدود له بعقلانية الحياة الحديثة تلك العقلانية التي كانت تحطُّ خاصةً من شأن ما هو لا عقلي معيدةً بذلك إلى الخافية وكابتةً فيها وظيفة اللا عقلي . ولكن ما إن عبرت هذه الوظيفة إلى الخافية حتى راحت من هناك تمارس تأثيراً اجتياحياً غير منحبس . إنَّ فعلها أشبه بمرضٍ مستعصٍ لا يمكن استئصال بؤرته لأنَّه يستمر مستتراً . فالفرد حينئذٍ ومعه الشعب كله مجبر على نحوٍ قاهر على أن يعيش اللا عقلي وأن يعيشه بحيث يصبح لزاماً عليه استخدام المثالية الأصفى وأحذق مواهبه من أجل أن يحقق بأفضل صيغةٍ ممكنة ترهات اللا عقلي . إنَّنا على نحوٍ مصغر إزاء مشهدٍ مماثلٍ لدى مريضتنا . فقد كانت تتجنب طريقة حياةٍ كانت تبدو لها لا عقلية ـ تلك التي كانت تمثلها السيدة س ـ لكي تعود فتسقط فيها سقوطاً مرضياً وتنكبُّ عليها بكلِّ نكران الذات الصريح بقرب صديقتها التي كانت أسوأ غرضٍ اختارته لذلك .

ثمّة إمكان واحد : **الاعتراف باللا عقلي كوظيفةٍ نفسانيةٍ محتمة ضرورتها لأنَّها موجودة دائماً** ؛ واعتبار محتوياتها لا بمثابة وقائع ملموسة (قد يشكل ذلك خطوةً إلى الوراء !)ولكن كوقائع نفسية ذلك أنَّ الأمر يتعلق **بمعطيات فاعلة ، إذاً فبأشياء واقعية** .

غير أنَّنا قد رأينا بأنَّ الخافية الجمعية تظهر بمثابة محصلة للترسبات المتراكمة للخبرة البشرية منذ أينون Aenone وفي الوقت عينه بمثابة ابتدار a priori لهذه الخبرة وصورة عن العالم متشكلة مسبقاً[1] . ثمَّة بعض سماتٍ في قلب هذه الصورة قد برزت على مدار القرون بروزاً خاصاً وأقصد بذلك **الأعيان الثابتة أو السائدات** .

إنَّها القيم السائدة والآلهة أي صور قوانين أو مبادىء سائدةٍ مسبقاً وانتظاماتٍ وسيطةٍ في تتابع التفصيلات[2] التي لا تني النفس الإنسانية تجدّد اختبارها . فبمقدار ما

١ ـ كتبت هذه الأسطر في عام ١٩١٦ ومن النافل الاضافة بأنها ما تزال صحيحةً في أيامنا .

١ ـ يمكن فهم الأعيان الثابتة كما أشرنا الى ذلك أعلاه على أنها محصلة أو تراكم الخبرات المعيوشة أو أنها بالعكس تحوي العوامل التي تخلق القابلية للتجربة فتجعلها بذلك ممكنة .

٢ ـ نقصد بالتفصيلات = représentations أي إظهار وتمثيل ما هو كامن في ميدان الواقع (م) .

أنَ هذه الصور تفصيلات أمينة نسبياً لأحداثٍ نفسية فإنّ الأعيان الثابتة أي الطباع العامة السائدة والبارزة بفعل تراكم الخبرات المضاهئة ـ تتوافق أيضاً مع بعض صفات أساسيةٍ وعامةٍ في العالم المادي . لذلك فإنّ من الممكن نقل صورٍ عينيةٍ ثابتةٍ بمثابة مفاهيم تصويرية إلى سياقاتٍ طبيعية . فالأثير مثلاً على هذا النحو ذلك العنصر الفائق القدم ، النفخة أو النَفَسْ الممثل تقريباً في تصورات الأرض كافةً ومثله أيضاً الطاقة ، تلك القوة السحرية هي تصور منتشر أيضاً في كلّ العالم .

إنَّ الأعيان الثابتة بسببٍ من هذه القرابة وهذا الانعداء بالتجليات الطبيعية تنطرح أمامنا تحت شكل إسقاطات ؛ وخاصةً عندما تكون هذه الإسقاطات خافيةً تماماً فإنّها تتعلق بالأشخاص الذين يشكلون محيط الفرد . فتأخذ عندئذٍ كقاعدةٍ عامة شكل تبخيساتٍ أو فعالياتٍ غير سوية خالقةً بذلك كلّ ضروب سوء التفاهم والمشاجرات والحماسات المفرطة والفتن . فعلى هذا النحو تقول الحكمة الشعبية : «فلان جعلوا منه إلهاً» أو : «فلان أو فلانة هو البعبع الأسود لفلان» . الإسقاطات هي أيضاً مسؤولة عن خلق الأساطير الحديثة أي الشائعات المزيّفة المتخلّقة والتحديات والمزاعم الوهمية لذلك فإنَّ الأعيان الثابتة هي عوامل ذات أهميةٍ قصوى من شأنها أن تحدث تأثيرات هائلة جديرة بأعظم الاهتمام . انطلاقاً من هنا لا يكفي الاتكال على ما يبدو أنّه الانحدار السهل والذي يقوم على كبحها بكلّ بساطة بل ثمّة بالعكس مجال لإخضاعها لأشد الفحوص دقةً وأكثرها إحاطةً بسبب خطر الخمج النفسي الناجم عنها . وحيث أنَّ معظم الأعيان الثابتة تظهر في شكل إسقاطات ، وحيث أنَّ هذه الأخيرة لا تتثبت إلاّ حيث يدعو إليها باعث طارىء[1] فإنّ تقصي آثارها وتقديرها هما من أصعب الأمور . عندما يسقط أحدهم مثلاً صورة الشيطان على واحدٍ من أمثاله فلأن هذا الكائن يملك في نفسه شيئاً ما يتيح له أن تناط به هذه السائدة . غير أن ذلك لا يعني إطلاقاً بأن هذا الإنسان شيطان فعلاً بل قد يكون بالعكس إنساناً طيباً على نحوٍ متميز لكنه انفصل عن الفاعل المسقِط بفعل تنافر وهذا هو ما يعين من الواحد الى الآخر تأثيراً «شيطانياً» أي فاصلاً . ولا يملك الفاعل المسقِط أن يُمثّل هو الآخر لا أكثر بشيطانٍ صار إنساناً على الرغم من أن عليه الاقرار

١ ـ ذلك أنه لا بدَّ من وشيجة دنيا بين المحتوى المخلوع والغرض المتلقي للخلع لكيما يحدث ذلك (ر.ك) .



بأن هذه المكوِّنة موجودة فيه إلى جانب مكوِّنات أخرى كثيرة وأنه بمقدار ما أسقطها قد ترك نفسه تضبط متلبِّسةً على نحو خاص بواحدةٍ من مكوِّناتها الخافية. ذلك لا يستدعي بالتالي أن يكون «شيطاناً» كما لا يمنعه من أن يكون إنساناً مناسباً في الظاهر تماماً كالأول. إن بروز سائدة (الشيطان) تعني في هذه الحالة بأن ثمة تنافراً بين الرجلين في الحاضر وفي المستقبل القريب لذلك فإن الخافية تفصل بينهما فصلاً عنيفاً وتبقيهما بعيدين الواحد عن الآخر. الشيطان هو بديل عن العين الثابتة «للظلّ» التي تمثل المظهر الخطر للنصف المعتم وغير المعروف من الإنسان.

إنّ واحداً من المحتويات التي نكاد نصادفها بانتظام في داخل الخلوع (الاسقاطات) الصادرة عن محتويات الخافية الجماعية هو (الساحر الشيطاني) الذي يتمتع غالباً بنشاطات سريّة مقلقة. وإننا لنجد مثالاً جيداً على ذلك في غولم ميرانك Golem de Meyrink كما لدى الساحر التيبتي الذي وصفه ميرنك في مؤلفه المعنون الخفافيش حيث نجد الساحر يطلق الحرب العالمية بخزعبلاته السحرية. وبالطبع فإن ميرنك لم يستقِ وحي مؤلفاته من كتاباتي، فإن وحيّه إنّما انبجس من خافيته مجسداً بالصورة والكلمة عاطفة مماثلة لتلك التي كانت مريضتي قد خلعتها عليّ. وتظهر العين الثابتة للساحر أيضاً في زرادشت، وهي أيضاً في فاوست بطل المسرحية نفسه.

إن الصورة العينية الثابتة للشيطان هي بلا شك واحدة من الدرجات الأكثر بدائية وقِدماً حتى في تصور الإنسان للّه. إنّها في أساس نمط ساحر القبيلة البدائية أو الرجل الطبيب، تلك الشخصية الفنية بكل المواهب الفريدة والمؤزرة بكل القوة السحرية[1]. وتظهر هذه الشخصية غالباً جدّاً في خافية مرضاي تحت مظاهر شخصيةٍ ذات جلد معتم وسماتٍ منغولانية mongoloides[2] عندما تكون مجسّدة لجانب سلبي وخطير ربما. ويجد المرء صعوبة أحياناً في التفريق بين هذه الشخصية وشخصية الظل

١ ـ إن تمثيل الرجل الذي يخالط الأرواح ويتمتع بقوة سحرية جداً متأصل عند كثيرين من البدائيين إلى حدّ أنهم يفترضون أيضاً وجود «قادة مرشدين» لدى الحيوانات. فعلى هذا النحو يتكلم آشوماڤيش شمال كاليفورنيا عن ذئاب عادية و«ذئاب قائدة».

٢ ـ شبه منغولية وهذه تشير إلى سمات خارجية شاذة ككبر الرأس وانتفاخ الوجه مترافقة مع ضعف عقلي (م).

ولكن كلما غلبت التلوينة السحرية أمكننا التمييز بالأكثر ، الأمر الذي له أهمية خاصة جدّاً بسبب من واقعٍ أن هذه الشخصية يمكن أن ترتدي المظهر الإيجابي جدّاً للعجوز الحكيم .

لقد خطونا في ولوجنا عالم الأعيان الثابتة خطوة عظيمة إلى الأمام .

التأثير السحري أو الشيطاني للقريب يختفي بفضل هذا المفهوم لانه يتيح إرجاع الإحساس السري المقلق الى مقدار ثابت في الخافية الجماعية . ولكن لدينا الآن في مكان ذلك مهمة جديدة جدّاً وغير متوقعة إلى الآن : إن علينا من الآن أن نتساءل كيف على الأنا أن تتجابه مع هذه اللا أنا النفسانية . هل بإمكاننا الإكتفاء بالتحقق من الوجود الفاعل للأعيان الثابتة ونهمل بالتالي الأمر لشأنه ؟

إن هذا الموقف قد يخلق لدى صاحبه حالة من تفكك ثابت وثغرة دائمة بين النفس الفردية والنفس الجماعية . فمن جهة سيكون لدينا حينئذٍ الأنا المتميزة الحديثة ومن جهة أخرى بالعكس ضربٌ من حضارة زنجية أي باختصار حالة بدائية كل البداءة . لعلنا بذلك ندعم دعماً شديداً ما هو متحقق في الحضارة الراهنة وأعني به قشرة من حضارة تغطي ضرباً من خامات ذات أشكال تعود إلى ما قبل التاريخ . بيد أن تفككاً بمثل هذا العمق يتطلب في الحال تركيباً لا يمكن بلوغه إلا بتنمية ما لم يكن إلى الآن قد تمت تنميته . لا بدّ لنا أن نهدف إلى اتحاد بين العنصرين المتفككين مسبقاً وبغير ذلك سيكون أكيداً بأن القرار المتخذ قد يُخضِعُ مجدداً وبلا شك المظهر البدائي للضغط . بيد أن هذا التركيب بدوره غير ممكنٍ إلا حيث ما تزال توجد ديانة ذات قيمة وأعني بذلك ديانة حية تتيح للإنسان البدائي فينا بفضل رموزيةٍ غنيةِ التنوّع أن يعبر عن نفسه تعبيراً كافياً ، الأمر الذي يعني القول بأن هذه الديانة يجب أن تحتوي في عقائدها وطقوسها تفصيلاتٍ ونشاطات ترجع إلى ليل الأزمنة . الديانة الكاثوليكية هي تحديداً في مثل هذه الحال وهذا هو ما يكوِّن وقفها الأثمن وفي الوقت عينه خطرها الأعظم .

أما الآن فلنعد قبل الدخول في هذه المسألة الجديدة عن إمكان التركيب إلى الحلم الذي كان بداية انطلاقنا . ففي كل ما تقدم كنا قد اكتسبنا عنه فهماً أوسع

وخاصة فهم واحد من عناصره الجوهرية وأعني به الكرب angiisse . **هذا الكرب إنما** هو خوف بدائي مستشعرٌ إزاء محتويات الخافية الجماعية . **فقد رأينا بالفعل أن مريضتنا** تتواحد بالسيدة س مظهرة بذلك أنها على صلة بالفنان المزعج . ورأينا من جهة أخرى بأن الطبيب كان مواحداً في فكر المريضة بالفنان وأنه كان يمثل فوق ذلك على صعيد الفاعل صورة للعين الثابتة للساحر في الخافية الجماعية .

كل هذا تغمره في الحلم رموزية الإربيان ذلك الحيوان الذي يسير القهقرى . فالإربيان يمثل محتوىً حياً في الخافية ، محتوىً ليس بوسعه أن ينفد البتة أو أن تُشل فاعليته بتحليل على صعيد الغرض . **إن ما توصلنا إليه هو تمييز وفصل المحتويات الأساطيرية أو المحتويات النفسانية الجماعية عن معطيات الوعي وفهمها وتثبيتها كوقائع نفسية قائمة بذاتها في المنظومة النفسية خارجاً عن المستويات الفردية** . إننا «نرسي» بالفعل المعرفي حقيقة الأعيان الثابتة أي أننا تحديداً نصادر على قاعدة المعرفة التي نملكها عنها على الطابع الوجودي لهذه المحتويات النفسية . ولننوه أيضاً بأن الأمر لا يتعلق ببساطة بمعطيات جديدة للوعي وبتنميقات مفرطة في المعرفة بل أننا نواجه على أية حال نظماً نفسية تتجاوز الفاعل ، مِستقِلّة إلى حدٍّ بعيد وانطلاقاً من هذا غير خاضعةٍ للمراقبة الواعية إلا على نحوٍ شرطي جدّاً أو أنها تفلتُ على الأرجح جداً وبالمقدار الأكبر من هذه الرقابة .

فما دامت الخافيةُ الجماعية غير مميزةٍ عن المنظومة النفسية الفردية وما دامت بشكلٍ ما معاقة بهذه الأخيرة فإن اي تقدمٍ لا يمكن أن يحصل : فالحاجز - لكي نتكلم مع الحلم - لا يمكن عندئذٍ اجتيازه . **بيد أن الحالمة لو حاولت على الأقل اجتياز الحاجز فإن ما كان خافياً في السابق ينتعش ويمسك بها مثبتاً إياها تثبيتاً راسخاً** . إن الحلم والعُدَدَ التي أتاحها تسِمُ الخافية الجماعية كحيوان سفلي يعيش مختبئاً في أعماق المياه وكمرض خطيرٍ من جهة أخرى يمكن الشفاء منه فيما إذا عولج بالوقت المناسب . لقد سبق أن رأينا مبلغ تطابق هذه السمات . فرمز الحيوان خاصة يبرز كما أشرنا إلى ذلك العنصر فوق البشري أي فوق الفردي . ذلك أن محتويات الخافية الجماعية ليست فقط بقايا وظائف بائدة للنوع البشري ولكنها أيضاً بقايا وظائف تركت أثراً في سلالة الأسلاف التي يتمتع بها الإنسان بين الحيوانات . غير أننا نعلم بأنه قد كان





لهذه السلالة أجلٌ أطول بكثير من أجل الإنسان الذي لا يمتد وجوده إلى أكثر من مرحلة قصيرةٍ نسبياً[1]. إن لمثل هذه البقايا أو ـ بحسب تعبير سيمون ـ لهذه الإنطباعات أكثر من أي شيء آخر القدرة ، عندما تكون فاعلة ، ليس فقط على إيقاف تطور النمو ولكن أيضاً على تحويله إلى نكوص إلى أن تُستنفد كمية الطاقة التي أعادت تنشيط هذه العناصر في الخافية . غير أنه يمكن مجدداً إعادة استخدام هذه الطاقة فيما لو أتاح احتياز بالوعي ناجمٌ عن مجابهة بين الخافية الجماعية والمنظومة الفردية لهذه الأخيرة استرجاع الطاقة الموظفة في الطبقات العميقة وأخذها بالحسبان . إن الديانات قد رسمت هذه الدورة الطاقية على النحو الأكثر عيانية بفضل العلاقات والمبادلات مع الألهة المتاحة من خلال طقوس العبادة . غير أن هذه الطريقة بالنسبة إلينا قد تكون بالغة التعارض مع العقل وأخلاقه المعرفية ـ بغض النظر عن واقع أن المسيحية قد جعلتها تاريخياً تتهافت تهافتاً كاملاً ـ لكي يكون في مقدورنا تقديم هذا الحل كمثل أو حتى إعلانه ممكناً . أما إذا تصورنابالعكس هيئات الخافية بمثابة ظواهر أو وظائف نفسانية على نحو جماعي فإن هذه الفرضية لا تصدِمُ بأي شكل من الأشكال واعيتنا المثقفة . فعلى هذا النحو يمكن قبول هذا الحل من وجهة نظر عقلية وهو يمنحنا إمكان تدبر «شرحنا» للبقايا المعاد تنشيطها في تاريخ عرقنا . ويتيح لنا الضبط الناجم عن ذلك بتجاوز الخط الفاصل الذي كان يوقفنا إلى الآن . لذلك فإنها تحمل بكل جدارة إسم وظيفة متعالية (سامية) بما هي موازية لتنمية متطورة نحو موقف جديد .

إن الموازاة مع اسطورة البطل تقفز أمام ناظرينا.فمن الشائع أن الصراع ضد الوحش الذي هو فيها الباعث النمطي (الوحش يمثل هنا المحتوى الخافي inconscient المستشعر كوحشي) يجري على ضفاف المياه وأحياناً عند معبر كما هي الحالة مثلاً في أساطير الهنود التي رواها لنا لونغفللو Longfellow في «الهياواثا» Hiawatha حيث يقوم الوحش كل مرة في الصراع الحاسم بابتلاع البطل (وتلك حالة يونان) كما بين ذلك فروبنيوس في أعماله الضخمة . ولكن ما أن يدخل البطل إلى داخل الوحش حتى يبدأ

١ ـ لقد لجأ هـ. غانتس H. Ganz في أطروحته الفلسفية عن الخافية عند ليبنتس ، راشر ، زوريخ ١٩١٧) إلى نظرية الإنطباعات Engrammes عند سيمون لكي يشرح الخافية الجماعية . إن الخافية الجماعية كما طرحت مفهومها لا تتطابق سوى في بعض وجهات نظر مع تصور سيمون عن «الآثار الذاكرية» في تاريخ الأعراق .

على طريقته في تدبر «أمره» معه في حين يبحر الحيوان الذي يحتويه نحو الشرق نحو الشمس الطالعة : فيقطع البطل بسيفه قطعة هامة من أحشاء الحيوان ، القلب مثلاً الذي كان هذا الأخير يعيش بفضله . ذلك يعني على صعيد نفساني أنه يعيد احتجاز الطاقة الثمينة التي عينت تنشيط الخافية) . وهكذا يقتل البطل الوحش الذي يستقر جسمه أخيراً على الشاطىء . وهناك يندفع البطل الذي مرّ في انبعاث حقيقي تحت تأثير الوظيفة السامية (العبور الليلي للبحر كما عبّر عن ذلك فروبنيوس) مخرجاً معه غالباً كل ما كان الوحش قد ابتلعه في السابق . وينجم عن هذه السيرورة استرجاع حالة سوية . فالخافية وقد تحرّرت الآن من فائض الطاقة التي كانت مزودة بها في وقت ما لن تشغل بعد وضعاً راجحاً . وهكذا فإن هذه الأسطورة التي كانت حلم العديد من الشعوب إنما تصف وصفاً جلياً جداً المشكلة التي تشغل مريضتنا .[1]

علينا الآن أن نتمسك بمظهر لا يخلو من الأهمية والذي أثار بلا شك القارىء أيضاً هو ظهور الخافية الجماعية في مظهر سلبي جداً وكأنها شيء خطير ضار . ذلك يعود إلى أن المريضة تتمتع بحياة خيالية ، ليست غنية ومتطورة جداً وحسب ولكن جدُّ فائضة ومتضخمة حقاً واجتياحية . والتي فضلاً عن ذلك مرتبطة بلا شك بمواهبها ككاتبة إن لم تكن في أصل تلك المواهب . وفضلاً عن ذلك فإن إفراطها التخيلي عَرَضٌ وخيم بمعنى أنها تفرط في تعاطفها مع أطيافها تاركة هكذا حياتها الواقعية تمضي دون احترازٍ منها . ولعل إبراز هذا الانحراف بزيادة الحجم الأساطيري في وجودها يشكل بالنسبة إليها خطراً أكيداً في حين أنه ما يزال أمامها أيضاً قسط هام من حياةٍ خارجية واقعية وعيانية مع كل ما يتضمنه ذلك من واجبات والتزامات متعددة في الوقت الذي يبقى عليها أيضاً أن تخضع لهذه المقاصل القاطعة . إنها إلى الآن لم تستقر بما يكفي في الحياة الواقعية لكيما يكون بإمكانها مواجهةُ انقلاب في وجهة النظر دون مخاطر . لقد وجدت نفسها محاصرة بالخافية الجماعية التي تهدد بسلخها عن واقع لم تردَّ بعد بما يكفي على متطلباته . وتبعاً لمعنى الحلم فلقد كان يجب إذاً على

١ ـ أحيل قرائي الذي يهتمون على نحو خاص بمشكلة الأضداد وحلّها وبنشاط الخافية الأساطيري إلى كتبي :

**Métamorphoses et Symboles de la Libido**, contribution à l'histoire de la pensée, Montaigne, 1917; Types psychologiques, trad.

الخافية الجماعية أن تبدو لمريضتنا كشيء خطير ما كانت لتكون في حال غيابه إلا مفرطة في اندفاعها للبحث فيها عن ملجأٍ إزاء المتطلبات الشرعية للحياة الواقعية .

عندما يبحث المرء عن تثمين دلالة الحلم ومغزاه فإن عليه أن يُعير انتباهاً عظيماً إلى الطريقة التي تندمج بها شخصياته في مصوره الشامل . فعلى هذا النحو مثلاً فيما يتعلق بشخصية الإربيان الذي كما رأينا يمثل الخافية علينا أن نفكر بأنها سلبيةٌ لأنه يُعلَن صراحة في الحلم بأنه «يسير القهقرى» ولأنه من جهة ثانية يمنع الحالمة باحتجازها من إتمام العمل الذي بدأته . لقد ظننّا جرّاء الإغواء الخطير للإواليات الأحلامية التي تخيّلها فرويد مثل الإزاحات والإنقلابات الضدية وتصوراتٍ آلاتية من المستوى عينه بأنه كان من الممكن التحرر من «واجهة» الحلم المزعومة حيث إن الأفكار الحقيقية الموجهة للحلم موجودة مخبأة خلف هذا ا لزخرف . أما من جهتي فقد أكدت منذ زمن طويل بعكس وجهة النظر هذه بأن لا شيء كان يُجيز لنا اتهام الحلم على نحوٍ ما بمناورة خادِعةٍ مقصودة . إن الطبيعة في الحقيقة معتمةٌ غالباً وغير مُنتفَذة . بيد أنه ليس فيها طابع الحيلة الكاذبة الذي هو واقع الإنسان . لذلك فإن علينا البدء من فكرة أن الحلم هو تحديداً ما يجب أن يكون لا أكثر ولا أقل[1] ! فهو عندما يصف واحداً من عناصره في هيئة سلبية فلا شيء يُجيزُ لنا الإفتراض بأنه يريد بالعكس أن يبرز هيئته الإيجابية وهكذا دواليك . إن الخطر العيني الثابت عند تجاوز العبّارة غاية في الوضوح بحيث أن المرء يستشعر الحلم بمثابة إنذار . بيد أني لا أنصح بوجهات نظر تأنيسية مماثلة : الحلم نفسه لا يريد شيئاً فإن هو إلا محتوىً نفسيٌ يصف نفسه ، مجرد واقع طبيعي يتوضع على الخط نفسه للسكّر في دم المسكور أو للحرارة عند المحموم . إنما نحن الذين إذا كنا متنبهين ونملك تلك الرهافة التي تقتضي تفسير علامات الطبيعة تفسيراً دقيقاً نستطيع في مرحلة ثانية أن نرى فيه إنذاراً ونصيحة حكيمة .

ولكن من أي خطر يجب علينا الإحتراز ؟ إن الخطر يقوم في الظاهر على أن الخافية توشك أن تبتلع الحالمة في لحظة مرورها فوق العبارة . فأية وقائع نفسانية تنطوي عليها إمكانية الإبتلاع هذه ؟ إن انبجاساً للخافية يحصل على نحو سهل في

١ ـ أنظر «الإنسان يبحث عن نفسه» السابق ذكره .

أوان التعديلات والقرارات الهامة . الضفة التي تستعد منها لعبور الساقية تمثل الموقف الذي كانت فيه وقد عرفناه . لقد حشرها هذا الموقف في تقحّل عُصابي كما لو كانت قد اصطدمت بصعوبة كأداء . هذه الصعوبة يصفها الحلم مثل ساقيةٍ تمرُّ فوقها عبّارة ولم يكن بالتالي من الممكن تجاوزها . بيد أن الإربيان يقبع في الساقية متخفياً مترصداً . وحيث أنه غير مرئي فهو يشكل الخطر بكل معنى الكلمة الذي يجعل النهر غير قابل الإجتياز . فلو أنها رأت مسبقاً أن الإربيان الخطير إنما يهجع هنا تحديداً في هذا الموضع لكان بإمكانها أن تحاول العبور في مكان آخر أو أن تتخذ احتياطات إضافية .وفي مثل هذا الموقف الذي وجدت المريضة نفسها محصورة فيه فقد يكون اجتياز الساقية غاية المنى . هذا الإجتياز يعني قبل كل شيء تحويلاً للموقف السابق على الطبيب . في هذا تكمن الجِدّة إذ بدون الخافية غير المتوقعة (أو غير الملحوظة) لن يكون في ذلك شيءٌ من المجازفة على نحو خاص . بيد أننا رأينا بأن نشاط الشخصيات العينية الثابتة الذي لم نكن نستطيع توقّعه يمكن أن يتحرّر بالتحويل . إن الأمر أشبه بعض الشيء بإهمالنا التحالف مع واحدةٍ من الجهات المتداخلة : لقد نسينا في وضعنا للمعادلة «استدراج الآلهة» .

لم تكن مريضتنا ذات شخصية متدينة ولكنها كانت ما قد اصطلح على تسميته «بالحديث» . لقد نسيت ديانتها التي علّموها إياها في طفولتها وتجهل جهلاً كلياً بأن ثمة لحظات تتدخل خلالها الآلهة في اللعبة أو ثمة بتحديد أدق أوضاع تتجلى فيها منذ أزمنة سحيقة حبكةٌ هي من التركيب بحيث تغوص فيما هو الأكثر عمقاً في الكائن وتوقظه . إلى هذه المواقف ينتمي مثلاً الحب بأهوائه ومخاطره . فيمكن للحب أن يوقظ في النفس قدرات غير متوقعة يتمنى المرء لو أنه احتاط لمواجهتها . فما سوف يكون هنا موضع الخلاف هو «الديانة» بما هي «أخذٌ متأنٍ بعين الإعتبار» للمخاطر والقوى المجهولة . فباستطاعة الحب أن ينبعث من إسقاط صرف مؤثراً هكذا على مصير بكليته ومقتلعاً إياه بسراب الأوهام المضللة عن مساره الطبيعي . فهل ثمة خيرٌ أم شرٌ ، الله أم الشيطان هو الذي حاصر الحالة من خلال الإربيان ؟ فهي تجد نفسها قبل أن تعلم بذلك مستسلمة ومقيدة بكليتها . وهل هناك من يدري أنه سيكون بقدرتها تجاوز هذا التعقيد الجديد ! لقد حاولت إلى الآن بأفضل ما لديها أن تتفادى إمكان هذا التعقيد نفسه بيد أن هذا الأخير يهدد بالإستحواذ عليها . ذلك يشكل

مغامرة قد يفضل المرء تجنبها . أما إذا كان المرء ملزماً على القيام بها فلإنه يحمل في ذاته كما تقول الحكمة الشعبية «ثقة جادّة بالله» أو «إعتقاداً» راسخاً بنهاية سعيدة . فعلى هذا النحو تتدخل،على غير توقع ودون بحث عنها،في مشكلة هي محض سلوكية في الظاهر ، مسألةُ الموقف الديني للمرء إزاءَ قدره .

لا يبقى للحالمة بحسب الطريقة التي يجري بها الحلم إمكانات أخرى سوى أن تسحب قدمها بفطنة لأن متابعتها التقدم إلى الأمام قد يكون كارثة . ليس بإمكانها التخلي عن موقفها العُصَابي لأنّ الحلم لا يمنحها إلى الآن أي نوع من إشارة إيجابية على مساعدة يمكن أن تصدر عن الخافية . إن القوى الخافية ليست مهيئة بعدُ لكي تتكرم بفضل على الحالمة منتظرة صراحة عملاً إضافياً وجهداً أكثر تقدماً وتفكيراً أعمق من جانب هذه الأخيرة قبل أن تستطيع فعلاً المغامرة في العبور .

لست أريد بهذا المثل أن أعطي الانطباع بأن الخافية تلعب في كل الحالات دوراً سلبياً على هذه الصورة . ولكي أتغلب على هذا الانطباع سوف أسرد على مسامعكم حلمين لشابٍ يبرزان مظهراً آخر من الخافية أكثر إيناساً . وأنا متشجعٌ لفعل ذلك بمقدار ما يظهر أن حلَّ المشكلة غير ممكن إلا بالسبيل اللاعقلي الذي ترشدنا إليه تجليات الخافية وإليكم الحلمين .

عليَّ أولاً أن أقدِّم للقارىء شخصية الحالم لأنه بالكاد يكون ممكناً بدون هذه المعرفة الوقوف على مستوى النغمية الذاتية الخاصة جداً للمحتويات الأحلامية ؛ فثمَّة أحلام هي محض أشعار ولا يمكن بما هي كذلك مقاربتها إلا في اتجاه نغميتها الشاملة . الحالم هنا مراهق في سن العشرين ما تزال تلوح عليه ملامح الطفل بل فيه أيضاً شيءٌ من صبا الفتاة في مظهره الخارجي وشكل تعبيره . حركاته تدل على ثقافة جيدة وتربية ممتازة . ذكاؤه ينم عن ميول فكرية وجمالية واضحة . غير أن الناحية الجمالية هي الغالبة . ويدرك المرء في الحال ذوقه الرفيع وفهمه الدقيق للفن في كل أشكاله . أما عاطفته فتتجلى على نحوٍ رقيق حنون فيَّاض يحمل بوضوح السمات التي تسم عمرَ اليفاع ولكن في شكلها الأنثوي . وليس فيه أثرٌ لوقاحات المراهق . إنه ما يزال دون أي شك فتياً جداً بالنسبة إلى سنه . فهي إذن بالتأكيد حالة تطورٍ متخلف يؤكدها الدافع الذي بسببه جاء يستشيرني أي جنوسيته (Hamosexualité) .

وفي الليلة التي سبقت زيارته الأولى إليَّ جرى معه الحلم التالي :

«أجد نفسي في كاتدرائية عابقة بشفقٍ غامض . يبدو لي أن الأمر يتعلق بكنسية لورد . ثمّة في الوسط عين ماءٍ عميقة وكان عليَّ أن أنزل فيها»

هذا الحلم كما ترون لوحة متماسكة لحالة نفسية . أما تداعيات الحالم وافتكاراته فهي التالية : «لورد النبع السري الذي يجد المرء فيه الشفاء . وبالطبع فإني البارحة كنت مشغولاً بفكرة المجيء إليك للمعالجة والبحث عن الشفاء . ويبدو أن في لورد عين ماء من هذا النوع . وعلى الأرجح أن النزول في مياهها لا بدَّ أن يكون مزعجاً فالبئر في الكنيسة كانت عميقة جداً» .

ما هي الأمثولة من هذا الحلم ؟ إنه في الظاهر واضح كل الوضوح وبوسع المرء الاكتفاء باعتباره ضرباً من تعبيرٍ شعريٍ عن خِلط Humeur المريض الذي كان يسوده ليلة بدء علاجه . بيدَ أنه لا يجوز لنا أبداً الاكتفاء بهذا لأن التجربة تثبت بأن هذه الأحلام إنما هي أكثر عمقاً بكثير ، وأكثر دلالةً . وقد نجد أنفسنا تبعاً لهذا الحلم محمولين على التفكير بأن الحالم جاء يستشير طبيبه في حالة نفسية شاعرية وأنه سوف يبدأ علاجه مع المشحة[1] التي تواكب فعلاً احتفالياً ليتورجياً ضمن الوميض السراني لمكان مكرّس غامض . غير أن ذلك يناقض تماماً الاستعدادات الفكرية للمريض . فقد جاء لمجرَّد استشارة من أجل معالجة مسألة مزعجة جداً هي جنوسيته . وعلى أية حال فإن استعداده الواقعي في الليلة السابقة لا يتيح لنا فهم السبب الذي من اجله كان حلمه مفعماً بتلك الشاعرية إذا كان علينا أن نقرَّ بأن ثمة سببية تعمل في صياغة الحلم . بيد أنه بوسعنا مع ذلك الافتراض بأن الانطباع المؤلم الذي راود الشاب لدى فكرة استشارتي من أجل ألمٍ قلَّما هو شاعري كان هو بالتحديد نقطة انطلاق الحلم . ولعله من الصواب حقاً أن يكون جرى معه هذا الحلم الذي تفيض شاعريته بقدر ما كانت استعداداته في الليلة السابقة تبدو مفتقرة إلى نفس الشعر وأشبه بإنسانٍ بعد أن صام النهار يحلم الليل بموائد دسمة . لا يمكن للمرء أن ينكر بأن الحلم يذكّر

١ ـ المشحة : هي الحركة التي يقوم بها مترئس الاحتفال بمسح جبين المتقدم إليه بزيت الزيتون المصلى عليه وذلك من أجل الشفاء إن كانت به علة بدنية ، وعلامة على التوبة (والتوبة تعني تغيير السيرة) إن كان الغرض من ذلك روحياً إيمانياً (م) .

بفكرة المعالجة والشفاء والسيرورات المزعجة التي ترتبط به وقد اتخذت هيئةً شاعرية أي شكلاً يتلاءم على أفضل ما يكون مع أشواق الحالم الشديدة الجمالية والانفعالية . لذلك فإنه سيجد نفسه مشدوداً بهذه الصورة الملحفة على الرغم من أن عين الماء معتمة وعميقة وباردة . بل إن شيئاً ما من الانطباع الذي خلفه هذا الحلم سيدوم إلى ما بعد النوم ويستمر حتى الصباح حيث سيضطر للخضوع إلى الإلتزام المؤلم والقليل الشاعرية بأن يأتي إلى استشارتي . إن مرارة الواقع ستكون ربّما هكذا مشوبةً ببعض منعكسات خفيفة هي من مخلفات الحلم .

هل هذا هو هدف الحلم ؟ قد لا يكون ذلك مستحيلاً لأن معظم الأحلام تبعاً لخبرتي ذات طبيعة معاوضة[1] . **فهي تبرز في كل حالةٍ نوعية المنحدر الآخر بقصد المحافظة على التوازن النفسي** . بيد أن صورة الحلم ليس هدفها الوحيد وغايتها الأخيرة أو منفعتها الوحيدة المساهمة في تعديل مزاج الحالم . فنحن نتحقق في الحلم المذكور بأنه يحصل فيه أيضاً تصحيح للتصورات . وبالطبع فإن المريض لم تكن لديه سوى معلومات جدّ غامضة وغير كافية عن العلاج الذي كان سيخضع له . بيد أن حلمه قد أتاه تحت شكل كناية شعرية بصورة تسم المعالجة المحتمة . ذلك يقفز إلى العيان عندما يلاحق المرء فحص التداعيات والافتكارات التي خطرت (للشاب) بخصوص صورة الكاتدرائية .

يقول الحالم : «إن فكرة كاتدرائية تستدعي لديَّ صورة كاتدرائية كولونيا فقد سبق أن حظيت عندي في طفولتي بمكانة عظيمة في فكري . وأذكر بأن أمي هي أول من كلمني عنها[2] . وأذكر أيضاً بأنني كلَّ مرةٍ كنت أرى فيها كنيسة في قرية كنت أسأل عمَّا إذا كانت هي كاتدرائية كولونيا . وكنت أتمنى أن أصبح يوماً كاهناً لكي أحتفل في هذه الكاتدرائية» .

كان المريض في تداعياته يصف حدثاً هاماً جداً في شبابه . وكما هي الحال تقريباً في كل الحالات المرضية من هذا النوع كان ثمَّة في أعماقه رابطة صميمة بأمِّه

١ ـ لقد سبق لأدلر أن أبرز مفهوم التعويض النفسي .

١ ـ أنظر أيضاً بخصوص هذا المفهوم عند يونغ كتابنا المترجم لشارل بودوان : **علم النفس المركب** ص ٥١ . وكذلك انظر يونغ : **الإنسان يبحث عن نفسه** ، ص ١٧٠ (م) .

(٢)-أنظر الهامش في الصفحة ١٤٤

على نحوٍ خاص . ولكن لا يظننَّ القارىء بأن الأمر يتعلق بعلاقة واعية قلبية أو صميمة على نحوٍ خاص ؛ بل بالحري بضربٍ من صلةٍ سرية غامضة دهليزية لا تتجلى ربما في الواعية إلا بتخلف في تشكل الطبع وبطفالية نسبية . وبالطبع فإن الشخصية بمقدار ما تنمو ينزع ارتقاؤها إلى تخليصها من مثل هذه الأوصاد الطفالية الخافية لأن ليس ثمة أكثر شلاً لنمو سوي سوى استمرار المرء قابعاً في حالة خافية inconscient . وبوسعنا القول أيضاً في حالةٍ نفسية جنينية . لذلك فإن الغريزة تنتهز أول فرصة مناسبة لكي تستبدل الأم بغرضٍ آخر . ويجب أن يكون هذا الأخير على نحوٍ ما مضاهئاً للأم لكي يستطيع حقاً الحلول محلّها . وفي الحالة التي نحن بصددها يتحقق هذا الشرط على أبعد مدى . إن الشدة التي استحوذ بها الخيال الطفولي لمريضنا على رمز كاتدرائية كولونيا يشهد على حاجةٍ خافيّة بارزة جداً إلى إيجاد بديل للأم . وبالطبع فإن هذه الحاجة الخافية تزداد شدة كلما كانت الصلة الطفولية معبأة بالمخاطر . من هنا يأتي الحماس الذي استولى به الخيال الشبابي لمريضتنا على صورة الكنيسة ذلك أن الكنيسة أم في المعنى الأكمل للكلمة ومن كل وجهات النظر . فالكلام يجري ليس فقط عن الكنيسة «أمنا» ولكن أيضاً عن حضنها ففي احتفالات «بركة الينبوع» يتوجه (المصلون) إلى الأعماق العمادية مسمين إياها «رحم النبع الإلهي الذي لا عيب فيه» . ويعتقد الناس عموماً بأن من الضروري أن تكون لدى الفاعل معرفة واعية بهذه الدلالات لكي يكون تأثيرها فاعلاً في خيال المريض انطلاقاً من الواعية ، الأمر الذي هو مستبعدٌ تماماً في حالة طفلٍ جاهل ؛ انطلاقاً من هذا فإن الأكيد تماماً أن مثل هذه المقارنات لا تستشعر من خلال الواعية بل تمارس سيطرتها عبر سبلٍ مختلفةٍ جداً .

إن الكنيسة فعلاً تشكل بديلاً من مستوى عال روحي في حين أن روابط محض طبيعية و«لحمية» إذا جاز القول تشدُّنا إلى أهلينا . وهي بوجودها تحرّر الأفراد من علاقات طبيعية خافية لا تستحق إذا صحَّ التعبير حتى اسم علاقات ، مشكِّلةً بذلك حالة تواحدٍ أولي خافي inconscient ؛ وهذه تنطوي بسبب اللاوعي الذي يسمها تحديداً على جمودٍ قلَّ نظيره مقاومةً مقاومة عنيدة كلَّ ذبذبة في النمو النفسي والروحي .

بل قد يكون من الصعب الإشارة في ماذا يمكن أن يقوم خلاف جوهري بين

حالة التواحد هذه ونفس حيوان . وهو ليس اطلاقاً امتيازاً موقوفاً على الكنيسة المسيحية بأنها تنزع إلى تحرير الفرد من حالته الأصلية شبه الحيوانية وتسعى لتقديم الوسائل له من أجل ذلك ؛ إنه بالعكس الشكل الحديث والغربي خاصةً لنزوع غريزي قديم ربما قِدَم الإنسانية نفسها ؛ إنه توقٌ يمكن للمرء أن يجده في أشكاله الأكثر تنوعاً حتى الأقل تطوراً وغير المنقرضة أيضاً ؛ أنا ألمح إلى هذه المؤسسة الحقيقية التي تشكل طقوس المساررة أو التكريس الرجولي . ففي عمر البلوغ يُقاد المراهق إلى «بيت الرجال» أو إلى أي مكانٍ مكرَّسٍ آخر حيث يفصل تماماً عن عائلته . وفي الوقت عينه يلقن الأسرار الدينية وعلى هذا النحو يجد الفاعل نفسه موضوعاً ليس فقط في عالمٍ جديدٍ من العلاقات ولكنه سيكون فيه من جهة أخرى شخصيةً متجددة ومعدَّلة ذلك أنه يشكل من الآن فصاعداً ضرباً من مولودٍ جديد . الإسرار مرتبط غالباً بكل صنوف التعذيب التي يحتل الختان في داخلها أو أي وسيلة مضاهئة أخرى مكاناً مميزاً . ومما لا شك فيه أن هذه العادات عريقة عراقة البشر فقد أصبحت إواليات غريزية تقريباً بحيث صارت تعيد نفسها دائماً دونما حاجة إلى أي تحريضٍ خارجي ؛ هذا هو الأمر الذي يحصل لدى «عمادة» الطلاب في ألمانيا والتي تفوقها أيضاً الإسرارات الجارية في مؤسسات الطلاب الأمريكيين . وهذه العادات إنما هي منقوشة في الخافية تحت شكل صورٍ أولية .

عندما سمع معاودي ذلك الطفل الصغير أمَّه تتكلم عن كاتدرائية كولونيا فالذي حدث أن هذه الصورة الأسلافية وكأنها قد مُسَّت وأوقظت وأعيدت إلى الحياة . ولكن حيث إنه لم يكن ثمَّة كاهن مربي لكي ينمي هذه البداية فقد بقي الطفل في أحضان أمه . غير أن توقه إلى الاقتداء بالرجال لم يكفَّ عن التعاظم متخذاً على أية حال شكل نزوعٍ جنوسي وهو نمو ملتوٍ ما كان ليحصل ربَّما لو كان توفَّر ثمة رجل ينمي خياله الطفولي ويوجهه . لقد كان للانحراف الجنوسي فعلاً سوابق تاريخية عديدة . كانت الجنوسية والتربية في اليونان القديمة كما في كثيرٍ من التجمعات البدائية متماثلتين تقريباً فمن وجهة النظر هذه تشير جنوسيةُ المراهقة إلى حاجة إلى تدخلٍ ذكوري ، غير مفهومة حقاً إلا أنها مؤاتية بحد ذاتها ، وفي وسع المرء ربما أيضاً تصور جنوسية المراهقين هذه بإدراكه أن المركب الأموي الذي يتجذر في حصر الرهق قد تكوَّن على نحوٍ توسعي وأنه امتد تدريجياً في نفس هؤلاء المراهقين نحو الجنس الأنثوي

Symposium

عموماً . وفضلاً عن ذلك فإني أجد بأن رجلاً لم يبلغ بعد نضوجه يجد في نفسه سبباً دائماً لخشيته من مقاربة النساء ذلك أن علاقاته معهن ستجري على نحو منحرف .

إن مباشرة علاج هذا المريض تعني بالنسبة إليه تبعاً لمعنى الحلم تحقيق المعنى الذي كان مختبئاً في جنوسيته أي دخوله في عالم الرجل الراشد . إن كل ما كان يجب علينا عرضه وشرحه بدعم كبير من افتكارات مضنية متواصلة لم نكن بدونها لنفهم المعنى فهماً تاماً قد كثفها الحلم في بضع كنايات ساطعة ، خالقاً على هذا النحو جملة من الصور كان وقعها على خيال المريض وعاطفته وعقله أكثر قوة بكثير من أي خطاب تعليمي آخر . لقد وجد المريض نفسه بفضل هذا الحلم مهيئاً لعلاجه على نحوٍ أفضل وأكثر ذكاء من أوفر حشد من الحكم الطبية والتربوية . لهذا السبب فإني أجد في الحلم ليس فقط مصدراً ثميناً للمعلومات ولكن أيضاً أداة تربوية وعلاجية بالغة الفائدة .

فلنأت الآن إلى الحلم الثاني لهذا المريض عينه . أشير أولاً إلى أن حديثنا خلال الاستشارة الأولى لم يتطرق بأي شكل من الأشكال إلى الحلم الذي كنت الآن أشرحه والذي تلي علي تماماً كما سمعتم ؛ إن كلمة واحدة لم تلفظ فيما يتعلق بالتطورات أعلاه ؛ لم يجرِ أي إلماع إليه البتة[1] .

هاكم الحلم الثاني :

«أجدني في كتدرائية غوطية عظيمة . ثمة كاهن عند المذبح . انتصب واقفاً أمامه بصحبة صديقي وأمسك بيدي تمثالاً صغيراً يابانياً من العاج يرافقني شعور بأنه يجب أن يعمّد . تدخل فجأة سيدة متقدمة في السن بعض الشيء فتسحب من إصبع صديقي خاتمه الملون وتضعه في إصبعها ويخشى صديقي من أن يربطه ذلك بشكل أو بآخر . بيد أنه في هذه اللحظة تصدح موسيقى أورغ رائعة .»

سوف أكتفي هنا بالتنويه باختصار إلى نقاط هذا الحلم التي تحتوي وتكمّل حلم الليلة السابقة . فمما لا شك فيه أن هذا الحلم الثاني يرتبط بالأول : الشاب موجود مجدداً في الكنيسة أي في حالة تقبل التكريس الرجولي . بيد أن شخصية جديدة

١ - كانت هذه الإشارة الأولى معبّأة بلا شك بالإذكار العام المعتاد .

تكمل اللوحة : إنه الكاهن الذي أشرنا إلى غيابه في الحلم السابق . يثبت هذا الحلم إذاً بأن المعنى الخافي لجنوسيته قد تم إشباعه وأن طوراً جديداً من نموّه يمكن من الآن تأسيسه . ويمكن من الان للفعل الإسراري بالمعنى الحقيقي أن يجري ويتم العماد . إن رموزية الحلم لتثبت ما كنت أقوله أعلاه : ليس امتيازاً موقوفاً على الكنيسة المسيحية أن تعلي شأن تقويمات وتغيرات نفسية كهذه فنحن نميز في خلفية هذه الإرتقاءات الصورة الحية الأصلية التي في وسعها عند اللزوم أن تفرض هي أيضاً مثل هذه التحولات .

إن ما يجب تعميده تبعاً للحلم هو التمثال الصغير الياباني من العاج . ففي حديثه أدلى المريض بالتداعي التالي : «لقد كان هذا النُصَيبْ مكشراً يذكرني بأداة معينة . ولقد كان من السخافة على أية حال أن هذه الأداة يجب تعميدها . بيد أن الختان عند اليهود يمثلُ ضرباً من المعمودية . ذلك مرتبطٌ بلا شك على نحو ما بجنوسيتي لأن الصديق الذي كان يقف معي أمام المذبح هو تحديداً الشخص الذي كانت لي أدوات لديه . هذه الأدوات كانت متبادلة وإن الخاتم الملون يمثل بداهة علاقتنا» .

من المعروف ان للحلقة في الإستخدام الشائع دلالة جعلت الحالم يختارها من أجل الإشارة إلى علاقة أو إتحاد كخاتم الزواج مثلاً . لذلك فإننا نستطيع في الحالة الراهنة أن نرى بكل اطمئنان في الخاتم الملوّن كناية تمثل الإتحاد الجنوسي بطريقة الحضور المتواقت نفسها للصديقين أمام المذبح .

إن الجنوسية بالتحديد هي الإضطراب الذي يجب مداواته فلا بد من اخراج المريض من حالة طفولية نسبية ودفعه إلى حالة الرشد بمساعدة كاهن عبر ضرب من احتفال يشبه الختان . هذه المعطيات تتوافق توافقاً دقيقاً مع توسيعاتي فيما يتعلق بالحلم الأول . إذاً فإن الارتقاء يتبع إلى الآن تناقصاً منطقياً متزناً ومليئاً بالمعنى ومرتكزاً على تفصيلات عينية ثابتة . ولكن ها هو يطرأ تغيرٌ خطيرٌ في ظاهره : ثمة سيدة مسنة بعض الشيء تأخذ فجأة الخاتم الملون لنفسها أي أنها بعبارة أخرى تشدُّ إليها ما كان يشكل إلى الآن العلاقة الجنوسية الأمر الذي جعل المريض يخشى الإنجرار في علاقة جديدة قمينة أيضاً بإعاقة حريته . فحيث إن الخاتم الآن هو في

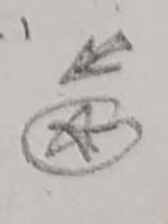
إصبع إمرأة فيبدو أن ذلك إشارة إلى ضرب من الزواج أي أن العلاقات الجنوسية قد أصبحت علاقات جنسية مغايرة ولكنها علاقات مغايرة من طبيعة خاصة جداً لأن الأمر يتعلق بسيدة مُسِنة . أما بخصوص هذه السيدة فقد قال المريض : «إنها صديقة أمي وأنا أحبها كثيراً وهي على العموم صديقة أموية جداً بالنسبة إلي . هذه الإيضاحات تفسّر لنا ما حدث في الحلم : لقد وجدت العلاقة الجنوسية بعد التكريس محلولة ومستبدلة بعلاقات مغايرة ظهرت في البداية تحت شكل صداقة أفلاطونية نحو إمرأة مشابهة للأم . غير أن هذه المرأة على الرغم من مضاهأتها للأم لم تكن بتاتاً الأم . إن الصلة التي استقرت معها تشكل إذاً خطوة نحو الأمام تحرر المريض من سيطرة أمه وتشير إلى أنه تجاوز جزئياً جنوسيته البلوغية .

يمكن بسهولة فهم الخوف الذي أوحت به هذه العلاقة الجديدة أولاً من خلال الخشية التي سبَّبها التشابه مع الأم ، ذلك التشابه الذي يمكن أن يعني بإلغائنا العلاقة الجنوسية أن المريض قد عاد إلى السقوط تحت سيطرة أمه وثانياً بالخشية مما تنطوي عليه من جديد ومجهول الحالة الراشدة المغايرة مع الزاماتها الممكنة ومن بينها الزواج .. الخ .. غير أن الموسيقى التي صدحت في هذه الأثناء يبدو أنها تؤكد بأن الأمر يتعلق بتقدم وليس بتقهقر . ذلك أن المريض يتمتع بكثير من المواهب الموسيقية وتهتز مشاعره خاصة عندما يصغي إلى نبرات الأورغ الإحتفالية . إذاً فإن الموسيقى تمثل بالنسبة إليه عاطفة إيجابية جداً وتشير في الحالة الراهنة إلى حلٍ سلامي للحلم ، حل يتضمن بدوره للغد استعدادات رائعة ومزاجاً مرقّى إلى مستوى الاحتفالية .

إذا ما حفظنا بأن هذا المريض لم يشاهدني إلى الآن إلا خلال إستشارة واحدة لم يتعلق الأمر خلالها أبداً إلا باذكار anamnése عام فسوف توافقون معي بأن هذين الحلمين يشكلان سوابق مدهشة . فمن جهة يضيئان وضع المريض ويظهرانه في منظور من أشد ما يكون فرادةً وأبعد ما يكون الوعي عن الشك به ويضفيان من جهة أخرى على الوضع الطبي المشترك مظهراً متكيفاً نوعياً مع ذهنية الحالم وتلويناته والذي هو قادر أفضل من أي شخص آخر على إثارة وتوتير مراكز اهتمامه الجمالية والدينية . وهذا هو ما سوف يحقق أفضل الشروط للعلاج . إن طابع هذين الحلمين ليوحي تقريباً بأن المريض كان سيبدأه بسارعة عظيمة يحمله إلى ذلك أمل مفرح . فطالما بدا

مستعداً للتخلص من مراهقيته الطفولية وبلوغ الرجولة . في الواقع لم تكن هذه هي الحال إطلاقاً فقد كان في حالة الوعي مملوءاً بالترددات والمقاومات وحتى في السياق اللاحق للعلاج قد بدا دائماً معانداً صعباً ومستعداً دون انقطاع للسقوط في طفالته . إذاً فإن حلميه يشكلان التناقض المطلق مع سلوكه الواعي . إنهما على الأقل يتحركان في خط التقدم ويأخذان جانب التربية . وفي رأيي إنهما يعرفان تعريفاً واضحاً بوظيفتهما الخاصة جداً تلك التي سميتها المعاوضة . إن النزوع الخافي نحو التقدم يشكل مع النزوع الواعي النكوصي زوجاً من متضادات توازن بعضها تقريباً . أما تأثير المربي فسيكون بمثابة لسان الميزان .

إن صور الخافية الجماعية تلعب في حالة هذا الشاب دوراً جوهرياً إيجابياً الأمر الذي يعود بداهة إلى أنه ليس لديه أي ميل خطير إلى ترك نفسه عرضة لبدائل تخيلية أو إلى الإنسحاب من الحياة إلى عالم وهمي . **إن نجوع الصور الخافية بذاته يصدر على نحو ما عن القدر ؛ إنها أداة من أدواته وربما - من يدري - كانت هذه الصور التي لا نهاية لفروقيتها هي ما نسميه القدر** . إن الأعيان الثابتة عاملة بالطبع دائماً في كل مكان غير أن العلاج التطبيقي لا يتطلب في كل حالة نوعية أن نتوقف ملياً على حسابها خاصة لدى المعاودين الشباب . أما لدى الأشخاص الذين بلغوا أو تجاوزوا منتصف العمر فمن الضروري إعارة انتباه خاص لصور الخافية الجماعية[1] ذلك أن فيها تكمن المنابع التي تنبثق منها الدلالات التي ستمسح بالعمل على حل مشكل الأضداد . إن الصياغة الواعية لهذه المعطيات اللا عقلية تشكل هذه الوظيفة السامية التي تكلمت عنها أعلاه والتي تؤدي إلى صياغة تصورات محمولة إلى الآن على الأعيان الثابتة وتصالح العناصر النفسانية غير المتصالحة ظاهرياً . ولست أقصد «بصياغة التصورات» مجرد فهم ذهني بل **فهماً قائماً على الخبرة الحية** . إن عيناً ثابتة كما سبق أن رأينا هي صورة زخمية ، عنصر من المنظومة النفسية الموضوعية لا ننصفها إنصافاً تاماً إلا باختبارنا لها تحت شكل مواجهة مستقِل autonome .



١ - إن المدرسة الفرويدية نفسها مجبرة على إهمال معالجة المرضى الذين تجاوزوا حدّ الخامسة والثلاثين أو الأربعين لأنها منغلقة دون مفاهيم الخافية الجماعية والأعيان الثابتة هذه . وهذا التسليم يشهد شهادة أوضح من الخطابات المطوّلة على واقع أن نظريات المدرسة الفرويدية (مهما تكن روعتها) ليست إلا نظريات مجزّئة للنفس البشرية (ر.ك) .

إن وصفاً عاماً لهذه السيرورة التي يمكن أن تنسحب على أجل طويل قد يكون منعدم المعنى بما فيه الكفاية ـ مع افتراضنا لمثل هذا الوصف الممكن لأنه يرتدي في كل حالة فردية أشكالاً لا نهاية لتنوعها . وما يشكل القاسم المشترك الوحيد هو الظهور المنتظم لبعض الأعيان الثابتة . فلنذكر على الخصوص أعيان الظل والوحش والقرينة والقرين والأم والطفل والعجوز الحكيم إلى جانب عدد غير معين من الأعيان الثابتة الأخرى التي تعكس أوضاعاً فردية أخرى محدّدة . فيجب حفظ مكان خاص لتلك الأعيان التي تشير إلى هدف أو أهداف السيرورة الإرتقائية . وسيجد القارىء التعليمات الضرورية بهذا الخصوص في عملي : «الرموز الأحلامية لأفعولة التفردن»[١] كما في مؤلف نشرته بالمشاركة مع ريتشارد ڤيلهلم : «سرّ الزهرة الذهبية»[٢] .

إن الوظيفةالسامية لا تجري جري المصادفة ولكنها تقود إلى انكشاف النوى البشرية الجوهرية المختبئة في قلب الفاعل . إنّها أولاً مجرد تناقص طبيعي يمكن أن يجري بالمناسبة دون إدراك من الفاعل ومساهمته بل حتى يمكن أن يفرض نفسه عليه فرضاً استبدادياً على الرغم من مقاوماته . **إن معنى هذه السيرورة وهدفها قائم في تحقيق الشخصية المصورة أصلاً في البذرة الجنينية بكمالها وبكل مظاهرها** . وما يتعلق الأمر به هو في تأسيس الكلية الكامنة الأصلية وتفتيحها . فالرموز التي تستخدمها الخافية من أجل ذلك هي نفسها التي استخدمتها البشرية منذ الأزل لكي تعبر عن الكلية والتكاملية والكمال . وهي عموماً رموز في شكل حلقات ومربعات . وقد سميت هذه الأفعولة باسم **أفعولة التفردن** .

لقد أصبحت أفعولة التفردن الطبيعية بالنسبة لي النموذج والخط الموجه في منهجي العلاجي . إن المعاوضة الخافيَّة لوضع واعي عصابي تتضمن كل العناصر التي بوسعها أن تصحح تصحيحاً ناجعاً أحادية الوعي فيما لو فهمت فهماً واعياً أي فيما لو استدمجت ، بما هي واقع ، في الحالة الواعية . من النادر أن يبلغ حلم من الشدة بحيث تزعزع الصدمة الناجمة عنه الوعي . إن الأحلام متفاقمة في ضعفها وفي

١ ـ منشورٌ في كتاب علم النفس والكيمياء وهو كتاب قيد الترجمة حالياً إلى العربية .
٢ ـ أنظر سر الزهرة الذهبية ترجمة نهاد خياطة ، دار الحوار اللاذقية ١٩٨٨ .

لا مفهوميتها بحيث لا تؤثر تأثيراً ناجعاً وعميقاً على الوعي . إنطلاقاً من هذا فإن المعاوضات تجري في الخافية دون وقع مباشر ومع ذلك فهي تمارس تأثيراً على أنه تأثير غير مباشر : إن المعارضة الخافية بمقدار ما تكون معرضة باستمرار للإهانة فإنها تعتبر أعراضاً وتختلق أوضاعاً تشل في النهاية على نحو لا يقهر مقاصد الوعي . ثم بعد ذلك يجتهد العلاج في فهم وتثمين الأحلام وكل تجليات الخافية الأخرى بأفضل ما يمكن لكي يتجنب تشكل معارضة خافية تصبح رهيبة مع الوقت من جهة ، ولكي يستخدم ما أمكن الإستخدام هذا العامل العلاجي الذي هو المعاوضة في قلب الفاعل .

هذا الأسلوب الإجرائي يستند بالطبع على فرضية أن الإنسان قادر على بلوغ كليته وأنه بكلام آخر وعلى نحوٍ عامٍ جداً قادر على الصحة .

أنوه إلى هذا الافتراض الأساسي لأن هناك بلا شك أفراداً ليسوا في الحقيقة متكيفين تماماً مع الحياة وينهارون بسرعة عندما يصطدمون لأي سبب كان بكليتهم ومشاكلها . . ومع ذلك فإذا كان هذا الحادث الطارىء لم يحصل فإن هؤلاء الأفراد سيعيشون حياتهم حتى عمرٍ متقدم ولكن فقط تحت شكل قطعٍ نفسية أو شخصياتٍ مجتزأة تجد الدعم الذي تحتاجه في طفيلية نفسية أو اجتماعية . إن أفراداً كهؤلاء ، ولسوء طالع الأشخاص الذين يتقاطعون معهم في الحياة ، هم غالباً أدعياء مخادعون يستترون فراغهم القاتل بمظاهر براقة . ولعلّها مبادرة لا أمل منها فيما لو أراد المرء أن يتعامل معهم انطلاقاً من المناهج المذكورة أعلاه . فما يساعد في مثل هذه الحالات هو وحده الحفاظ على المظاهر البراقة والحقيقة قد تكون غير محتملة وغير مفيدة .

**عندما تعالج حالة على النحو المفرط الإيجاز الذي أشرنا إليه فإن توجيه العمليات يقع على خافية الفاعل أما الواعية فلها النقد والاختيار والقرارات** . فإذا تميزت هذه الأخيرة بجرأتها فسيتأكد ذلك بأحلام تشير إلى التقدم الحاصل أما في الحالة المعاكسة فتعمد الخافية إلى تعديلات وتصحيحات . فبإمكاننا القول إذاً بأن مسار المعالجة أشبه بحوار متواصل مع الخافية . إن كل ما سبق يشير حتى البداهة إلى واقع أنه يجب إناطة دورٍ أكبر بالتفسير الدقيق للأحلام . بيدَ أن المرء سيتساءل عن حق متى نكون متيقنين من التفسير ؟ وهل هناك أدنى معيار جدير بالثقة يتيح تقدير دقة التفسير؟ إنه لما يسعدنا أن نستطيع الإجابة بالتأكيد على هذا السؤال الدقيق بقدر

ما هو مربك : إذا كان التفسير المعطى لحلمٍ ما خاطئاً أو مجانباً له أو أنه يشكو من عدم كفاية أو تكاملية فإن الحلم اللاحق يستطيع إذا اقتضى الأمر أن يكشف لنا ذلك . ولكن كيف ؟ إن الموضوع المستعصي مثلاً سيتكرر مرة أخرى تحت شكل أوضح أو إن التفسير المعطى سيُحطّ من شأنه من خلال عبارة ساخرة أو أننا أيضاً نرى ظهور معاكسة مباشرة عنيفة . ولنفترض الآن بأن كل هذه التفسيرات التي تتيحها هذه المواد الجديدة مغلوطة هي الأخرى فما الذي يحدث ؟ إن المرء ليتحقق بأن العلاج المشروع به يؤدي إلى طريق مسدود وعدم فائدة ممهورين بالعقم وعدم النجاح ومعبرين تماماً عن لا معقولية المشروع بحيث إن المريض والطبيب على السواء سيختنقان إما من الضجر وإما من شعورهما بالعجز . . وفي حين أن التفسير الدقيق يكون عموماً مؤكداً باسترجاع للحيوية فإن التفسير المغلوط يحكم على نفسه بالاستنقاع والشكوك والمقاومات التي يجرُّها ويؤدي كل شيء في النهاية إلى تورط متبادل محسوس عند بطلي (المشروع) المريض والطبيب . وبالطبع فإن الاستنقاع في العلاج قد يكون نتيجة مقاومات المريض الناجمة عن أسباب أخرى ، عن واقع أن المريض يتشبث معنداً بأوهامٍ بالية أو بمتطلبات طفولية . وبالمناسبة فإن الطبيب بالعكس هو من لا يعرف أن يبرهن عن الفهم الضروري كما جرى معي في حالة مريضة شديدة الذكاء إلا أنها لبواعث مختلفة قلّما كانت تبدو لي جديرةً بالاحترام . فبعد مباشرة العلاج المُرضية جداً خامرني الشعور على نحوٍ متزايد بأن تفسيراتي لأحلامها كانت تمرُّ بجانب الجوهر . ومع ذلك لم أكن أتوصل إلى اكتشاف مصدر الضلالة وكنت أحاول طرد الشك من عقلي . بيد أنني لم أكن لأستطيع خلال الاستشارات عدم التحقق من الفتور المتنامي لأحاديثنا الذي كان يترافق مع غياب متعب لأية نتيجة . وفي النهاية قررت أن أطرح انطباعاتي أمام مريضتي التي كما كان يبدو لي لم يفتها التنبه إلى ذلك الوضع . وفي الليلة التي سبقت لقاءنا جرى معي الحلم التالي :

«كنت أسير في طريق يخترق وادياً غارقاً في أشعة الشمس الغاربة . إلى اليمين كان قصر يطل من أعلى تلة وعرة وكانت امرأة جالسة في ذروة أعلى برج متكئة على نوعٍ من دربزين . وكان عليَّ لكي أراها أن أدير رأسي على نحوٍ جدُّ بارز بحيث استيقظت مع إحساسٍ بالتشنج في رقبتي . ولكن قبلُ وخلال الحلم كنت قد تعرَّفت في هذه المرأة إلى المريضة التي كانت تشغل اهتمامي» .

استخلصت من هذا الحلم بما أن وجهة النظر هذه قد فرضت علي في المنام بأن الأمر كان يعني على نحوٍ جلي أن موقفي إزاءها كان في الحقيقة مفرطاً في التسامح أو مفرطاً في السخرية . كذلك قمت باطلاع مريضتي على الحلم وعلى تفسيري له فتبع ذلك مباشرة تحول جذري في الموقف وحقق علاجها نجاحات فاقت كل توقع . إن مثل هذه التجارب تساعد الممارس في النهاية بعد أن اختزن ما يكفي من التجربة ودفع الضريبة المحتومة للأخطاء التي تنطوي عليها سنوات التعلم على امتلاك ثقة لا تخطىء في صحة المعاوضات التي تجلبها الأحلام .

لقد كرّست في هذه السنوات الأخيرة أعمالي وأبحاثي لهذه المشاكل العديدة التي تنجم عن هذه الطريقة العلاجية . وأنا في المؤلف الراهن أجتهد فقط في إعطاء القراء اتجاهاً عاماً في ميدان علم النفس المركب وهو المصطلح الذي انتقيته لتسمية محاولاتي النظرية . كذلك فإنه لا يمكن أن تطرح هنا مسألة التفاصيل المتعلقة بهذا الميدان العلمي الغني في تشعباته والذي ينطوي على أصداء فلسفية ودينية عديدة وعلي أن أحيل القارىء إلى المؤلفات الأكثر تخصصاً .[1]

١ ـ أنظر في هذا الخصوص كتابنا المترجم لشارل بودوان : **علم النفس المركب**، دار الغربال ١٩٩٢

ـ نورد هنا الهامش رقم ٢ الذي فاتنا تسجيله في الصفحة ١٣٤

٢ ـ يتيح هذا التداعي تقدير فجوة سوء الفهم التي تفصل المدرستين الفرويدية واليونغية . إن فرويدياً أرثوذكصياً كان ليقفز فجأةً عند هكذا تداعي جاعلاً منه فرس رهانه ومهملاً على نحوٍ أحادي الجانب كل ما تبقى من المواد التداعوية وغير متلكىءٍ في تفسير هذا الحلم ـ وليس هنا دون أي مبرر ـ على أنه رغبة في العودة إلى الأم وحسب (ر.ك) .

٨

# اعتبارات عامة في الخافية والعلاج التحليلي

لعله من الضلالة الاعتقاد بأن الخافية شيء غير مؤذٍ بوسعنا بخصوصها مثلاً تنظيم تسليات اجتماعية صغيرة أو أن بوسعنا استخدامها بلا تروٍ في محاولات علاجية . إن الخافية ليست بالتأكيدِ خطيرة في كل الظروف وعند كل الناس . ولكن حدوث العصاب سيكون إشارة إنذارٍ تدل بأن حشداً خاصاً جداً للطاقة قد حصل في الخافية مشكلاً ضرباً من تعبئة قابلة للانفجار . لذلك فإن احتياطات تفرض نفسها منذئذٍ . إن المرء ليجهل كل الجهل ما هو قمين بإطلاقه عندما يبدأ بتحليل أحلام فردٍ ما . فمن الممكن على هذا النحو أن يتحرك في الحالم شيءٌ داخلي وغير مرئي ويتعلق الأمر على الأرجح جداً بشيء ما كان يجب على أية حال أن يجد لنفسه مخرجاً ولكن من الممكن أيضاً أن لا يكون ذلك قد حصل البتة . إننا نحفر ، بصورة ما ، على أمل أن نجد بئراً ارتوازية غير أننا نجازف بالوقوع على بركان . فمنذ أن تبدأ أعراض عصابية بالظهور فإن المطلوب هو أعظم الحذر ولا يجوز للمرء أن يتقدم إلا بخطى بطيئة . غير أن الحالات العصابية ليست في أكثرها تقريباً هي الأخطر . يمكننا أن نصادف أشخاصاً هم في الظاهر من أكثر الأسوياء لا يبدو عليهم أي عرضٍ عصابي خاص - ربما كانوا هم أنفسهم أطباء أو مربين - بل تظهر فيهم حقاً الحالة السوية وهم نماذج في التربية الصالحة ولهم فوق ذلك آراء في الحياة وعادات من أكثر العادات سواء ومع ذلك فليس سواءهم أقل من تعويض مصطنع لذهان كامن مستتر . إنّ المعنيين



أنفسهم لا يشكون بشيء في حالتهم . والحدث الغامض الذي يملكونه عن ذلك لا يجد تعبيره ربما بطريقة غير مباشرة إلا بالجاذبية الخاصة التي يوحي إليهم بها علم النفس والطب النفسي ، ذانك المجالان اللذان يشدانهم كما يشد الضوء الفراشات . ولكن حيث أن تقنية التحليل تنشط الخافية وتساعدها على التعبير عن نفسها فإنها تدمر في مثل هذه الحال التعويض الصحي الذي كان مستقراً وتنبجس الخافية تحت شكل أخيلةٍ غير منقمعة واحتشاءات أحلامية مفسحة المجال لحالات من الهيجان تؤدي في بعض الظروف إلى اضطراب عقلي مزمن ، هذا إن لم تكن سابقاً قد دفعت المرء إلى الإنتحار . وللأسف فإن هذه الذهانات الكامنة لعنة ليست نادرة جداً .

إن أياً كان يهتم بتحليل الخافية معرض لخطر الوقوع على حالات من هذا النوع حتى وإن كان متجهزاً بخبرة عظيمة وبكثير من المهارة . وبصرف النظر عن هذه الحالات فمن الممكن فضلاً عن ذلك أن يفشل المحلل بسبب من عدم المهارة وضلالات في التصور وتفسيرات اعتباطية ، هي حالات لم تكن تنطوي بالضرورة على نهاية مشؤومة . ذلك ليس في الحقيقة العدة التامة لتحليل الخافية غير أن الإفتقار إليها يطبع بختمه كل تدخل طبي . إن التأكيد المجاني بأن التحليل يجعل الناس مجانين هو طبعاً أمر بليد تماماً كالفكرة الشائعة التي تزعم أن طبيب الأمراض العقلية على مدى اشتغاله مع المجانين سيصبح بدوره مجنوناً هو الآخر .

إن الخافية يمكن أن تصبح ، خارجاً عن المجازفات اللازمة للعلاج ، خطيرة بحد ذاتها . وإن واحداً من أكثر الأشكال شيوعاً الذي ترتديه الأخطار التي تسببها هو تعيين ا لحوادث الطارئة . إن عدداً من الحوادث من كل نوع أكبر بكثير مما يعتقد الجمهور إنما هو استجابة لتطويع نفسي سواء تعلق الأمر بأحداث بسيطة كالتفركش أو الارتطام أو حرق الأصابع أو بمهالك وكوارث عظيمة وحوادث سيارات وسقوط من الجبل ، فكل هذه الحوادث صغيرة أو كبيرة يمكن أن تكون محرِّضة ومعلَّلة تعليلاً نفسانياً ، وقد تكون أحياناً مهيئة منذ أسابيع أو حتى منذ أشهر . لقد فحصت كثيراً من حالات من هذا النوع فوجدت في أغلب الأحيان وجود أحلام تدل قبل أسابيع متقدمة على نزوع لدى الحالم إلى إلحاق الضرر بنفسه ، وهو نزوع كان يعبر عن نفسه بالطبع في أغلب الأحيان تعبيراً رمزياً . إن كل الحوادث التي تحدث كما يقال لعدم

الإنتباه يجب فحصها من وجهة نظر تحديدٍ متوقع من هذا الضرب . فالمرء يعلم عندما يكون غير مرتاح لسبب أو لآخر أنه تحدث له ليس حوادث شبه جدية وحسب ولكن أحياناً أشياء خطيرة أيضاً التي إذا ما فاجأته في لحظة نفسانية خاصة يمكن أن تضع حداً لحياته . الحكمة الشائعة تقول : «خيرُ ميتةٍ في خير لحظة» وهو شعور يوحي به حدس دقيق جداً بالسببية النفسية للحالة . وعلى نحو مضاهىء فإن أمراضاً بدنية يمكن أن تتولد أيضاً وتستشري . ويمكن لأداء غير سوي للنفس أن يحمل للبدن أضراراً عظيمة . كما على نحو متبادل يمكن لخمجٍ بدني أن يجلب الألم للنفس ، ذلك أن النفس والبدن ليسا عنصرين منفصلين بل يشكّلان بالعكس حياةً واحدة . زد على ذلك أنه يندر لمرضٍ بدني لم يكن متعيناً بأسبابٍ نفسية أن لا يجرَّ إلى مضاعفات أخلاقية من طبيعة معينة تترك بدورها أثرها على الخمج البدني .

بيد أنه من الضلالة أن لا نبرز سوى الجانب السلبي للخافية . إن الخافية في كل الأحوال الشائعة لا تصبح سلبية وضارة إلا لأننا في خلاف معها ، إذاً في تناقض مع النزعات العظيمة لنفسنا . إن موقفنا السلبي بإزاء الخافية بل حتى انكار وعينا لها أمر ضار بمقدار ما تكون زخميات الخافية مماثلة لطاقة الغرائز .[1] وبالتالي فإن نقصاً في التماس وافتقاراً إلى الروابط مع الخافية مرادف لاقتلاع جذور وعدم استقرار غريزيين .

بيد أن المرء إذا ما نجح في إقامة تلك الوظيفة التي سميتها السامية فإن الإنقسام على الذات يتوقف ويبدأ الفاعل بالإستفادة من العطايا الإيجابية للخافية . ذلك أنه منذ أن يتوقف التفككك بين مختلف عناصر الذات فإن الخافية تمنح - والخبرة تدعم ذلك بغزارة - كل مؤازرتها وكل الإندفاعات التي يمكن لطبيعة خيّرة ومعطاءة أن تمنحها للبشر . إن الخافية تخبىء في الواقع إمكانات لا يمكن للواعية إطلاقاً أن تدركها ذلك أنها تملك في احتياطيها كل المحتويات النفسية الوصيدية ، وكل ما جرى نسيانه أو إهماله وفضلاً عن ذلك الحكمة الموروثة من خبرة آلاف لا تحصى من السنين ، حكمة متوضعة ومؤتمنة في متعضياتها العينية الثابتة .

١ - أنظر «الغرائز والخافية» في علم الطاقة النفسية» ،راشر ، زوريخ .

إن الخافية في حالة نشاط دائم ؛ فهي بلا انقطاع تطبخ موادها وتحيك حبائلها من أجل تحديد المستقبل . إنها تخلق ترتيبات وصيدية مستقبلية تماماً كما تفعل الواعية بل هي أرقى بكثير بالدقة والمدى من الترتيبات الواعية . لذلك فإن الخافية قد تكون دليلاً للإنسان لا مثيل له بشرط وحيد هو أن يعرف كيف يقاوم ضلالات الواعية المفتنة .

العلاج العملي يجري تبعاً للعمليات العلاجية المتحصلة وهذه النتائج يمكن أن تحصل في أية مرحلة من العلاج بصورة مستقلة كل الإستقلال عن خطورة الحالة أو مدة الإضطراب . وبالعكس فإن علاج حالة خطرة يمكن أن يدوم زمناً طويلاً دون أن نبلغ إلى مستويات عالية من النمو أو دون أن يكون ضرورياً البلوغ إلى ذلك . زد على ذلك أن حالات عديدة بعد الحصول على النتائج العلاجية تستمر في ارتقائها الذي تجوب خلاله كل المراحل اللاحقة لتحولها . فمن الخطأ إذاً الاعتقاد بأن واقع الإلتزام أو التقيد بقطع المرء لكل أشواط نموه الشخصي يعني بأن الأمر كان ينطوي على حالة خطيرة ، وفضلاً عن ذلك وعلى أية حال فإن درجة رفيعة من احتياز الوعي لا يمكن أن يبلغها إلا الأفراد المؤهلون إليها بطبيعتهم والمدعوون أي الذين يتمتعون بملكةٍ ونزوع إلى بلوغ درجة رفيعة من التمايز . غير أننا نعلم أن الناس من وجهة النظر هذه متباينونَ كل التباين تماماً كالأنواع الحيوانية التي يوجد فيها المحافِظة والإرتقائية والمتطورة .

الطبيعة ارستقراطية ولكن ليس بمعنى أنها قد ادَّخرت للأنواع العليا وحدها إمكان التمايز وكذلك الأمر بالنسبة إلى إمكان النمو النفساني للإنسان : هذا الإمكان ليس موقوفاً على أفرادٍ موهوبين موهبة خاصة . وبكلامٍ آخر ليس من حاجة للمرء لكي يبلغ إلى نمو نفساني بعيد لا إلى ذكاء خاص ولا إلى مواهب أخرى نوعية ذلك أنه يمكن لمزايا أخلاقية لمثل هذا الإرتقاء أن تتدخل كبديل حيث لا يعود يكفي الذكاء . ولكن لا يظنن المرء خصوصاً وتحت أية ذريعة كانت بأن العلاج يقوم على تلقينه صيغاً عامة أو مبادىء معقدة ! إن الأمر لا يعني ذلك على الإطلاق . فكل واحد يستطيع على طريقته ومن خلال المفردات التي في متناوله والمتلائمة مع طبيعته العقلية أن يكتسب ما يحتاج إليه . فأنا لكي أعبر عما سردتُ أعلاه قد استخدمت مصطلحات

فكرية غير أنها بعيدة عن الإستعمال الشائع في العمل العلاجي اليومي . إن بعض الملاحظات الخاصة الواردة في هذا المؤلف تعطي من الآن على نحو أكثر دقة فكرة تقريبية عما هي عليه المحادثات التحليلية أثناء التطبيق .

إذا كان القارىء بعد كل ما سبق وصفه في الفصول السابقة لم يتوصل إلى تكوين صورةٍ واضحة عن نظرية وممارسة الطبابة النفسانية الحديثة فلن يعتريني الدهش لذلك ؛ وإني لأنحو باللائمة على مواهبي غير الكافية في العرض التي لم تتمكن إلا بجهدٍ جهيد بأن تجمع في صورة شاملة حية عناصر هذا الميدان الذي يمتد على مدى النظر ويتداخل فيه على نحوٍ غير انفكاكي الفكر والتجربة المعيوشة ويشكل غرض علم النفس الطبي . يمكن لتفسير حلمٍ على ورقة أن يعطي الانطباع بشيء اعتباطي معتمٍ ومصطنع غير أن هذا التفسير عينه يشكل في الواقع دراما صغيرة لواقعية لا تضاهى . إن عيش حلمٍ وتفسيره شيء مختلف كل الاختلاف عن الإصدار الثاني الذي له مذاق إعادة التسخين والذي هو الشيء الوحيد المتوفر أمام القارىء على الورقة . إن علم النفس هذا كله هو في الأساس خبرةٌ معيوشة . فالنظرية حتى في أجوائها الأشد تجريداً إنما تتحدَّر مباشرةً من تجارب حية . فأنا عندما أعيب على نظرية فرويد الجنسية وجهها الأحادي فلا يعني ذلك أن هذه النظرية تقوم على تأملات لا جذور لها ؛ بل هي بالعكس تشكل صورة أمينة لمعطيات واقعية تفرض نفسها على الملاحظة في التطبيق . وعندما نرى بأن ملاحظاتٍ محسوسة تتيح المجال لإنشاء نظرية أحادية الجانب فإنما ذلك يظهر ببساطةٍ مبلغ قدرة الإقناع التي تتجلى بها هذه المعطيات موضوعياً وذاتياً لعين الملاحظ . فمن المستحيل تقريباً الطلب إلى كل عالمٍ الارتفاع فوق جمحاته الشخصية الأشد عمقاً وفوق الصيغ المجردة التي أعطاها عنها ، ذلك أن حصاد الانطباعات مضافاً إلى الصياغة الفكرية التي تؤدي إليها تشكل من الآن عملاً كافياً جداً للحياة . لقد كان امتيازاً عظيماً بالنسبة إليَّ ، بالمقارنة مع فرويد وأدلر ، أن لا أبدأ انطلاقتي من قلب نفسانية الأعصبة وجوانبها الأحادية ؛ بل قد جئت مباشرةً من الطب النفسي متهيئاً تماماً لعلم النفس الحديث عبر كتابات نيتشه. وكنت دفعةً واحدةً جدُّ متأثرٍ على هامش تصورات فرويد بالمفاهيم التي نادى بها أدلر . وانطلاقاً من هذا الواقع فإني كنت في البداية غائصاً في معمعة الآراء ومجبراً على هذا النحو بأن



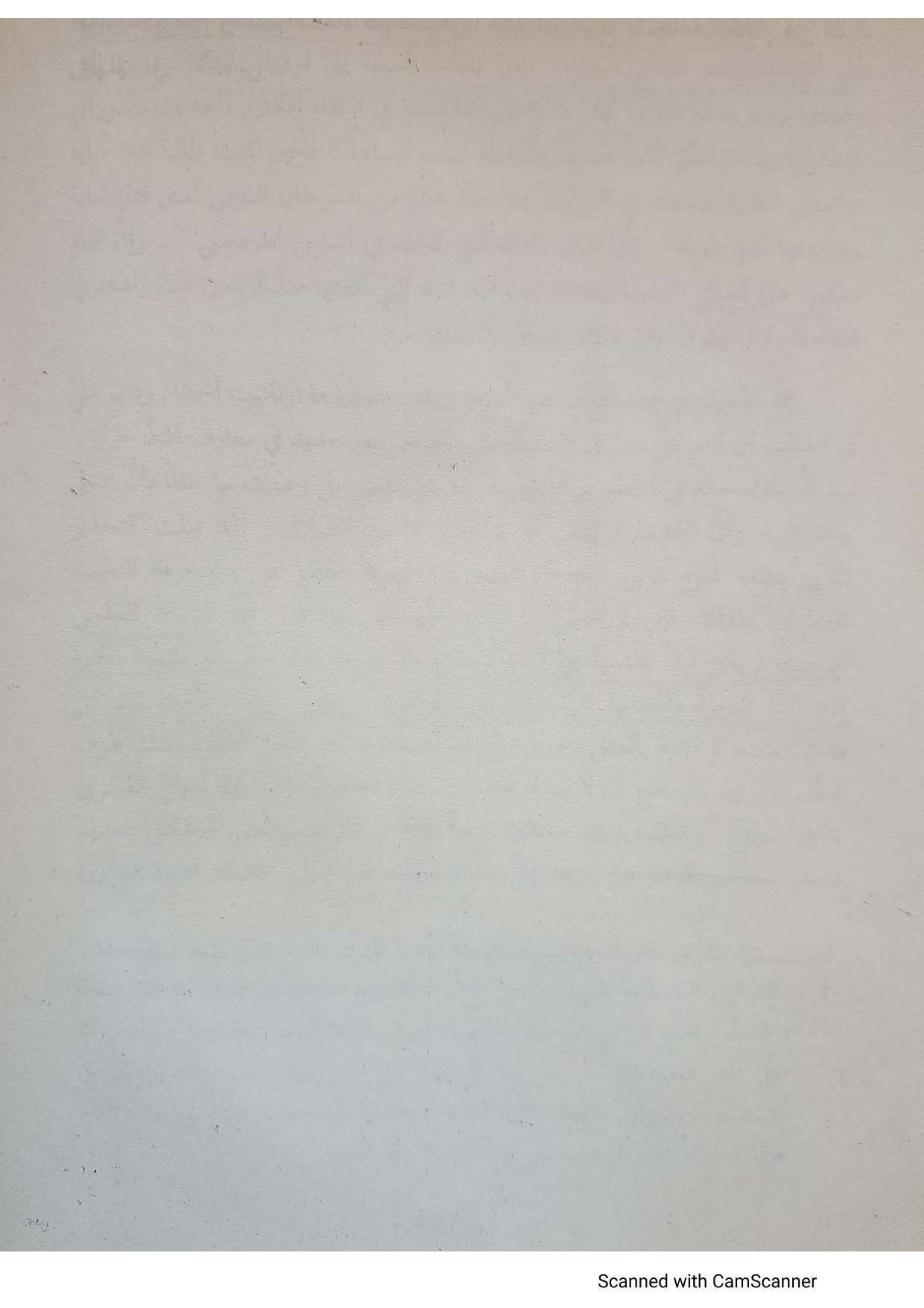
أرى ليس فقط في آراء سابقيَّ ولكن في آراء الخاصة أيضاً تصوراتٍ تخضع للنسبوية أي تجلياتٍ لنمط نفساني معين. وكما كانت بالنسبة إلى فرويد الحالة الشهيرة التي وصفها بروير حالةً متميزةً كان لها أهميتها الحاسمة في ارتقاء أفكاره ، كذلك تصوراتي لم تكن دون أن تتأثر تأثراً حتمياً بملاحظةٍ لست أنساها : فحين كنت طالباً عند نهاية دراساتي الطبية سنحت لي الفرصة بملاحظة حالةٍ من السرحان النومي لدى فتاةٍ شابة وبمتابعتها لمدةٍ طويلة . إنها تلك الحالة التي كانت في أساس أطروحتي[1] . وإنَّ قيام مطلعٍ على أعمالي العلمية بمقارنة هذه الدراسة التي ألفتها منذ أربعين سنة بأفكاري اللاحقة لن يكون بلا شك عملاً لا فائدة منه .

إنَّ الأعمال في هذا الميدان هي أعمال رواد . فغالباً ما ارتكبت أخطاءً وكان عليَّ في الغالب أن أمحو كلَّ معارفي السابقة لكي أخوض من جديد في معارف أشدَّ جرأة . بيد أنَّ تلك حالة في الأمور لم أتستر بها أبداً على نفسي بل رضيت بها عالماً بأنَّ الليل يولد النهار وأنَّ الحقيقة لا يمكن أن تنبجس إلا من الضلال . لقد قبلت التحذير الذي يطلقه غيوم فريرو Guillaume Ferrero عندما يتكلم عن «العجرفة التعيسة للعالِم !»[2] ولذلك فإني لم أخشَ ولم أندم جدِّياً على ضلالي . إنَّ النشاط العلمي للباحث لم يكن أبداً بالنسبة إليَّ لا بقرةً حلوباً ولا وسيلة استعجاب بل نتيجة الخبرة النفسانية اليومية والمجابهة المرَّة غالباً التي يفرضها المريض علينا . لذلك فإن كل ما تقدمت به لم أكتبه بالعقل وحسب بل هو أيضاً نابع أحياناً من القلب وذلك ظرف أسأل القارىء المتسامح أن لا ينساه عندما يصادف أحياناً باتباعه لخط أعمالي الفكري نقاط انقطاعٍ أو توقف لم يجرِ ضبطها ضبطاً كاملاً . لا يكمن للمرء أن يأمل بتقديم وصفٍ متناغمٍ يصدر عن منبعه إلا عندما يبحث عن سبلٍ جديدة تحدوه ضرورة

١ ـ «نفسانية الظواهر المدعوة خفية وأمراضيتها» ١٩٠٢ . ظهرت بالفرنسية في طبعة Montaigne .

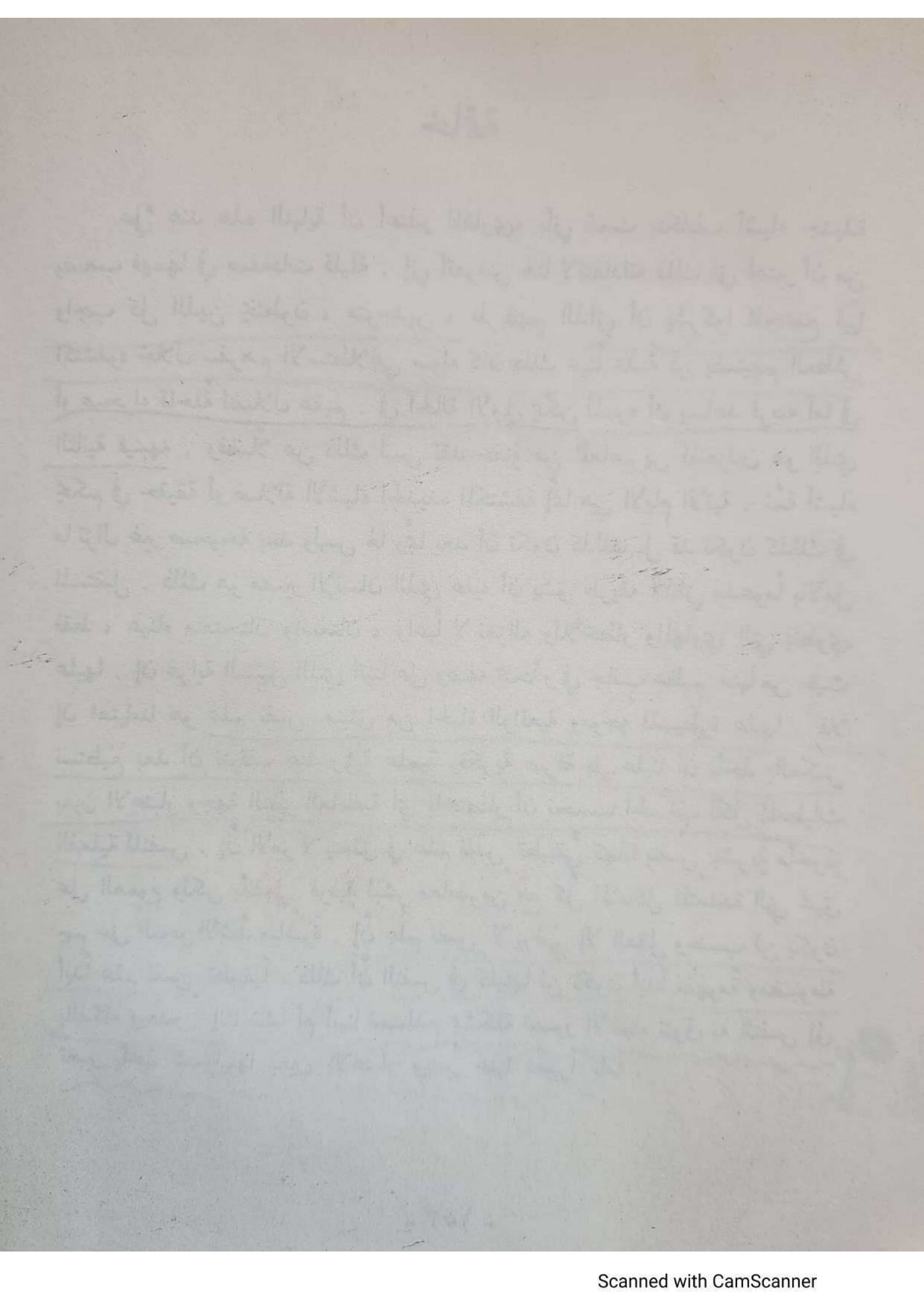
٢ ـ «القوانين النفسانية للرموزية» ، Les lois psychologiques du symbolisme, 1895 صفحة ٨ : «إنَّه لواجب أخلاقي على رجل العلم أن يتعرض لضلالات وأن يتلقى الانتقادات وذلك لكي يتقدم العلم دائماً . . . إن أولئك المتمتعين بفكرٍ جديٍّ بارد بحيث لا يعتقدون بأنَّ كل ما يكتبونه هو تعبير عن الحقيقة المطلقة الأبدية إنَّما يؤكدون هذه النظرية التي تضع أسباب العلم فوق العجرفة التعيسة وحب الذات المسكين لدى العالِم» .

مؤازرة المرضى وتقديم الشفاء لهم فسيكون عليه أن يتمتع بشجاعة الكلام عن أشياء يجهلها في الأساس .



# خاتمة

عليَّ عند هذه النهاية أن أعتذر للقارىء بأني قمت بتكثيف أشياء جديدة يصعب فهمها في صفحات قليلة . إني أتعرض هنا لانتقاداته ذلك أني أعتبر أن من واجب كل الذين يختطون ، متوحدين ، طريقهم الذاتي أن يشركوا المجتمع فيما اكتشفوه خلال سفرهم الاستطلاعي سواء كان ذلك عيناً عذبةً لمن يضنيهم العطش أو صحراء قاحلةً لضلال عقيم . في الحالة الأولى يمكن للمرء أن يساعد قريبه أما في الثانية فينبهه . وفضلاً عن ذلك ليس نقد حفنةٍ من المعاصرين المنعزلين هو الذي يحكم في حقيقة أو ضلالة الأشياء الجديدة المكتشفة إنَّما هي الأيام الآتية . ثمَّة أشياء ما تزال غير صحيحة بعد وليس لها ربَّما بعد أن تكون كذلك بل قد تكون كذلك في المستقبل . ذلك هو مصير الإنسان الذي عليه أن يشق طريقه الذاتي مدعوماً بالأمل فقط ، عيناه منفتحتان واسعتان ، واعياً لا نعزاله وللأخطار والمهاوي التي ينطوي عليها . إن غرابة السبيل الذي أتينا على وصفه تتحدَّر في جانبٍ عظيمٍ منها من حيث إن اهتمامنا هو علم نفسٍ منبثقٍ من الحياة الواقعية وموجهٍ للسيطرة عليها . فلا نستطيع بعد أن نتوقف عند رؤيةٍ علمية وفكرية صرفة بل علينا أن نأخذ بالعكس بعين الاعتبار وجهة النظر العاطفية أي باختصار أن نحسب الحساب لكل المعطيات الفعلية للنفس . إنَّ الأمر لا يتعلق في علم نفسٍ تطبيقيٍّ كهذا بنفسٍ بشريةٍ مأخوذةٍ على العموم ولكن بأنفسٍ فرديةٍ لبشرٍ معاصرين مع كل المشاكل المتعددة التي تحيق بهم على النحوِ الأشدِّ مباشرةً . إنَّ علم نفسٍ لا يرضي إلا العقل وحسب لن يكون أبداً علم نفسٍ تطبيقياً ، ذلك أنَّ النفس في كليتها لن تكون أبداً مفهومةً ومضبوطةً بالذكاء وحده . إننا شئنا أم أبينا نصطدم بمشكلة تصور الأشياء تتوق به النفس إلى تعبيرٍ يأخذ شموليتها بعين الاعتبار ويعبر عنها تعبيراً تاماً .



# مصطلحات نفسانية

هذا معجم صغير بأهم المصطلحات النفسانية ومعانيها ، كما وردت في أعمال يونغ .

**١ـ اسقاط أو خلع: Projection** كلاهما يؤديان المعنى عينه الذي يشير إلى خلع مضامين خافية على أحداث وأشخاص وأغراض خارج الذات . ويشتد الاسقاط بمقدار انحجاب مادته عن مجال الوعي .

**٢ـ استسقاط أو لبوس : Introjection** سيرورة خافية يتم فيها استدماج الغرض (صفة ، فكرة ، سلوك) وجعله في عداد العناصر الذاتية وهي سيرورة تجري بعكس الاسقاط .

**٦ـ انطواء: Introversion** حركة انكفاء الليبيدو الى داخل الفاعل (الذات) وهي تدل على الصلة السلبية بالغرض وعلى القيمة الضئيلة الممنوحة له . الذات هي هنا من يعين موقف الإنسان .

**٣ـ إصويرى : Imago** الصورة الأولى الخافية المتكونة عن الوالدين في مراحل الطفولة . ويتم اسقاطها فيما بعد على الأشخاص والأشياء والأحداث .

**٤ـ أطياف : Phantasmes** تخيلات تنبعث على نحو عفوي لا يحدَّد غرضها مسبقاً وقد تجري بـ « تسامح » من الوعي أو تطغى أحياناً بفعل زخمها فتجتاح حقل الوعي . وهي منبعثة دوماً من صورةٍ خافية أساساً .

**٥ـ انبساط : Extraversion** حركة اتجاه الليبيدو نحو الخارج حيث يأخذ الغرض قيمة أولى في نظر الفاعل وهو مَن يملي على الإنسان موقفه .

**٧ـ انضداد : Enantidromie** انقلاب الشيء الى ضده وهي عملية تتم على نحو خافي لدى الفرد كما لدى الشعوب .

٨- بائد : Archaïque هو الصفة التي تطلق على المضامين أو الوظائف النفسية القديمة التي تحمل طابع المخلفات الطفولية أو الأساطيرية الجماعية . وهي تكتسب صفة البيود كلما زاد ابتعادها عن مجال الوعي والتمايز .

٩- تعويض ، معاوضة : Compensation موازنة وظائفية. ضرب من التعديل الذاتي تقوم به المنظومة النفسية .

١٠- تفردن : Individuation التفردن عملية تشكل الفرد وتخصصه على صعيد نفساني بما هو متميّز عن المجموع وعن النفسانية الجماعية . أي بكلام آخر هي أفعولة التمايز .

١١- تمايز : Différenciation عملية تجري بعكس البيود والشواش . وهي تدل على تطور غرضٍ ما أو إحدى الوظائف واستقلالها عن المجموع بحيث إن الوظيفة غير المتمايزة مثلاً تكون محكومة بعامل التجاذب .

١٢- تمثل : Assimilation إضافة محتويات نفسية جديدة إلى محتويات سابقة . وهي عملية مماثلة لعملية التمثل الغذائي .

١٣- تمثيل أو تفصيل : Représentation إظهار الأفاعيل والمضامين النفسية في صورٍ وهيئات وتحديدات .

١٤- تواحد : Identification أفعولة خافية يغترب فيها الإنسان عن ذاته لصالح غرضٍ يتقمصه فيتخذ هيئته وحركاته وسلوكه وأفكاره التي تحلُّ كلها بدلاً من مكوِّنات شخصيته الأصلية . وهي أفعولة مختلفة عن سيرورة التقليد المتصفة بالوعي .

١٥- حدس : Intuition وظيفة أساسية في المنظومة النفسية يتم الإدراك بها على نحوٍ خافي . وهي وإن كانت مستقلة عن الإحساس الحواسي والعاطفة والاستنتاج غير أنها تستطيع أن تتغلغل فيها كلها . إنها وظيفة إدراكية لا عقلية .

١٦- خافية : Inconscient مفهوم يشمل المحتويات والأفاعيل النفسية غير الواعية أي التي تبقى صلاتها بالأنا غير مدركة . ويصعب استيعاء هذه المحتويات إلاَّ بالطرق

النفسانية التحليلية . هذا المفهوم هو ما يسمونه اللا شعور . هناك خافية فردية شخصية وخافية جماعية .

١٧- ظل : Ombre هو الجانب المرفوض والأدنى والخلفي من الشخصية . إنه المكبوت فينا . بيد أن فيه عناصر إيجابية أيضاً . « فهو شيء أدنى فقط ، بدائي ، غير متكيف ومزعج لكنه ليسَ سيئاً أبداً . إنه يحوي بعض الصفات الطفولية أو البدائية التي يمكنها إلى حدٍ ما أن تنعش الوجود الإنساني وتزينه » .

١٩- عقلي : Rationnel مطابق العقل . والعقل هو موقف يهدف إلى تعديل الفكر والعاطفة والعمل تبعاً لقيم موضوعية .

٢٠- عياني : Concret يقابل المجرَّد ؛ وهو مرتبط دائماً بمحيط حواسي . الفكر والعاطفة لهما جذور حواسية تغوص في الشواش البدائي وفي مناخ « المشاركة الصوفية » .

٢١- عين ثابتة : Archétype العين الثابتة صورة ذهنية خافية ذات زخمٍ فاعلٍ جداً ، تنكشف حقيقتها على نحوٍ غير مباشر من خلال تجلياتها . وقد سبق أن ترجمناها بكلمة أنموذج بدئي حين لم نكن بعد قد عثرنا على الكلمة التراثية المرادفة . أنظر شرحاً لهذا المفهوم في كتابنا المترجم علم النفس المركب ص١٥٩ .

٢٢- قرين ، قرينة : Animus – Anima القرين هو الحجم النفسي المذكر لدى المرأة وهو ذو طبيعة خافية .
القرينة هي الحجم النفسي المؤنث لدى الرجل وهو ذو طبيعة خافية .

٢٣- قناع : Persona « تركيبة من الوظائف التي تشكلت لأسباب ضرورية للتكيف والراحة لكنها غير متواحدة بالفردية . إنها تختص بالعلاقات مع العالم الخارجي وأغراضه . القناع توفيق بين الفرد والمجتمع فيها يبدو أنه الفرد » .
القناع « واجهة دفاعية » و« عضو التكيف مع العالم الخارجي » .

٢٤- لا عقلي : Irrationnel مضاد العقل أو خارج عنه ؛ ما لا يمكن تعليله بالعقل . الصدفة مثلاً لا عقلية .

٢٥ـ ليبيدو : Libido عند يونغ هو الطاقة النفسية عامة . أما فرويد فيقصره على الطاقة الجنسية .

٢٦ـ مِستِقِل، مستِقِلّ : Autonome الذي يتمتع بقانونه الخاص في إطار تنظيم أوسع ذي إدارة مركزية .

٢٧ـ مُستَقل : Indépendant المتحرر من كل علاقة أو ارتباط .

٢٨ـ منظومة نفسية : Psyché يُقصد بها مجموعة السيرورات النفسية الواعية والخافية .

٢٩ـ موقف : Attitude استعداد المنظومة النفسية للفعل أو الانفعال بموجب اتجاه ما .

٣٠ـ نفس : âme المبدأ الأساسي الذي تقوم عليه شخصية الفرد بما هي كل موحَّد . إنها « مركب محدَّد من وظائف متعينة تعيناً واضحاً » .

٣١ـ واعية : Conscient هي المجال الواعي ومحوره الأنا التي تقوم بضبط المحتويات النفسية . والاستيعاء هو الفعل الذي تقوم به الأنا لشدِّ المحتويات النفسيةإليها وهو يقوى بمقدار ما تدرك الأنا صلاتها بتلك المحتويات .

٣٢ـ وظيفة نفسية : Fonction psychique ضرب من النشاط النفسي يبقى متشابهاً مع نفسه على الرغم من تبدلات الظروف .

Wed 20 Oct 2010
Military service
Vehicles section 11:35 AM

Tue 28 Oct 2010
Military service
5:34 PM

# فهرس مواضيع .

## خ

## د



## ذ

## س



## ش

## ص

## غ



## ف

## ق

## ك



## ل

## هـ



## و

## ي

# فهرس عام

| المادة | الصفحة |
|---|---|

# كتب صدرت للمترجم



## «علم النفس الجديد وطرقه المدهشة»

هذا الكتاب : واحد من الكتب الشهيرة للعالم النفسي التحليلي ، بيير داكو ، الذي احتلت كتبه الصدارة في لائحة المبيعات العالمية لكتب علم النفس .

يختلف عن الكتب السابقة . . فيه مواقف إزاء الوجود والناس والأشياء والذات . . ويتكلم عن التبدلات والتغيرات التي تحدث في العالم على مستوى الجماعات والأفراد . . . وعن النزاعات والحروب ومنطلقاتها النفسانية . . عن الحظ والنجاح والفشل . . عن الحب والبغض . . والتربية . . والأحلام ، إضافة إلى الكيمياء والفيزياء الحديثة ، والمادة ، والروح ، والتقمص . . .

مفتاح واحد يقدمه المؤلف لمن يبتغي ارتياد الحياة والوجود . وتفعيل القوى الكامنة وعوامل الإبداع والجمال ، وتحقيق الإنسانية فرداً وجماعةً ، في واحة كوكبنا الأرضي الصغير .

**دار الغربال**



# من السجون إلى الحرية

الحرية هي أولاً حرية داخلية. اكتسابها أمرٌ ممكن وهي خارجة عن معظم المعايير المألوفة.

ثمّة سجونٌ كثيرة يجب الخروج منها أولاً: نفسانية واجتماعية وأخلاقية كبّلت الفرد على مدار السنين منذ الطفولة وحتى سن الرشد.

في هذا الكتاب يعرض لنا بيير داكو وسائل فعالة استقاها من خبرته التحليلية مع فئاتٍ عديدة من كافة الشرائح الاجتماعية. وهي وسائل جديرةٌ بأن تؤدي إلى تحريرٍ للشخصية الإنسانية خاصةً أنّ المؤلّف يعوّل كثيراً على الذكاء الذي يقدمه لنا في تصورٍ جديد شيّق وغير مألوف.

# سلسلة أعمال يونغ:

(١)

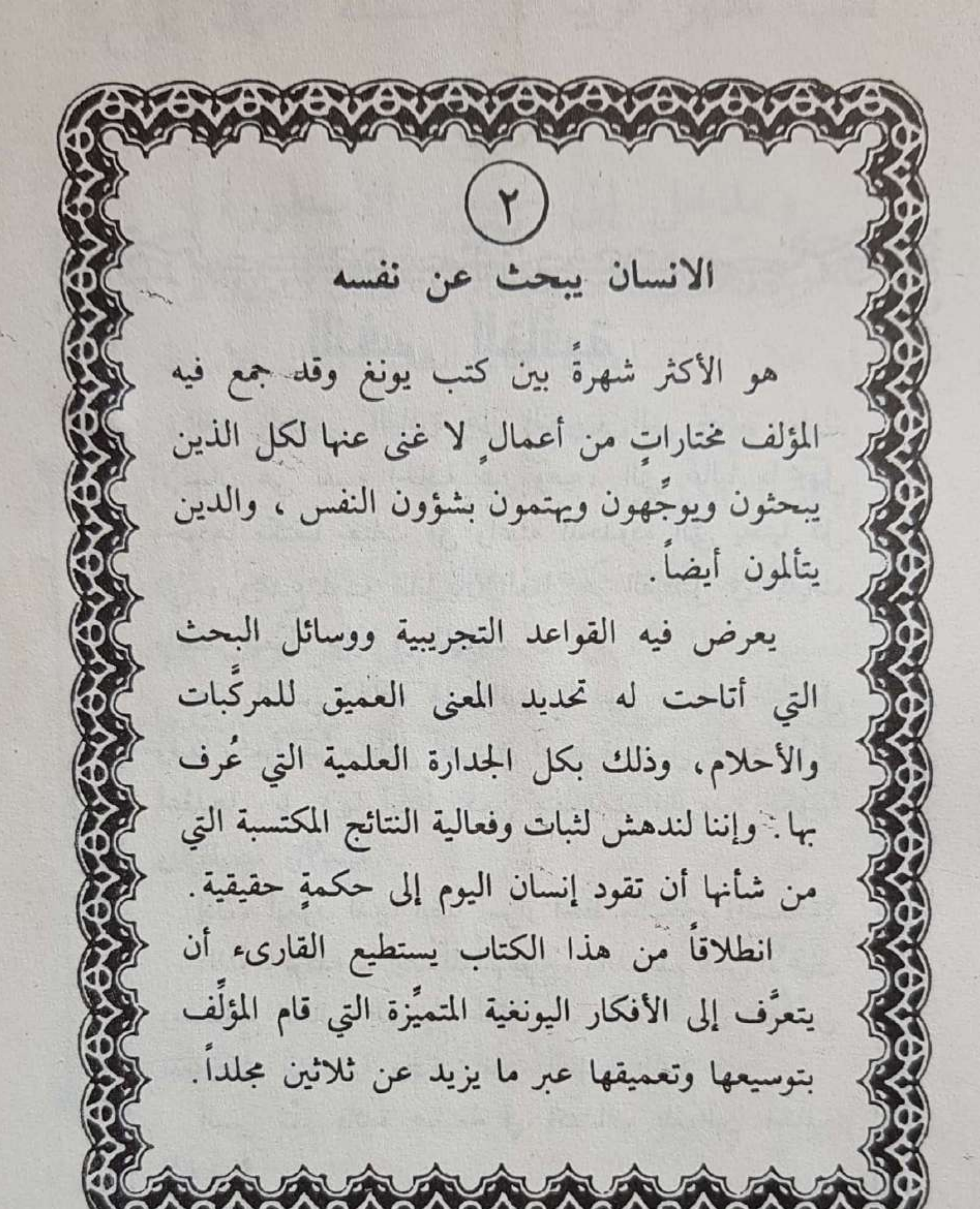
## علم النفس المركب *LA Psychologie Complexe*

*Oeuvre de Jung*

هو من اهم الكتب التي ظهرت لعرض وتفسير اعمال المحلل النفسي العظيم **غوستاف يونغ**، تلك الأعمال التي جاوزت الثلاثين مجلداً، المؤلف **شارل بودوان**، هو من مريديه ومن المتابعين لنهجه ومؤسس هو ايضاً لمعهد دولي لعلم النفس التحليلي في سويسرا.

هذا الكتاب هو الأول من نوعه باللغة العربية.

**ترجمة : سامي علام**



(٢)

## الانسان يبحث عن نفسه

هو الأكثر شهرةً بين كتب يونغ وقد جمع فيه المؤلف مختاراتٍ من أعمالٍ لا غنى عنها لكل الذين يبحثون ويوجِّهون ويهتمون بشؤون النفس، والذين يتألمون أيضاً.

يعرض فيه القواعد التجريبية ووسائل البحث التي أتاحت له تحديد المعنى العميق للمركَّبات والأحلام، وذلك بكل الجدارة العلمية التي عُرف بها. وإننا لندهش لثبات وفعالية النتائج المكتسبة التي من شأنها أن تقود إنسان اليوم إلى حكمةٍ حقيقية.

انطلاقاً من هذا الكتاب يستطيع القارىء أن يتعرَّف إلى الأفكار اليونغية المتميِّزة التي قام المؤلِّف بتوسيعها وتعميقها عبر ما يزيد عن ثلاثين مجلداً.

ترجمة: سامي علام وديمتري أفييرينوس



# النفس الخافية

القوة العظمى القادرة على التغيير، التي تحكم سلوك الإنسان هي نفسه الخافية عن وعيه، التي غالباً ما يجهل وجودها مكتفياً بفتاتٍ من واعيته المحدودة التي يظنها كل شيء، ويخدع نفسه ظاناً بأن العقل هو الفيصل في الملمّات والمنقذ المعوَّل عليه في المهالك.

هذه النفس الخافية لها قوانينها العلمية وبنيانها المتكامل وفيها يكمن سرُّ مشاكل الفرد في أبسط تفاصيل حياته كما في أعقدها. بل فيها أيضاً تكمن منطلقات الحروب الكونية والإقليمية والأهلية.

إذن، أيكون لديها أيضاً أسرار الحظ والنجاح والسعادة؟

ذلك ما يؤكده لنا أيضاً المعلِّم يونغ، رائد علم نفس الأعماق ومستطلع الأقاليم النفسية الخافية بعد خبرة خمسين عاماً من المعالجات النفسانية والاكتشافات العلمية المتلاحقة.

أليس ثمّة فائدة عظيمة في اكتشاف القوانين الخافية لأنفسنا؟

ترجمة : سامي علام

## كتب تظهر قريباً في سلسلة أعمال يونغ:

### ٤

### « مدخل إلى جوهر الأسطورة »

دراسة عظيمة متميزة قام بها عالمان مشهودٌ لهما كلٌ في مجال اختصاصه؛ عالم النفس وعالم الأساطير: يونغ وكيريني. موضوع الدراسة: «الطفل الإلهي» و«الفتاة الإلهية».

الكون كله يكتنف هذين الكائنين من أقصى السموات إلى أعماق الجحيم. إنهما أكثر عرضة لقوى الطبيعة من أطفال البشر ذلك أن عليهما استدماج الكثير من قوى الطبيعة نفسها

من هو زفس ونارايانا وأبـولون وهـرمس وديونيسوس؟

من هو الطفل اللقيط؟

ثم مَن هو الطفل الذي لا يُقْهَرْ؟ المزدوج الجنس؟ البدئي والنهائي؟

ترى ما هو سرُّه؟ وأين هو الإنسان من ذلك الطفل الخالد الذي كان دائماً حلم الأجيال؟ أيكون هو الولدُ التام المتوقع ظهوره باستمرار؟

**ترجمة : سامي علام وديمتري أڤييرينوس**

٥

# « الشفاء النفساني »

لا تقوم مناهجية يونغ على شفاء النفس الإنسانية من أمراضها وحسب، ولكن أيضاً على ربطها بالكون وقوانينه التي انقطعت عنها إثر ظروفٍ متعدِّدة ففقدت بذلك سعادتها.

النفس السعيدة لها قانونها الذي يجعلها تؤدي وظيفتها وهدفها على نحوٍ مريحٍ لا تعثر فيه. من هنا فإن مناهجية يونغ تقوم على إعادة الوحدة الداخلية إلى الإنسان ثم جعله يكتشف علاقته الوثيقة بالنظم البيئية والبشرية والطبيعية والكونية.

تلك خصوصية هذا الكتاب الذي يشكل مرجعاً تطبيقياً هاماً لعلماء النفس وكل المهتمين بمعالجة أشكال السلوك البشري وفهم تجلياته.

**ترجمة : سامي علام**

## ٦

# الأنماط النفسانية

ثمَّة جملة من الأفكار والاتجاهات والقرارات ؛ وأنواعٌ من الأمراض النفسية والبدنية تندرج في خانة هذا النمط أو ذاك . .

هناك أنماط في الأدب والفن والشعر ؛ وأنماط في السياسة والقيادة ؛ وأنماط في الحياة الزوجية والصداقات . .

فرويد وأدلر نمطان متعاكسان . . .

النمط هو الاستعداد الداخلي ؛ الموقف الكامن ؛ الذي سيعطي الفعل صورته . إنه متجذر على حدود الأحيائي والنفسي .

الإنسان المنبسط هو ذاك المنفتح أولاً على العالم الخارجي وأحداثه ؛ والمنطوي هو المشدود أولاً إلى العالم الداخلي ومجرياته .

أيُّ من العالمين يغريك ؟ الداخلي أم الخارجي ؟ الأمر ليس سهلاً ، فكلاهما غنيان سخيان . وجديرٌ بك أن تعرف البحار التي تقف على شواطئها وتستهويك أعماقها ؛ والحقول التي تسرِّح ناظريك في أقماحها ؛ والكروم التي تلذ لك أعنابها .

في كتاب يونغ هذا ، تجد السبيل إلى بقاع وأقاليم كانت إلى الآن تبدو مستغلقة ؛ ومفتاحاً لفك الكثير من الطلاسم وفهم أسرار التاريخ وحبكات الأحداث المستحكمة هنا وهناك في حياة البشر كافة .

**ترجمة : سامي علام وفايز بشور**

(٧)

## علم النفس والتربية

يضم هذا الكتاب آراء واتجاهات يونغ في شؤون التربية .

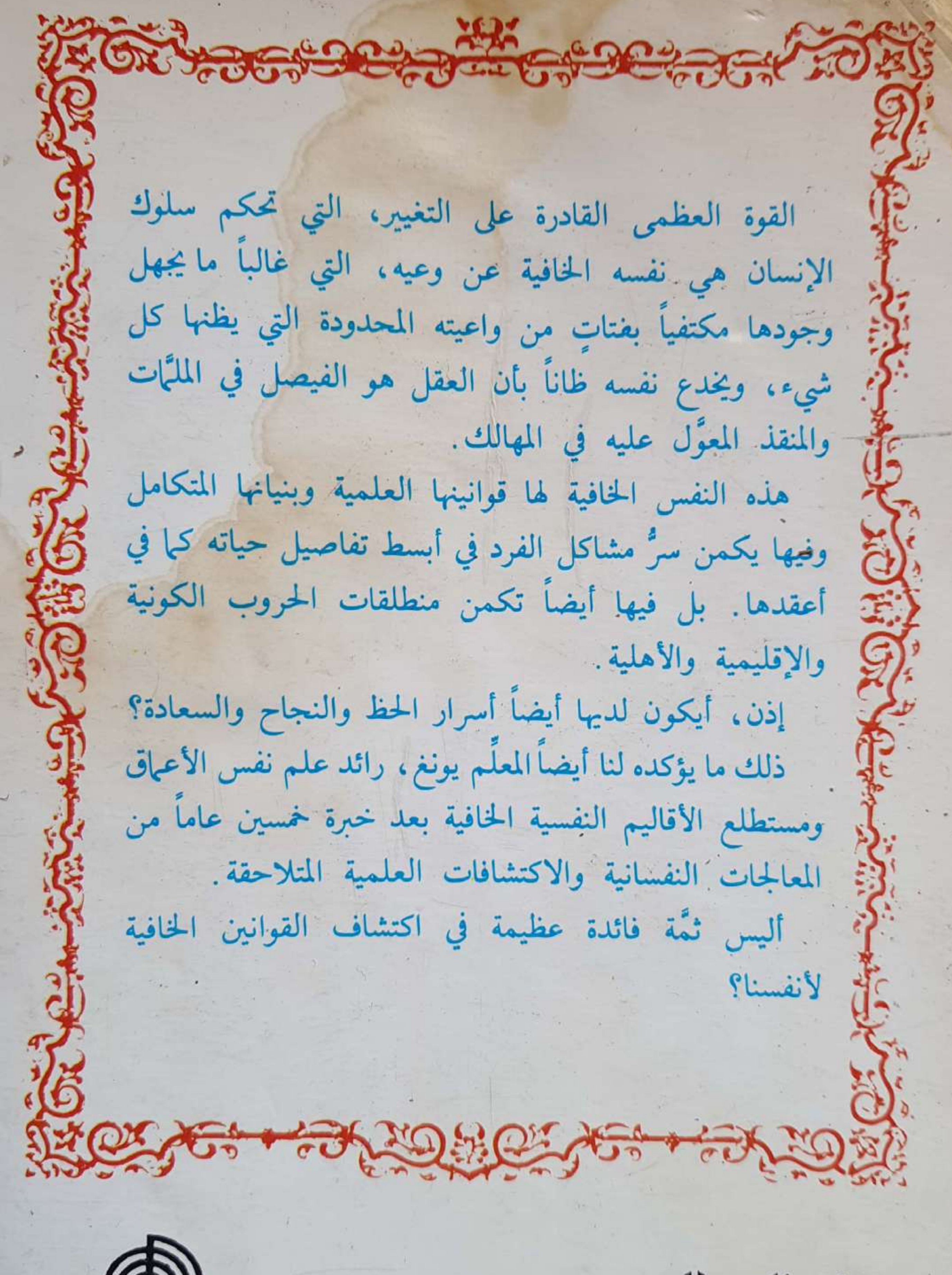
تربية الطفل تعني أيضاً توجيه الإنسان الراشد الذي يطوِّع الطفل إلى حدٍ بعيد . . .

ليست التربية مهمَّة سهلة . إنها تقتضي مرونة وذكاء وخاصة معرفة الراشد لنفسه قبل أن يطبق المبادىء الموضوعية على الطفل .

إنها رؤية جديدة ، عميقة ، وشاملة تقوم على معرفة القوانين السلوكية ، يقدمها لنا العالم النفسي العظيم يونغ ، بعد خبرة جيلية من البحث والملاحظة والمعالجات النفسية .

**ترجمة : سامي علام**





القوة العظمى القادرة على التغيير، التي تحكم سلوك الإنسان هي نفسه الخافية عن وعيه، التي غالباً ما يجهل وجودها مكتفياً بفتاتٍ من واعيته المحدودة التي يظنها كل شيء، ويخدع نفسه ظاناً بأن العقل هو الفيصل في الملمّات والمنقذ المعوَّل عليه في المهالك.

هذه النفس الخافية لها قوانينها العلمية وبنيانها المتكامل وفيها يكمن سرُّ مشاكل الفرد في أبسط تفاصيل حياته كما في أعقدها. بل فيها أيضاً تكمن منطلقات الحروب الكونية والإقليمية والأهلية.

إذن، أيكون لديها أيضاً أسرار الحظ والنجاح والسعادة؟

ذلك ما يؤكده لنا أيضاً المعلِّم يونغ، رائد علم نفس الأعماق ومستطلع الأقاليم النفسية الخافية بعد خبرة خمسين عاماً من المعالجات النفسانية والاكتشافات العلمية المتلاحقة.

أليس ثمَّة فائدة عظيمة في اكتشاف القوانين الخافية لأنفسنا؟

دار الغربال